

فِي رَحَابِ
الْإِسْرَافِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ

الجزء الثاني

تأليف

سماحة السيد صدر الدين القماني

إعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

فِي رَحَابِ
السَّرَايَةِ الْخَامِعَةِ الْكَبِيرَةِ

الجزء الثاني

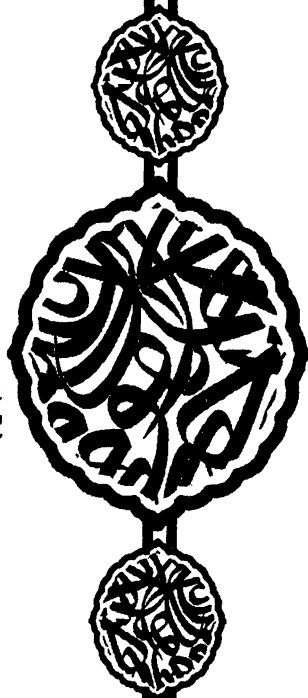
تأليف

سماحة السيد صدر الدين القماني

إعداد وتحقيق



مجلس الشورى الإسلامي





فِي رَحَابِ
الشَّرَافَةِ الْخَالِدَةِ الْكَبِيرَةِ
الْجُزءُ الثَّانِي

تأليف

سَمَاءُ حَبِيبَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَيْمِ

إعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

www.turathshiai.com

E-mail: info@turathshiai.com

نشر: بقية العترة

المطبعة: زيتون

عدد النسخ: ٣٠٠٠

سنة الطبع: ١٤٢٧ هـ. ق ١٣٨٥ هـ. ش

الطبعة الاولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة



منشورات بقية العترة

ردمك: ٩٦٤-٩٩١٤-٤٥-٥

الفصل الثاني من الزيارة:

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا شَهِدَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ
وَشَهِدَتْ لَهُ مَلَائِكَتُهُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ مِنْ خَلْقِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُنْتَجَبُ وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

وَأَشْهَدُ أَنَّكُمْ الْأَنْفُسَ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُونَ الْمُعْصُمُونَ الْمَكْرُمُونَ الْمُتَقَرَّبُونَ
الْمَقْبُولُونَ الصَّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ الْقَوَامُونَ بِأَمْرِهِ الْعَامِلُونَ بِإِرَادَتِهِ
الْفَائِزُونَ بِكَرَامَتِهِ اضْطَفَاكُمْ بَعْلُهُ وَارْتَضَاكُمْ لَعْنِيهِ وَاخْتَارَكُمْ لِسِرِّهِ وَاجْتَبَاكُمْ
بِقُدْرَتِهِ وَأَعَزَّكُمْ بِهُدَاهُ وَخَصَّكُمْ بِبِرْهَانِهِ وَاتَّجَبَكُمْ لِنُورِهِ [بُنُورِهِ] وَأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ
وَرَضِيَكُمْ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ وَحَبَّبَا عَلَى بَرِيَّتِهِ وَأَنْصَارًا لِدِينِهِ وَحَفَظَةَ لِسِرِّهِ
وَخَزَنَةَ لَعْلَمِهِ وَمُسْتَوْدَعًا لِحِكْمَتِهِ وَتَرَاجِمَةً لَوْحِيهِ وَأَرْكَانًا لِتَوْحِيدِهِ وَشُهَدَاءَ
عَلَى خَلْقِهِ وَأَعْلَامًا لِعِبَادِهِ وَمَنَارًا فِي بِلَادِهِ وَأَدْلَاءَ عَلَى صِرَاطِهِ عَصَمَكُمْ اللَّهُ
مِنَ الزَّلَلِ وَأَمَّنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ وَطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وَأَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسَ وَطَهَّرَكُمْ
تَطْهِيرًا.

فَعَظَّمْتُمْ جَلَالَهُ وَأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ وَمَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وَأَدْمَنْتُمْ [أَدْمَنْتُمْ] ذِكْرَهُ
وَوَكَّدْتُمْ [ذَكَّرْتُمْ] مِيقَاتِهِ وَأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طَاعَتِهِ وَصَحَّخْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ
وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَبَدَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضَاتِهِ
وَصَبَرْتُمْ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ فِي جَنْبِهِ [حَبِّهِ] وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَأَمَرْتُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَجَاهَدْتُمْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ

وَبَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ وَأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ وَنَشَرْتُمْ [وَفَسَّرْتُمْ] شَرَائِعَ أَحْكَامِهِ وَسَتَنْتُمْ سُنَّتَهُ
وَصَرَّيْتُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضَا وَسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضَاءَ وَصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ
مَضَى.

فَالرَّاعِبُ عَنْكُمْ مَارِقٌ وَاللَّازِمُ لَكُمْ لَاحِقٌ وَالْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زَاهِقٌ
وَالْحَقُّ مَعَكُمْ وَفِيكُمْ وَمِنْكُمْ وَالْيَكْمُ وَأَنْتُمْ أَهْلُهُ وَمَعْدَنُهُ وَمِيرَاثُ النُّبُوَّةِ عِنْدَكُمْ
وَأَبَابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ وَحَسَابُهُمْ عَلَيْكُمْ وَفَضْلُ الْخِطَابِ عِنْدَكُمْ وَآيَاتُ اللَّهِ
لَدَيْكُمْ وَعَزَائِمُهُ فِيكُمْ وَنُورُهُ وَبُرْهَانُهُ عِنْدَكُمْ وَأَمْرُهُ إِلَيْكُمْ.

* * *

المحاضرة الحادية والعشرون:

التأييد بروح الله

«اصطفاكم بعلمه، وارتضاكم لغيبه،
واختاركم لسره، واجتباكم بقدرته،
وأعزكم بهداه، وخصكم ببرهانه، وانتجبكم
بنوره، وأيدكم بروحه».

الحديث عن هذا المقطع من الزيارة «وأيدكم بروحه» الذي يعني أن أهل البيت عليهم السلام يؤيدون بروح الله تبارك وتعالى وهذا الأمر يستحق أن نقف عنده للحديث في معنى روح الله أولاً، ما هو؟
ثانياً: التأيد من الله، كيف يكون التأيد، أسباب التأيد، أنواع التأيد من الله تبارك وتعالى.

المبحث الأول: معنى روح الله:

أما الروح في قوله عليه السلام: «وأيدكم بروحه»، فإنه ما تزال الروح لغز عند أرباب العلم الحديث والعلم القديم، عند الفلاسفة المحدثين، والفلاسفة المتقدمين.

ما تزال الروح سرّاً مجهولاً، معروفة بواقعها مجهولة بتفاصيلها، يعني كل الناس يعرفون أن هناك شيء اسمه الروح هي التي تحرك هذا الإنسان وهذا الحيوان وتجعله يحس بالألم ويفرح ويغضب ويحزن ويبكي، لكن ما هي الروح؟ لا أحد يدري.

العلم الحديث أيضاً تقدّم في تحليل الأمور واكتشاف الجزئيات المادية لكن هل استطاع أن يتقدّم في معرفة ما هي الروح؟ ما يزال العلم يجهل هذا الأمر، وما يزال الإنسان هو ذلك المجهول.

الروح لغوياً:

أهل اللغة يقولون: الروح عبارة عن مصدر الحياة هذه الوردية فيها حياة، وهكذا أي نبات من النباتات حينما يمد جذوره في بطن الأرض ويبحث عن الماء يميناً وشمالاً، الحيوانات عندها روح ونسبة عالية من الإدراك، الإنسان عنده روح أعلى،

يقولون في اللغة الروح التي لا نعرف ما هي وما هو تكوينها لكن هي عبارة عن مصدر الحياة، الفرق بين الخشبة والحيوان والوردة والإنسان أنَّ الخشبة ليس عندها مصدر حياة، ولهذا تبقى هذه الخشبة لو وضعناها مثلاً على منضدة تبقى على حالها سنين أما النبات يتحرك، الإنسان يتحرك، الحيوان يتحرك، مصدر الحياة هو الذي يطلق عليه اسم الروح، توجد طاقة معينة في هذه الكائنات الحيّة هذه الطاقة تسمى الروح، لا أحد يستطيع في العلم الحديث أن يعطينا أوصافاً لهذه الروح، كيف تكون حمراء بيضاء صغيرة كبيرة؟ نعرف آثارها ليس أكثر، هذا المريض في المستشفى الأطباء ينظرون إلى الآثار والعوارض الجسميّة عليه، أنه إذا كانت دقات القلب مستمرة يقولون ما تزال عنده روح، وفي الحقيقة هم لم يلمسوا الروح، وإنما شاهدوا آثارها.

الروح في القرآن:

أما القرآن ماذا يقول؟

القرآن سلّط الضوء على الروح في أكثر من آية وأعطاه أهمية واحتراماً خاصاً، واعتبر الروح كياناً مهماً عميقاً عظيماً وأفرده بالحديث في كثير من المواقع لكننا نلاحظ في القرآن الكريم أنحاءً من التعبير، مرّة تأتي كلمة الروح مجردة ليست منسوبة إلى شيء كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(١)، ملائكة وروح ينزلون من السماء، ومرّة يرجون إلى السماء كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٢)، إذن لاحظوا: الروح شيء والملائكة شيء آخر والقرآن يعطي لكل عنوان استقلالته ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ إذن الملائكة يصعدون إلى السماء، وشيء آخر يمشي مع الملائكة اسمه الروح يرجع إلى السماء.

(١) القدر: ٤.

(٢) المعارج: ٤.

العجيب أن القرآن الكريم حين يتحدث عن الملائكة مرةً يجمعهم ومرةً يجعلهم مفرداً، مرةً يقول مَلَكٌ، ومرةً يقول ملائكة، لكن الروح واحدة مفردة، كل الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الروح تقول: الروح، أو روحي، أو روحنا، لا يوجد أرواح، القرآن الكريم فيه أسرار يكشفها الإنسان من خلال التدبّر. جيّد إذن أحياناً القرآن يطرح الروح كمفردة في مقابل الملائكة ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في نفس الوقت فإن الروح أيضاً تنزل من السماء... ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ﴾^(١) هذا نمط من أنماط التعبير في القرآن.

ومرةً أخرى القرآن الكريم يحدّثنا عن روح موصوفة بوصف يقول: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾،^(٢) تبين أنه يوجد شيء جديد اسمه روح القدس، وعندنا تعبير ثالث في القرآن الكريم اسمه الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٣).

ورابعاً القرآن يتحدث عن الروح وينسبها إليه بقول روحي، وروحنا ﴿فَتَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾،^(٤) إذن هذه روح خاصّة هي روح الله. وأحياناً نقرأ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٥) إذاً هذا الموجود عند الإنسان وعند آدم وعند عيسى عليه السلام هو نفخة من روح الله، لنرى إذن ما هي هذه الروح هل هي نفس الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾^(٦) يعني القرآن نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ.

(١) القدر: ٤ و ٥.

(٢) البقرة: ٨٧.

(٣) الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

(٤) الأنبياء: ٩١.

(٥) ص: ٧١ و ٧٢.

(٦) الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

حينئذٍ حينما تقول الزيارة الجامعة «وأيدكم بروحه» حديثنا هنا طبعاً أي روح من الأرواح؟ روح الله، الروح الأمين، روح القدس، أم هي شيء آخر؟ عجباً هل هي أرواح متعددة؟! إذا كانت متعددة لماذا القرآن يفردها ويقول الملائكة والروح.. روحي، روحنا، لا يوجد أرواح لماذا؟
القرآن إذاً قدّم استعمالات متعددة للروح في آيات متعددة والآن يجب أن نعطي تفاسير للمفردات، ثم نصل إلى الجمع والنظرية التي يؤمن بها مفسرنا.

أنواع الروح:

الروح الأمين هو جبرئيل عليه السلام، يقول المفسرون إن الروح الأمين اسم يطلق على جبرئيل، لكن هناك تعبير ثاني اسمه (روح القدس) هذا غير جبرئيل ما هو؟ الروايات تقول إن روح القدس هو روح خاص يؤيد به الله تعالى الأنبياء والأوصياء، هو روح عظيم جداً مقدس جداً يرافق الأنبياء والأوصياء.

الرواية في هذا الشأن تقول عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح»^(١) أولاً لأشرح لكم المعنى ثم نرجع إلى الرواية، أنظروا هذه النباتات عندها روح نباتية، ونصعد من النبات إلى الحيوان نجد عنده روحاً أكثر تطوراً من روح الشجرة والنخلة والوردة نسميها روحاً حيوانية، هذه النملة أصغر من الشجرة العملاقة لكن هذه النملة عندها نمط من الحياة والروح أكثر تطوراً من الشجرة والنخلة، النملة تبني بيتاً ويكون عندها ذرية وعندها احساس بالخطر وهروب، وتجمع مواد غذائية، وتدافع عن نفسها، وعندها لجان تخطيطية في عملها وأحياناً تجمع تيرعات فيما بينهم لكي يحشدوا مواداً غذائية، خاصة هذه النملة العجيبة في خلقها ليست موجودة في أعظم النباتات، إذاً عندها روح حيوانية، ونتقل لمخلوق أكثر

تطوراً من الحيوانات هو الإنسان حيث نقول الإنسان عنده روح اسمها الروح الإنسانية، هي أكثر تطوراً مما هو عند سائر الحيوانات، ليس أكثر على مستوى الكمية، بل على مستوى النوعية، لو بقى العلم الحديث يدرس الكلب والقرد آلاف السنين لا يتحول هذا القرد إلى إنسان في إدراكاته بل يبقى قرداً ربّما يتعلّم بعض الأمور، الآن في الغرب أحياناً ونتيجة البذخ والرفاه ولسبب من الأسباب يتخذون مثلاً من القرد خادماً يضعون في رقبته كيساً ويكتبون فيه كذا وكذا ويذهب إلى السوق لكن يبقى القرد قرداً ليس قادراً على أن يتصرّف تصرف الإنسان الحر، بينما أنظر إلى الطفل الصغير الذي عمره خمسة أشهر، هو حرٌّ من الصعب أن تسيطر عليه في إرادته وحركاته وفي إدراكاته، فهذه الحيوانات مهما تطوّرت لكن تبقى فاقدة لروح اسمها الروح الإنسانية بينما الإنسان يحمل روحاً أخرى غير الروح الموجودة عند الحيوانات اسمها (الروح الإنسانية).

وهناك روح رابعة اسمها روح الإيمان، الفرق بين المؤمن والكافر، أنّ المؤمن لديه روح خاصّة، نسمّيه إحساساً خاصاً، لديه مشاعر خاصّة، لديه رؤية خاصّة، لديه عين خاصّة يبصر بها اسمها روح الإيمان، يعني الكافر مهما تجمع عنده الأدلة أو العبر الدنيوية لكن يبقى قلبه لا يؤمن، والفرق بينهما كالفرق بين الأعمى والبصير، الأعمى مهما تعطيه من طاقة وتحليل لكن هو أعمى لا يرى أبداً، هو فاقد القدرة على الإدراك، الكافر فاقد القدرة على الإدراك المعنوي لسبب من الأسباب، القرآن الكريم يسمّيه أعمى ومرة يسمّيه ميّتاً، يعني الإنسان بدون إيمان ميّت ﴿أَوْ مَنْ كَانَ ميّتاً فَأُحْيَيْنَاهُ﴾^(١) إذاً القرآن يحدثنا عن نمط آخر من الروح، هو روح الإيمان. الإسلام يقول هذه

طاقة أخرى عند الإنسان المؤمن مرة يُسمّيها روحاً، ومرة يسمّيها نوراً، مرة يسمّيها حياة، عبارات كثيرة ولهذا سوف يختلف الكافر عن المؤمن بروح جديدة اسمها (روح الإيمان).

ثم نصل إلى الأنبياء والأوصياء حيث نجد لديهم قدرة عجيبة ما دون العرش إلى الثرى كل هذا يرونه ويعلمون به بطاقة جديدة فوق الأشعة فوق البنفسجية اسمها (روح القدس) ﴿وَأَيُّدَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(١) هذه ليست موجودة عندي وعندك بل هي موجودة عند الأنبياء والأوصياء.

إذاً أصبح لدينا في التحليل الإسلامي خمسة أرواح: روح نباتية، روح حيوانية، روح إنسانية، روح إيمانية، روح نبوية (روح القدس) والقرآن الكريم يشير إلى كلّ واحدة من هذه بنمط من أنماط الإشارة، والروايات طبعاً تذكر هذا المعنى لكن بمصطلحات أخرى.

الإمام الباقر عليه السلام يقول: «إنّ في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان، وروح الحياة، وروح القوة، وروح الشهوة»^(٢).

الله تبارك وتعالى يؤيد الأنبياء بروح اسمها روح القدس أحياناً هذه الروح التي هي ملازمة للنبي لا تفارقه وقد يؤيد بها المؤمنين أيضاً لكن ليس دائماً، مثلاً هذا الكميت شاعر أهل البيت حينما وقف عند الإمام الباقر عليه السلام وأنشده: ما لقلبٍ متيمٍ مستهام... هذا الشاعر الذي يقول: ما زلت أحمل خشبتي على كتفي أربعين عاماً أطلب من يصلبني عليها، هذا الكميت لما قرأ القصيدة عند الإمام الباقر عليه السلام الإمام قال له: «لا تزال مؤيداً بروح القدس ما دمت تقول فينا»^(٣) أنظروا يا أخوتي أحياناً يقول الإمام

(١) البقرة: ٨٧

(٢) الكافي ١: ٢٧٢ / ٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٤: ١٩٨٩٤ / ٥٩٨ - ٥.

للمتحدث «نفث الشيطان على لسانك»^(١) وأحياناً «روح القدس ينطق على لسانك» فرق كبير بينهما، الإمام علي عليه السلام في قصة هَمَامَ المعروفة الذي قال للإمام علي عليه السلام صف لي المتقين: الإمام عليه السلام اعتذر منه أولاً وثانياً ولَمَّا أُلْحِ عليه هَمَامَ استجاب له الإمام وقال: «فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُّعُ... أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَانَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُّوْهَا تَرْتِيلاً...»^(٢) إلى آخر الخطبة الرائعة إلى أن وصل الإمام عليه السلام إلى نهاية الخطبة خرَّ هَمَامَ صِعْقاً فحرَّكوه وإذا هو مَيِّت حيث لم يطق هذا الوصف العظيم.

الإمام يصف المتقين ويصور الجنة والنار وكيف ان المؤمن المتقي يتفاعل مع هذا العرض القرآني، هَمَامَ حينما سمع هذا الوصف من الإمام صعقته صعقة فمات، يعني مرة الإنسان يتأثر بكلام الإمام ويبدأ يبكي، مرة يكون حزيناً ويتباكى ومرة يغمى عليه ومرة وصل الأمر بدرجة من التأثير إلى حدِّ الفناء، فحرَّكوه وإذا هو مَيِّت، فقال قائل للإمام علي عليه السلام: فما بالك أنت يا أمير المؤمنين؟ هنا يأتي كلام الإمام يقول له: «ويحك إن لكل أجل وقتاً لن يعدوه وسبباً لا يتجاوزه فمهلاً لا تعد لمثلها فإنما نفث الشيطان على لسانك»، هنا في الحقيقة ليس الذنب ذنب المقريء للقرآن الكريم، أنا وصفت له المتقين ونتيجة تفتَّح قلبه وتوهَّج نوره أصابته صعقة ومات.

لاحظوا أحياناً روح القدس ينطق على لسانك مثل قصيدة الكميت حينما يقرأها للإمام الباقر عليه السلام الإمام يقول: لا تزال مؤيداً بروح القدس، أو لقد نطق روح القدس على لسانك.

إذاً هناك روح اسمها روح القدس، اليوم نقف عندها لنرى ما هي روح القدس.

(١) نهج البلاغة: خ ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: خ ١٩٣، وفيه (يرتلونه) ووردت (يرتلونها) في روضة الواعظين ومكارم الأخلاق.

هناك رواية^(١) جميلة أيضاً عن المعصوم عليه السلام من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة، وفي رواية أخرى حتى يؤيد بروح القدس، يعني هذا الشاعر الذي ينظم شعراً في أهل البيت ويؤثر على الجمهور يقول الإمام فيه: أولاً بنى الله له بيتاً في الجنة ثانياً: يؤيد بروح القدس.

إذاً ما هي روح القدس التي أيد الله بها عيسى عليه السلام، وأيد الله بها الأنبياء والأوصياء، وأحياناً يكون المؤمن مؤيداً بها.

القرآن الكريم يشير إلى هذه القضية في قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٢) لم يقل أيدهم بملائكة، ولم يقل بالرعب أو الأمطار أو الرياح ولا قال أيدهم بأنصار ولا قال أيدهم بأسلحة وإنما أيدهم بروح منه، عجباً ما هي هذه الروح؟!

المفسرون وصلوا إلى هذه النتيجة أن القرآن مرة يقول: ﴿نَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(٣).

ومرة يقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٤) ومرة يقول: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾، ومرة يقول: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾^(٥) ومرة يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٦).

أروع ما وصل إليه المفسرون هذا المعنى: أن الروح هي عبارة عن مصدر عظيم للطاقة والإدراك والمعرفة، لكن هذا المصدر العظيم للطاقة والذي هو مخلوق من مخلوقات الله تعالى ينزل بمقدار الجذب الذي عند

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥/ ح ٢.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) الأنبياء: ٩١.

(٤) الحجر: ٢٩.

(٥) البقرة: ٨٧.

(٦) الشعراء: ١٩٣.

الطرف الجاذب، مثلاً أشعة الشمس هي أشعة واحدة نسميها أشعة الشمس لكن هذه الأشعة الأرض تأخذ منها مقداراً، الماء يأخذ منها مقداراً، الإنسان يأخذ منها مقداراً، الهواء يأخذ منها مقداراً معيناً، إذاً هناك أشعة شمس مختزنة في الأرض، وهناك أشعة شمس مختزنة في البدن، وهناك أشعة شمس مختزنة في الماء وهناك أشعة شمس مختزنة في الكريات التي تدور حول الشمس، كلها شيء واحد اسمها أشعة الشمس، والكل يستفيد من هذا النور وهذا النور هو الذي يقتل البكتريا، ويطهر الأبدان، ويعمل آلاف الأعمال، هو شيء واحد لكن على كل شيء يوزع حسب استحقاقه.

الآن مثلاً الإنسان من خلال التقنيات الحديثة أصبح لديه قدرة على أن يخزن الطاقة الشمسية ويسير بها السيارات والمركبات الفضائية بلا حاجة إلى وقود، هناك صفائح معدنية ضخمة هذه تخزن أشعة الشمس وتحولها إلى طاقة محرقة.

العلماء هكذا يقولون: إن الروح هو خلق عظيم أعظم من الملائكة، أعظم من جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، هذه الروح في الحقيقة هي بالنسبة للملائكة وللإنسان وللأنبياء بمثابة ذي الظل إلى الظل يعني هي مصدر توليد روح الملائكة ومصدر توليد روح القدس ومصدر توليد روح الإنسان وروح الحيوان لكن الحيوان يأخذ منها مثلاً درجة واحد بالعشر ملايين لكن الإنسان يأخذ منها نسبة أكبر من الحيوان مثلاً مئة إلى عشرة ملايين وبهذه النسبة أصبح عنده ادراكاً وعقلاً، الأنبياء يأخذون شيئاً أكبر، إذاً هي أم الطاقات الحية، ولهذا القرآن الكريم يقول: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ...﴾^(١) وهكذا ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ...﴾^(٢) الملائكة تعرج وتنزل والروح أيضاً يعرج وينزل كما ان الشمس تشرق ونورها يشرق، والشمس تغيب ونورها يغيب معها، لكن الروح هذه

(١) المعارج: ٤.

(٢) القدر: ٤.

شيء مقدّس رغم أننا نعبّر عنه لتوضيح الفكرة بالطاقة، القرآن يرى أنّ الروح مثل روح الإنسان هو شيء جداً عظيم، هناك روحٌ عظيمة، هي خلق عظيم من خلق الله تبارك وتعالى، ومقدّس بحيث إذا مسّ شيئاً بثّ فيه الحياة وانتشرت فيه الروح. على كلّ حال الروح خلق عظيم كما تقول الروايات أعظم من جبرئيل وميكائيل.. ولعلّه من المفيد أن أذكر نصوص هذه الروايات «خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل»^(١).

في ضوء هذا التفسير والفهم للروح يتضح معنى قوله ﷺ في الزيارة: «وأيدكم بروح منه» فإذا كان المؤمن مؤيداً بروح من الله كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأُيِدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٢) فإن الأئمة عليهم السلام والأوصياء وأهل بيت النبوة بشكل عام هم أولى بالتأييد بالروح الإلهية من المؤمن العادي. هذا هو تمام الكلام في البحث الأوّل عن معنى روح الله.

التأييد الإلهي:

البحث الثاني في قوله: «وأيدكم بروحه» هو البحث عن معنى وكيفية التأييد الإلهي.

التأييد الإلهي له عدّة مستويات:

١ - التأييد بالعقل:

التأييد الإلهي بالعقل فإن الله تبارك وتعالى أعطى الإنسان عقلاً، هذا تأييد من الله تعالى للمؤمن والكافر بدرجة من الدرجات، والعقل أيضاً هو خلقٌ عظيم، وأوّل ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل فقال له: أدبر فأدبر.^(٣)

(١) الكافي ١: ٢٧٣.

(٢) المجادلة: ٢٢.

(٣) شرح أصول الكافي ١٢: ١١.

العقل هو شيء واحد مبثوث في الناس نقول هذا الإنسان عنده عقل، وهذا ليس عنده عقل، ولا نقول هذا الإنسان عنده عقول، يعني ان العقل شيء واحد، نحن الآن مليارات البشر كل واحد عنده قليل من العقل، إذاً هذا العقل هو مثل شعاع الشمس، شيء واحد لكنه موزع على كل البشرية كل بنسبته، هناك عقل إفلاطون وأرسطو مثلاً، وآخر قليل في إدراكاته العقلية.

هناك رواية لطيفة تقول: هبط جبرئيل على آدم ﷺ قال له: يا آدم أمرت أن أخيرك بين ثلاثة، فاختر واحدة ودع إثنين: فقال آدم: وما الثلاثة؟ فقال: العقل والدين والحياء.

فقال آدم ﷺ: فإني قد اخترت العقل.

فقال جبرئيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرائيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.^(١)

الله كلفنا أين ما يوجد العقل لا بد أن يوجد معه دين وأين ما يوجد عقل لا بد أن يوجد معه حياء، ولهذا فإن الإنسان العاقل الحقيقي هو ذلك الإنسان المتدين، العاقل لا يبيع الجنة ويشترى النار، هذا ليس بعاقل، لا يمكن للعاقل أن لا يشكر الله تعالى وأن لا يصلي، هذا ليس عاقلاً لماذا؟ لأن العقل يقتضي أن يكون عنده حياء من الله، من خالقه، فالصلاة عبارة عن شكر الله تعالى، وترك المعاصي هو عبارة عن حياء من الله، فكيف يكون الإنسان عاقلاً لكنه يجسر على خالقه ويكون عاصياً متمرداً على الله تبارك وتعالى.

آدم ﷺ اختار العقل فجبرئيل قال للحياء والدين انصرفا فأبيا وقالا إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان.

من الروايات اللطيفة والرائعة أن أقل ما قسمه الله على العباد إثنان لأنهما ثمينان

أحدهما العقل، والثاني الإنصاف، قليل من الناس عندهم عقل، انظروا إلى هذه المآسي والمصائب والمشاكل والإخفاقات في حياة البشر والإزعاجات والخلافات العائلية كلها أو أكثرها ناشئ من قلة العقل، والإنصاف كذلك أيضاً فهو أقل ما قُسم على الناس فإن أكثر الناس ليس عندهم إنصاف، لو كان الناس عندهم إنصاف لا يبقى الفقير فقيراً والغني متختماً بغناه، أو قصر إلى جانبه كوخ، وهكذا... وما تمرّد ابن علي أبيه أو زوجة علي زوجها ولا ظلم زوج زوجته أو أب يظلم ابنه إلا نتيجة قلة عقل وقلة الإنصاف.

الإنسان مؤيد بالعقل، ولكن القرآن في تعبيراته الرائعة يقول ان الله تعالى أعطى العقل للإنسان لكن سلبه من الكافرين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾^(١) يعني الله تعالى منحهم هذه الطاقة العظيمة المولدة لكن هم لا يستعملونها، لهم قلوب لا يعقلون بها، وبالنتيجة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢) يعني فاقدين للعقل مثل الحيوانات.

٢ _ التأيد بالملائكة:

وأحياناً يكون التأيد الإلهي بالملائكة حيث ان الله تعالى يؤيد عباده لمؤمنين بالملائكة كما في معركة بدر، وحنين، أو كما في قصة السكينة التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٣) تأييد بالجنود لكن جنود إلهيين.

وأنا الليلة أريد أن أشرح لكم أو أقف معكم وقفة سريعة مع آية من الآيات التي كثر فيها الصراع بين الشيعة والسنة وهي آية ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) التوبة: ٤٠.

الغار إذ يَقُولُ لصاحبه لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^(١). هذه الآية من الآيات الخلفية على المستوى العقائدي حيث أهل السنة يقولون هذه الآية رصيدنا الكبير الذي جاء في القرآن الكبير في المدح والثناء لأبي بكر، والشيعية تقدّم عشرات الآيات في الثناء والمدح لأمير المؤمنين عليه السلام.

قالوا: نحن أيضاً عندنا آية قرآنية نزلت في حق أبي بكر وهي هذه الآية: ﴿إِلَّا تَصْروُهُ...﴾ - يعني إن لم تنصروا رسول الله ﷺ - فاعرفوا أن الله قد نصره يوم كان وحيداً، الآن أنتم في حنين خذلتم النبي ولكن ليس ثمة مشكلة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا^(٢)﴾.

إخواننا أبناء العامة قالوا الحمد لله الآن قد وضح الحق صاحب رسول الله هو الخليفة الصديق أبو بكر والقرآن صريح يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، فمن كان صاحبه في الغار؟

قصة ثاني اثنين:

القصة هكذا تقول باتفاق المؤرخين أن رسول الله ﷺ لما أوحى الله تعالى إليه أن يخرج من مكة وأنه ليس لك في مكة ناصر، طلب من أمير المؤمنين المبيت على الفراش وصحبه أبو بكر، رواياتنا^(٣) تقول ان النبي ﷺ لم يصطحب أبا بكر، لكن أبا بكر التحق به عنوة، وقد كان رسول الله يحاول التخلص منه وعلى كل حال فقد اصطحبه رسول الله، الإمام أحمد بن حنبل يذكر هذه الرواية أن أبا بكر كان يضغط

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) أنظر: بحار الأنوار ١٩: ٢٨ وما بعدها.

على النبي^(١) ... ليس ثمة مشكلة لنفترض أن رسول الله اصطحبه وصلوا إلى الغار في داخل جبل اسمه جبل الثور وبعد عدة فراسخ عن مكة المكرمة وهو أثر تاريخي بالنسبة لنا، لكن هذا الأثر فإن المملكة العربية لا تهتم به، هناك عدم عناية وإهمال لهذه الآثار بحجة أنها بدعة.

لَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ وَاکْتَشَفُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَاجَرَ هَجَمُوا عَلَى بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ نَهَضَ لَهُمْ عَلِيٌّ فَسَأَلُوهُ عَنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: اجْعَلْتُمُونِي عَلَيْهِ رَقِيبًا،^(٢) فَهَيَّئُوا فِرْقَةَ طَوَارِيءٍ سَرِيعَةٍ لِلْحَاقِّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَهُمْ طَلَانِعٌ يَدُلُّوهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَصْبَحَ الدَّلِيلُ يَمْشِي مَعَ الْأَثَرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ الثَّوْرِ، وَإِذَا هَذَا الْغَارُ، قَدْ نَسَجَ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ بَيْتًا ثُمَّ إِنَّ الْفَاحِشَةَ جَاءَتْ وَبَيَّضَتْ هُنَاكَ، بَحِثْ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى هَذَا الْمَكَانِ لَمْ يَفْكُرُوا أَنْ يَمْزُقُوا النَّسِيجَ وَيَنْظُرُوا دَاخِلَ الْغَارِ الرَّوَايَةُ تَقُولُ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ مَدَّ رَأْسَهُ لَرَأَى النَّبِيَّ وَأَبَا بَكْرٍ دَاخِلَ الْغَارِ، لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ عَلَى عِيُونِهِمْ بِهَذِهِ الْمَعْجِزَةِ وَهَذِهِ الْكَرَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لَمَّا وَصَلَ الدَّلِيلُ إِلَى الْغَارِ قَالَ لَهُمْ: إِلَى هُنَا انْتَهَى الْأَثَرُ إِمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ، وَإِمَّا قَدْ غَاصَ إِلَى الْأَرْضِ لِأَنَّ آثَارَهُ انْتَهَتْ.

الروايات تقول أن أبا بكر أوجس خيفة واضطراب وأوشك أن يقفز ويخرج فقال رسول الله له: ويحك لن يصلوا إلينا إن الله معنا، هنا يقول أهل السنة: أنتم تقولون إن علي بن أبي طالب أخو النبي، نحن أيضاً نقول أبو بكر صاحب النبي ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٣) طبعاً وباتفاق المفسرين فإن السكينة قد نزلت على رسول الله ﷺ والجنود قد أيد الله بهم رسوله ولا يقول أحد أن الجنود نزلوا لتأييد

(١) أنظر: بحار الأنوار ١٩: ٩٣ وما بعدها.

(٢) البحار ١٩: ٥١.

(٣) التوبة: ٤٠.

أبا بكر، ولكن أهل السنة يستفيدون من هذه الكلمة أن أبا بكر هو صاحب رسول الله ﷺ وهذه منقبة وفضيلة لأبي بكر نزل بها القرآن الكريم فماذا تقولون يا علماء الشيعة؟

الصحة ومداليلها:

علماء الشيعة يقولون: صحيح إن أبا بكر هو صاحب رسول الله ﷺ لكن الصحة ليست دائماً ذات قيمة إيجابية انظروا يا شباب لنكون منصفين وتعامل مع القضايا علمياً نحن نقول الإمام علي عليه السلام أخو رسول الله ﷺ قد تسألون إذاً ما هي هذه المنقبة للإمام علي عليه السلام؟ لاحظوا الإمام علي ليس أخا رسول الله بالنسب لكن هو جعله أخاه للتوحد في اللياقة، رسول الله اختار من المسلمين من يليق بأن يكون أخاه، فهذه أصبحت قيمة أخلاقية عالية، وإلا لو كان مجرد أخيه في النسب فقد نقول هذه ليست فضيلة، لأن عم النبي في النسب وقد كان مشركاً، الأنبياء عندهم أبناء في النسب كانوا كفرة مثل ابن نوح، إذن العلاقة النسبية ليس لها شأن بنحو مطلق وإنما الشأن في العلاقة حينما تكون علاقة إيمانية، هنا رسول الله هو اختار الإمام علي عليه السلام أن يكون أخاه، أما الصحة في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾^(١) علماؤنا يقولون الصحة ليست فيها أية دلالة على منزلة خاصة، الناس عندهم صحة في المعمل وفي المدرسة والتلاميذ عندهم صحة فيما بينهم، الناس في السجون أصحاب لكن أحدهم مؤمن والآخر كافر، لكن هل الصحة تعني أنهم في مستوى واحد؟ علماؤنا يقولون راجعوا اللغة، راجعوا التاريخ، راجعوا القرآن الكريم فستجدون أن الصحة بمجرد هذا لا تعني التماثل والتجانس والتقارب في

المستوى، القرآن في قصة يوسف مثلاً يقول: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابُ مُتَرَقِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ﴾^(١) لقد كان هؤلاء مسجونين مع يوسف فهم أصحاب يوسف لكن هل يعني ذلك أنه يوجد تشابه بينهم وبين يوسف، القرآن يشير إلى أن الصحبة بعض الأحيان قد تكون بين كافر وبين نبي من الأنبياء مثلاً يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^(٢) في قصة أخرى القرآن الكريم يستعرضها قصة اثنين كان لكل واحد منهم بستان ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾^(٣) أحدهم غني عنده بستان عظيم والآخر فقير فالغني قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾^(٤) الفقير قال له: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾^(٥) والشاهد في الأمر هو قوله: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾^(٦) إذاً هذا مؤمن وهذا كافر فالآية القرآنية حينما تقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ...﴾^(٧) تدل على أن الصحبة لا تعني حالة مقدسة، ممكن أن يكون عبداً من العبيد مشى مع النبي فكان صاحبه، ممكن دليل يدل على الطريق يكون صاحبه فلا تجعلوا هذه الآية في سجل امتيازات الخليفة الأول هذا كلام علمائنا وهناك كلام مفصل.

هذا كله في اطار الحديث عن التأييد الإلهي.

نحن نعتقد أن الله أيد الأنبياء بروح القدس وهناك أنماط للتأييد الإلهي بالعقل وبالملائكة وبالجنود وبالأنصار وبالناس.

(١) يوسف: ٣٩.

(٢) الأعراف: ١٨٤.

(٣) الكهف: ٣٧.

(٤) الكهف: ٣٥.

(٥) الكهف: ٣٧.

(٦) السابق.

(٧) التوبة: ٤٠.

وهناك أسباب لاستئصال هذا التأييد الإلهي يعني كيف نكسب التأييد الإلهي؟ كيف تكون مؤيداً بروح الله تبارك وتعالى؟ كيف تنزل السكينة عليك؟ لذلك أسباب طبعاً وهذا الحديث نظويہ لضيق الوقت ونؤجله لمحاضرة أخرى.

والحمد لله رب العالمين

* * *

.

11

المحاضرة الثانية والعشرون:

خلافة أهل البيت عليهم السلام

«ورضيكم خلفاء في أرضه وحججاً على
بريته وأنصاراً لدينه وحفظة لسره».

يعني ان الأنبياء والأئمة عليهم السلام هم خلفاء الله في أرضه، وهذا المقطع يدعونا الى الحديث عن الخلافة في الأرض.

الأرض:

الأرض هي هذه الكرة الأرضية، ولحد الآن لم يثبت علمياً، ولم يثبت أيضاً في النص الديني وجود كرة أرضية أخرى يوجد عليها بشر، ولهذا فإن الأنبياء هم رسل الله إلى أهل هذه الأرض، وأهل بيت النبوة هم خلفاء الله في هذه الأرض.

علماء الفضاء اليوم يبحثون هل يوجد بشر في الكواكب الأخرى؟ لم يكتشفوا وجود حياة فيها لأنه إلى الآن لم يجدوا فيها ماء، والانسان والنبات والحيوان بدون ماء لا يمكن أن يعيش، وما يزال الباحثون يتأكدون من وجود علامات في المريخ على وجود الماء.

الخلافة:

هناك خلافتان:

خلافة عامة لكل البشر أنا وأنت خليفة في هذه الأرض ﴿وَأَسْتَخِرُكُمْ فِيهَا﴾^(١) فنحن خلفاء الله تبارك وتعالى في إعمار هذه الأرض وزراعتها، وهذه خلافة عامة للإنسان الصالح وغير الصالح.

في الأرض خليفة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) الله تعالى قال

(١) هود: ٦١.

(٢) البقرة: ٣٠.

للملائكة: سوف أجعل خليفة في الأرض، لكن خليفة بالمعنى العام الذي يشمل حتى الإنسان القاتل مثل قابيل، فتعجب الملائكة من ذلك، وقالوا: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟» طبعاً هم لا يتحدثون عن آدم ونوح وإبراهيم وإنما يتحدثون عن البشر الذين يفسدون في الأرض «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»^(١) هنا المقصود هو الخلافة العامة، ولهذا فقد اعترضوا، لو كانوا يعلمون ان آدم هو الخليفة وان رسول الله هو الخليفة لم يعترضوا، لكن حينما تصل المسألة في الأرض إلى أمثال يزيد وهارون مروان وصادم فإن الملائكة قد تعجبوا وقالوا: إلهنا هؤلاء خلفاؤك في الأرض؟!

الفكرة هي أن هذه الخلافة هي خلافة أمة تشمل كل البشر، ولكن حينما تقول الزيارة: «ورضيكم خلفاء في أرضه» فليس المقصود هو الخلافة العامة.

تفسير سؤال الملائكة:

قد يرد سؤال أن الملائكة من أين عرفوا أن الإنسان الذي لم يخلق بعد سوف يفسد في الأرض وسوف تحدث معارك دموية، وتسفك فيها دماء بريّة. هناك نظريتان في الجواب على هذا السؤال:

النظرية الأولى: أنهم عرفوا ذلك من وجود جيل بشري سابق، قبل آدم بل وجود أجيال بشرية قد أفسدت في الأرض وسفكت الدماء. وهذا ما توكده بعض الروايات التي تقول: «ان قبل آدمكم هذا ألف ألف آدم»^(٢).

النظرية الثانية: أنهم عرفوا أن هذا الإنسان سوف يدخل في معارك استناداً إلى طبيعة الخلقة، فالملائكة يعرفون أن هذا الإنسان مخلوق من ماديّات ومعنويّات، الملائكة عرفوا أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك شيطان مخلوق مسلط عليه وسوف

(١) السابق.

(٢) بحار الأنوار ٢٥: ٢٥.

يحدث الانحراف والصراع كنتيجة طبيعية، كما إذا بعثت جندياً إلى معركة فإن طبيعة المعركة فيها قتال وجروح وما شاكل ذلك ولهذا فأنت تعرف مسبقاً أن بها هكذا نتائج، الملائكة عرفوا أن هذا الإنسان مخلوق من طين وعنده شهوات وهناك شيطان مسلط عليه، إذن عرفوا ذلك من طبيعة الخلقة وليس من جيل بشري قد سبق ولكن الله تعالى قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.^(١)

لماذا هبط آدم إلى الدنيا؟

السؤال ان هذه الدنيا التي أهبط إليها أبونا آدم ما هي في النظر الديني هل هي دار عقاب أو دار تكامل؟

هل هبط إلى الدنيا حتى يعاقبه الله إذن فهذه الدنيا دار عقاب، أو أن الدنيا هي مدرسة تكامل فمثلاً الأب عندما يرسل ابنه إلى المدرسة ويتلى بالامتحانات وربما يعاقبه المعلم فالمدرسة هي امتحان صعب لكن هي دار تكامل وليس دار عقوبة.

فهذه النظرية تقول إن الله تعالى أهبط آدم إلى الأرض باعتبارها دار تكامل وليس دار عقوبة ولهذا فقد جاء التعبير بالنسبة لآدم بالهبوط: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾^(٢) لكن بالنسبة للشيطان جاء التعبير هكذا: ﴿فَاخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) الطرد والعقوبة هي للشيطان، أما للإنسان فهذه الدنيا هي دار تكامل.

قيمة الدنيا:

أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرة سمع رجل يذم الدنيا، قال له: أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها... أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ ثم

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٨.

(٣) البقرة: ٣٤ و ٣٥.

قال ﷺ: «ان الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحى الله، ومتجر أولياء الله»^(١) الدنيا دار تكامل وليست دار عقاب، فالإنسان هو الذي يجعل الدنيا داراً للعقوبة نتيجة سوء تصرفه.

نادي الضحك:

كنت أقرأ في الصحافة قبل أيام افتتاح أول نادي للضحك في تايوان، نتيجة أن الناس يعيشون عُقداً نفسية والأطباء للأمراض النفسية ينافسون الأطباء للأمراض البدنية. وهو نادي رقم ١٣٠١ للضحك في العالم، ضحك بلا هدف، اقرأ لكم هذا الخبر:

مجموعة من مواطني تايوان أسسوا أول نادي للضحك في البلاد لمساعدة الآخرين على الضحك من أجل الصحة والسعادة اشترك في هذا النادي أربعون لاعباً، يقول: كان الامر صعباً في البداية لأن أعضاء النادي كانوا يشعرون بالحرج ثم تبدأ جلسات الضحك بتريد أعضاء النادي (هو هو ها ها) والناس على هذه الطريقة يضحكون وهذا هو النادي رقم ١٣٠١ بهدف تحقيق السعادة للإنسان.

قبل مدة افتتحوا نادي للبكاء في بكين فالإنسان أحياناً يحتاج إلى الماديات وأحياناً إلى المعنويات فمرة يريد الضحك ومرة يريد البكاء.

الخلافة الخاصة:

الخلافة الخاصة بمعنى أن بعض الناس يجعلهم الله تعالى حكاماً في الأرض مثل ما جعل الأنبياء أولياء الأمور على الآخرين، والسؤال هو: لماذا هذه الخلافة الخاصة؟ ولماذا يبعث الله أنبياء؟

الجواب: إن ذلك ضرورة لنجاح المسيرة الإنسانية.

إن طلاب المدرسة _ مثلاً _ يحتاجون إلى مدير مهمما كانوا جيدين حتى لو شجعنا الطلاب على حالة الرقابة الذاتية، الحياة الدنيا هكذا.

حاجات الإنسان:

الإنسان علمياً يحتاج إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الماديات.

الأمر الثاني: المعنويات.

الأمر الثالث: التشريعات.

١ _ الماديات:

أي إن الإنسان بدون طعام ومنام وسكن وزواج لا يستطيع أن يعيش، فالحياة البشرية بدون الامكانيات المادية تموت وهنا يقول القرآن الكريم اعترافاً بهذه الحاجات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(١) «العقل السليم في الجسم السليم»، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(٢) وكل من يقول إن الإسلام يمنع التمتع بالماديات فهو كلام غير صحيح، الله تعالى خلق الإنسان من طين فهو يحتاج إلى ماء.

٢ _ المعنويات:

يوجد مثل شعبي عراقي يقول: (الجنة اللي ما بيها بشر متتراد) يعني لا يكفي أن تضع الإنسان في قصر وتعطيه كل ما يحتاجه من الماديات لأن الإنسان ابن مجتمع يريد محبة وحنان وأسرة وزواج ويريد: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مَكِينٍ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾^(٣) ﴿وَزَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) الواقعة: ١٥ - ١٧.

عين^(١) الإنسان ابن معنويات وليس فقط ماديات، فالرأفة والمحبة والشجاعة والمعايشة مع الناس هي أشياء معنوية، فالإنسان اجتماعي بالطبع، وكما يحتاج الإنسان إلى الماديات كذلك يحتاج إلى المعنويات، وهنا يأتي دور الأنبياء، دورهم ترسيخ هذه المعنويات في الإنسان وتوجيهها توجيهاً صحيحاً لأن هناك معركة بين الاستحقاقات المادية والاستحقاقات المعنوية دور الأنبياء هو ما شرحه الرسول الأكرم ﷺ قائلاً: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٢) أي ترسيخ المعنويات.

الدعاء للغنى:

أحد أصحاب النبي ﷺ انقطع عن الحضور في المسجد النبوي لعدة أيام، رسول الله ﷺ افتقده ولما جاء بعد عدة أيام سأل رسول الله ﷺ قائلاً: ما أبطأك عنا؟

فقال: يا رسول الله السقم والفقر.

قال ﷺ: ألا أعلمك دعاءً يذهب الله عنك السقم والفقر؟

قال: بلى يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «قل لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن وكبره تكبيراً».

فما لبث أن عاد إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله قد أذهب الله عني السقم والفقر.^(٣)

(١) الدخان: ٥٤.

(٢) مكارم الأخلاق: ٨؛ بحار الأنوار ١٦: ٢١٠.

(٣) الكافي ٢: ٣٠٥١.

الارتباط بالله هو قضية معنوية ولكنها مهمة في الحياة الإنسان.

الإمام الباقر عليه السلام يعلمنا دعاءً في السجدة الأخيرة من الصلاة وهو دعاء للرزق «يا خير المسؤولين ويا خير المعطين ارزقني وارزق عيالي من فضلك إنك ذو الفضل العظيم»^(١).

نرجع إلى حديثنا أن الإنسان كما يحتاج إلى ماديّات كذلك يحتاج إلى معنويّات، والدين جاء لتأكيد المعنويّات وهذه المعنويّات هي أيضاً فطرية، فالدين لا يفرض علينا معنويّات غير التي فطر الله الناس عليها، فالدين هو دين الفطرة فكل العالم لا يقبل الخيانة والسرقة والاعتداء وسوء الأدب ورفض هذه القضايا واستنكارها هي مسألة فطرية جاء ليؤكدها الإسلام حتّى لا تكون مغلوطة بضغط الماديّات «وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ»^(٢) الله تعالى يأمر النبيّ قل لهم أن ينفقوا بالحالة المتوسطة التي هي مقبولة عرفاً ووجداناً «لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ»^(٣) فالإسلام يدعو إلى قضايا فطرية وليس قضايا تفرض على الفطرة، هذا هو دور الأنبياء.

نستطيع أن نمثّل لذلك مثلاً: كما أن الإنسان يحتاج إلى نور في الماديّات كذلك يحتاج إلى نور في المعنويّات، ولهذا يقول القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا»^(٤) أي أنك أيها النبي نور معنوي، فكما أن الإنسان يحتاج إلى نور في وضعه المادي كذلك يحتاج إلى نور في وضعه المعنوي، وذاك النور هو القرآن، والأنبياء، والإسلام.

(١) مصباح المتهجد: ٢٨٦/١٩٩ - ٢٤.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) الإسراء: ٢٩.

(٤) الأحزاب: ٤٥ و٤٦.

كعب بن زهير:

ولهذا فإن الشاعر كعب بن زهير عنده قصيدة رائعة في مدح النبي يقول في أواخرها:

إن الرسول لنور يستضاء به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول
هي قصيدة رائعة جداً وأصحاب الذوق الأدبي يقومون ويقعدون لهذه القصيدة المعروفة بقصيدة البردة والتي يقول في مطلعها:

بأنت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم عندها لم يفد مكبول^(١)
هذه من القصائد في الصدر الأوّل من الإسلام وحيث لم يكن كعب مسلماً، يقولون إن رسول الله عندما سمع هذه القصيدة أعطى له بردته هديةً له.

كعب له أخ اسمه بُجير، بجير أسلم بعد عشرين سنة من البعثة، وبقي كعب على الكفر، وقد هددوه أنك إذا ذهبت للنبي فسوف تقتل، لكن كعب كان شجاعاً فنظم قصيدة وجاء إلى النبي متخفياً متسللاً في الليل إلى المدينة المنورة وفي الصباح جاء إلى النبي وهو ملثم.

قال: يا رسول الله رجل يبائعك على الإسلام؟
النبي قال له: أسلم تسلم.

فتح النقاب وقال: أنا كعب بن زهير مُد يدك يا رسول الله فقد أسلمت ثم أنشد يقول:

نُبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنورٌ يُستضاء به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلول

رسول الله قَبِلَ منه الإسلام وقصيدته وأهداه بردته، مثلما الإمام الرضا عليه السلام أهدى جفته إلى دعبل الخزاعي حين أنشد قصيدة جميلة جداً يقول فيها:

ألم تر أني مذ ثلاثين حجة أرواح وأغدو دائم الحسرات
أرى فينهم في غيرهم مُتَقَسِّمًا وأيديهم من فينهم صفرات^(١)

٣ - التشريعات:

وهناك حاجة ثالثة لدى الإنسان هي التشريعات، حيث أن الإنسان يحتاج إلى تشريع وقانون ينظم به حياته وعلاقاته الاجتماعية. وحينما نتحدث اليوم عن مجالس تشريعية فإن ذلك لا يتنافى مع الإسلام والقرآن، لأن القرآن يعطي خطوطاً عامة وأحكاماً ثابتة «السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ»^(٢) و«أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»^(٣) لكن التطبيقات المتحركة على الأرض، مثل ميزانية الدولة، وفتح فرص عمل، وتوزيع خدمات، فهذا يحتاج إلى مجالس تشريعية تتناول الأحكام المتحركة والمتفرقة.

امتداد الخلافة:

ولنعد للحديث عن الخلافة الخاصة التي تهدف لملاأ الحاجات المعنوية والتشريعية الكبرى لدى الإنسان.

هذه الخلافة الخاصة هي من حق الأنبياء ومن بعدهم الأئمة الأطهار حيث قال رسول الله ﷺ: «من يؤازرني على هذا الأمر فيكون وزيرى ووصيى وخليفتى» فقام عليّ عليه السلام وقال: يا رسول الله أنا أباعك، _ هذا الحديث يسمى (حديث الدار) _ فقال: أجلس يا عليّ، ثم أعاد الكلام فقام عليّ، قال الرسول ﷺ: أجلس يا عليّ وفي المرة الثالثة أخذ بيده وقال: «هذا وصيى ووزيرى وخليفتى عليكم فاسمعوا له وأطيعوا»^(٤) هذه هي الخلافة الخاصة.

(١) بحار الأنوار ٤٩: ١٣/٢٤٥.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) المائدة: ٣٨.

(٤) أنظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٣٠٥.

الإمامة بعد النبي ﷺ :

نحن نعتقد بإمامة أهل البيت عليهم السلام، ان كل المسلمين يعتقدون أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى خليفة، إن نظرية الخلافة نظرية مجمع عليها، نحن نعتقد أن الانتخاب بعد رسول الله ﷺ لم يكن انتخاباً صحيحاً، نحن نعتقد أن الانتخابات في الخليفة الأول كانت مزورة لأن من شروط الانتخابات النزاهة:

أولاً: أن تكون علنية وانتخابات السقيفة لم تكن علنية، بدليل انه لم يكن يعلم بها إلا مجموعة خاصة، وحتى أبا بكر كان خارج المدينة فأرسل عليه عمر بن الخطاب، ولعل ذلك يفسر لنا قوله: (إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها).^(١) وثانياً: أن تكون عامة، وقد كان الحضور في السقيفة هم مجموعة خاصة جداً لم يحضر معهم وجوه المهاجرين والأنصار.

وثالثاً: أن تكون انتخابات حرة، أما انتخابات السقيفة فقد كانت انتخابات إرهابية، بدليل انه حدث تهديد بالقتل، هذا هو سعد بن عباد كان مرشح الأنصار للخلافة ولم يبايع أبا بكر بعثوا له أحداً بسهم فقتله وبثوا شائعة تقول إن سعداً قتله الجن.

ورابعاً: أن لا تكون مخالفة لله ورسوله ﷺ، أما انتخابات السقيفة فقد كانت على خلاف توجيه رسول الله ﷺ ووصيته وعلى خلاف ما جاء به الوحي حين يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُضِيَ إِلَهُهُ رِسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. نحن نعتقد أن الخلافة الخاصة بعد رسول الله ﷺ يجب أن تتم عبر انتخابات شرعية صحيحة غير مزورة وليس فيها إرهاب ووفقاً لتوجيهات النبي ﷺ. وقد حقق رسول الله ﷺ هذه الانتخابات حين دعا المسلمين لبيعة الإمام علي عليه السلام في حجة الوداع في غدير خم.

(١) الإيضاح: ١٣٤؛ المسترشد: ٢١٣؛ السقيفة وفدك: ٤٦؛ شرح الأخبار ٢: ٢٣٤؛ التعجب: ١٣.

الإمامة بعد المعصوم:

نحن نعتقد أن دور المؤسسة الدينية هو دور ترشيد الحكومة، وهذا هو بحث معاصر.

اليوم يوجد مشكلة وأتباع الحداثة والعصرنة يهتمون المؤسسة الدينية بأنها تريد أن تحكم العباد والبلاد بالكتاتورية كما كانت تصنع الكنيسة.

إننا نعتقد أن المؤسسة الدينية ونعني بها الحوزة العلمية والمرجعية الدينية لا تريد أن تحكم وإنما دور المؤسسة الدينية هو ترشيد الحكومة.

الآن _ مثلاً _ العالم العربي يحتاج إلى ٨٠ مليون فرصة عمل، وهذا ليس شأن المؤسسة الدينية بل هو شأن الدولة، الحوزة الدينية والمراجع والمساجد عملهم ترشيد مؤسسات الدولة المدنية لإدارة البلاد.

الشهيد الصدر رحمته الله يصطلح على هذا الأمر بـ (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء) يعني الإنسان هو الخليفة والحاكم على الأرض أما دور الأنبياء فهو دور الترشيح.

المؤسسة الدينية تهدف في نظريتنا إلى ترشيد الدولة وترشيد المؤسسات المدنية.

* * *

أنا أختتم المحاضرة بذكر الإمام الحسين عليه السلام.

هناك حديث شريف مخطوط على ستائر القبر الحسيني الشريف عن رسول الله ﷺ يقول: «بورك لولدي الحسين في ثلاث: في ولده وفي قبره وفي مشهده».

الإمام الحسين لم يبقَ له من أولاده في كربلاء إلا زين العابدين، لكن ذرية الحسين عليه السلام منتشرة اليوم في كل بقاع الأرض.

الإمام زين العابدين في أكثر من مرة تعرض للقتل، في يوم عاشوراء عندما أحرقوا الخيام، وفي قصر ابن زياد، وفي رواية مجلس يزيد حينما أمر يزيد بقتل الإمام زين العابدين، هنا زينب عليها السلام القت بنفسها عليه وقالت: لا والله لا أفارقه فإن قتلت فاقتلني معه.

هذا مشهد وهناك مشهد ثان في مجلس يزيد بن معاوية وهو مشهد تلك الطفلة الصغيرة لما قام شخص من الشام وقال: يا أمير هب لي هذه الجارية وهو لا يعرف من هؤلاء! الطفلة تعلقت بعمتها زينب قائلة: عمّة يريدون أن يستخدموني.

فقال العقيلة زينب عليها السلام: ليس ذلك له ولا لأميّره.

فلما سمع بذلك يزيد استشاط غضباً وقال: بلى لو شئت لفعلت.

قالت: كلا والله، ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغيرها.^(١)

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثالثة والعشرون:

الشهادة على الخلق

«وحفظة لسره، وخزنة لعلمه، ومستودعاً
لحكمته، وتراجمة لوجيه، وأركاناً لتوحيده،
وشهداء على خلقه، وأعلاماً لعباده».

الحديث في هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة: «وشهداء على خلقه». وهو الذي سيتكرّر مرة أخرى في هذه الزيارة بقوله: «وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء».

الشهادة بمعنى الاشراف والتوجيه والمسؤولية والمراقبة، هذا الاشراف هو الذي يسمّى شهادة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾^(١) ليس المقصود أن النبي شاهد بمعنى ينظر إلى الناس _ وهو المعنى الأوّل للشهادة لغوياً _ وهذا ليس وصفاً فيه تكريم للنبي أو منزلة للنبي فأنا وأنت أيضاً ننظر للناس القرآن يعطي معنى آخر يقول ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾^(٢) ولا المقصود أن النبي يشهد على الناس يوم القيامة بمعنى يكون شغل النبي أن يدلّي بالشهادة على الناس، _ وهو المعنى الثاني للشهادة _ بل الآية تتحدث عن موقع في الدنيا شاهداً ومبشراً ونذيراً، بمعنى الاشراف على الناس وتحمل مسؤولية هداية الناس.

ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٣) يوم القيامة القرآن الكريم يقول لعيسى يا عيسى هؤلاء أمّتك اتّخذوك ربّاً

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(٣) المائدة: ١١٦.

لأنهم يعتبرون أن عيسى هو الله أو أحد أركان الله، يعتقدون بالثالوث الابن والأب والرب على كل حال الله تعالى لاقامة الحجة على الناس يوم القيامة يأتي بعيسى يقول يا عيسى هؤلاء أمتك موجودون في المحشر أنت قلت لهم اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ عيسى هناك يقول: إلهي أنا لم أقل لهم إلا ما أمرتني به، وكان دوري في الدنيا هو دور الاشراف عليهم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

لاحظوا هنا القرآن لا يقول فلما مات لأن عيسى لم يموت وإنما رفعه الله إليه لذا قال فلما توفيتني، يعني أخذتني، هنا الشهيد بمعنى المشرف على الناس والأمة، هذا هو المعنى الثالث.

مستويات الاشراف:

يأتي الاشراف على مستوى الفكر فيكون إشرافاً فكرياً.
ويأتي على مستوى السياسة فيكون إشرافاً سياسياً.
ويأتي على مستوى الادارة فيكون إشرافاً إدارياً.

المهم ان عملية الاشراف ترتبط بطبيعة المجال الذي تتحرك فيه فالقائد الأعلى في أي أمة من الأمم له إشراف سياسي على الناس والمفكر له إشراف فكري والواعظ المرشد للناس له إشراف تربوي، أصل الفكرة هي الاشراف هذا هو المعنى الثالث للشهادة والشهيد والشاهد.

وهناك معنى رابع هو المعنى المتداول عند الناس، شهيد بمعنى قتيل في سبيل الله والقتل في سبيل الله يسمى شهادة وهذا غير مسألة الشاهد بمعنى الناظر أو بمعنى المشرف وإنما قتيل في سبيل الله يسمى شهيداً وهذا معنى آخر، ربما يكون منه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ

وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ»^(١) هنا الشهداء في أحد التفاسير بمعنى الذين قتلوا في سبيل الله، وهذا معنى رابع للشهادة.

هذه أربعة معاني للشهادة.

ما هو المقصود بقوله ﷺ في الزيارة: «وشهداء على خلقه» أن الأئمة شهداء على الخلق.

أصبح واضحاً لكم أن المقصود بموقع الشهادة على الخلق يعني موقع الاشراف والتوجيه والهداية للخلق وليس المقصود الناظر بمعنى المشاهد، هذا المعنى أيضاً يعني موقع القائد الذي يشرف على كل العمل، حتى المهندس في عملية البناء حينما يشرف بوجه العملية يعني له حق التوجيه وله حق الهداية وتعديل المسار.

هذا هو موقع الشهادة وهذا طبعاً من الأبحاث السياسية والاجتماعية المهمة نحن نتداوله بشكل مختصر وبما يتناسب مع هذا الاجتماع وهذا المجلس طبعاً.

الشهادة في الآخرة:

القرآن الكريم يشير إلى الشهادة في الآخرة يقول: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لِّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٢) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد يعني كل إنسان يوم القيامة يوجد سائق يقوده ويوجد شهيد يشهد عليه وهذا من الآيات العجيبة أو من الكشوفات العجيبة التي قد تغفل عنها، أنه في محشر القيامة كل إنسان يوجد من يسوقه، من هو السائق؟ ومن هو الشهيد؟

بعض الروايات تفسر ذلك تقول الشهيد هو رسول الله ﷺ يشهد على كل نفس وأمير المؤمنين ﷺ هو السائق الذي يسوق كل نفس إمّا إلى الجنة

(١) النساء: ٦٩.

(٢) ق: ٢١ و ٢٢.

وإمّا إلى النار،^(١) طبعاً هذا معنى عظيم يقربنا من فكرة أنّ عليّاً عليه السلام قسيم الجنة والنار.

قد يقول قائل: هل رسول الله ليس له عمل أو أمير المؤمنين ليس له عمل يوم القيامة حتّى أن أي أحد يأتي رسول الله يزقه وعلي يسوقه؟ طبعاً هذا حينما نفهمه بمعناه العميق نجد أنّه معنى صحيح يمثل كرامة ومنزلة للنبي والوصي. أنّ الهادي إلى الجنة هو الإمام علي عليه السلام والشاهد على الأمم هو رسول الله ﷺ والذي يوجّه عمليّة الفوز إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار هو الإمام علي عليه السلام وهذا هو ما ثبت بأجماع الرواة عند السنّة والشيعه أنّ عليّاً قسيم الجنة والنار، وهو بمعنى أن هناك مثلاً طريق واسع^(٢) وأبواب ذاك الطريق بيد الإمام علي عليه السلام، يفتح الأبواب ويقول لأهل الجنة، ادخلوا الجنة فيصبح هو الذي يسوق الناس إلى الجنة.

وهكذا حينما تجمع الروايات على أنّ الإمام علي عليه السلام هو ساقى الكوثر أيضاً قد يقول قائل إنّ الإمام علي عليه السلام هل هذا شغله؟

هذا في الحقيقة إشارات ورموز إلى كرامات ومنازل عظمى في القيامة، أنّ عمليّة الارتواء وعمليّة النجاة كلّها بيد الإمام علي عليه السلام أمّا كيف تصويرها هل بمعنى يسقيهم إناء ماء واحداً بعد الآخر؟ أو هناك تصوير آخر للقضية؟ لا نعلم لكن هي ثابتة باجماع المحدثين السنّة والشيعه ان عليّاً عليه السلام قسيم الجنة والنار وعلي ساقى الكوثر أمّا تطبيقاتها يوم القيامة فنحن لا نعلمها.

ولهذا في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٣) فإن

(١) أنظر: البحار ٢٣: ٣٥٢.

(٢) بصائر الدرجات: ٢١٩.

(٣) ق: ٢١.

تصوير القضية الميداني المادي أن كل إنسان يوجد معه اثنان أحدهما يجره وأحدهما يدره على الطريق. هل بهذا الشكل أو بشكل آخر؟ لا نعلم ذلك لكن الثابت أن رسول الله ﷺ هو الشاهد على الأمم والإمام عليّ عليه السلام هو الدال إلى الجنة أو إلى النار.

محمد وعليّ يوم القيامة:

أنا أقرأ لكم هذه الرواية الجميلة على أنها رواية مطوّلة وبعدئذٍ ننتقل إلى آفاق البحث النظري في زماننا المعاصر وهو الشهادة على الأمة.

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول:

كان رسول الله يقول إذا سألتكم الله لي فسألوه الوسيلة.

هناك مقام في الجنة عالي جداً اسمه الوسيلة رسول الله كان يقول سلوا الله لي الوسيلة، أنت تريد أن تدعو إلى رسول الله ماذا تدعو لا تقل: اللهم ارزقه الجنة بل تقول اللهم اعطه الوسيلة وهي أعلى مقام في الآخرة.

قالوا: يا رسول الله ما هي الوسيلة؟

قال ﷺ: هي درجتي في الجنة وهي ألف مرقاة - يعني ألف درجة ليس المقصود هذا الدرج الذي نصعد عليه بل المقصود ألف مرتبة وربما بين مرتبة ومرتبة آلاف السنين من المسافات العريضة هذه مراتب -، يؤتى بهذه الدرجة يوم القيامة... فلا يبقى نبي ولا شهيد ولا صديق إلا قال طوبى لمن كانت هذه درجته فينادي المنادي هذه درجة محمد ﷺ.

ثم قال رسول الله ﷺ: فأقبل يومئذٍ متزراً بريطة من نور وعلى رأسي تاج الملك وعليّ أمامي ويده لوائي وهو لواء الحمد، مكتوب عليه: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله، المفلحون هم الفائزون بالله) فلا يبقى يومئذٍ نبي ولا مؤمن إلا رفعوا رؤوسهم إليّ يقولون طوبى لهذين العبدین ما أكرمهما على

الله، فينادي المنادي هذا حبيبي محمد ﷺ وهذا وليي علي بن أبي طالب عليه السلام طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه وكذب عليه.

ثم قال ﷺ: يا علي فلا يبقى في مشهد القيامة أحدٌ يحبك إلا استراح الى هذا الكلام وابتَضَّ وجهه وفرح قلبه ولا يبقى أحدٌ ممَّن عاداك ونصب لك حرباً إلا اسودَّ وجهه واضطربت قدماه فينا أنا كذلك إذا ملكان قد أقبلا إليّ أما أحدهما فرضوان خازن الجنان وأما الآخر مالك خازن النيران فيدنوا رضوان ويسلم عليّ فيقول: السلام عليك يا رسول الله فأرد عليه السلام وأقول: أيها الملك الطيب الروح الحسن الوجه الكريم على ربه من أنت؟ فيقول: أنا رضوان خازن الجنة أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح الجنة فخذها يا محمد، فأقول: قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ إدفعها إلى أخي علي بن أبي طالب فيدفعها إلى عليّ ويرجع رضوان.

ثم يدنو مالك خازن النار فيسلم عليّ ويقول: السلام عليك يا حبيب الله فأقول له: وعليك السلام أيها الملك ما أنكر رؤيتك، وأقبح وجهك من أنت؟ فيقول: أنا مالك خازن النيران قد أمرني ربّي أن آتيك بمفاتيح النار فأقول: قد قبلت ذلك من ربّي فله الحمد على ما أنعم به عليّ وفضلني به إدفعها إلى أخي علي بن أبي طالب فيدفعها إليه ثم يرجع، فيقبل عليّ ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتّى يقعد على عجرة جهنم ويأخذ زمامها بيده وقد علا زفيرها واشتد حرّها.

طبعاً هذه المعاني لا يستوحش ويستغرب أحدٌ منها، في القرآن موجود مثلها مثلاً قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَغْرَافِ رِجَالٌ﴾ مجموعة من المؤمنين لهم موقع الاشراف على جهنم، ومثلها موجودة لمؤمنين يشهدون جهنم فيجدون أحد أصدقاءهم في الدنيا كان يريد أن يغريهم ﴿فَاطْلَعْ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنِ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾^(١).

لاحظوا إذن هذه المعاني موجودة في القرآن.

الإمام عليّ عليه السلام بعدما يكون بيده مفاتيح الجنة والنار يشرف على سفير جهنم وقد علا زفيرها واشتد حرّها فتنادي جهنم يا عليّ جُزني فقد أطفأ نورك لهبي، طبعاً هذا أيضاً موجود عندنا عن رسول الله ﷺ أَنَّ كُلَّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرُدُّونَ النَّارَ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(١) يعني يرد جهنم.

قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟

قال: أنا أيضاً وردتها لكن جُزتها وهي خامدة يعني بنور رسول الله ﷺ تخمد نار جهنم فيعبرها رسول الله ﷺ.

النار تقول: يا عليّ جُزني فقد أطفأ نورك لهبي فيقول لها عليّ: ذري هذا وليّ - يعني أتركه - وخذي هذا عدوي.

ثم قال رسول الله ﷺ فَلْجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ مَطَاوَعَةً لِّعَلِيٍّ مِنْ غَلَامٍ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فَإِنْ شَاءَ يَذْهَبُ بِهَا يَمْنَةً وَإِنْ شَاءَ يَذْهَبُ بِهَا يَسْرَةً وَلِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ مَطَاوَعَةً لِّعَلِيٍّ فِيمَا يَأْمُرُهَا مِنْ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ وَذَلِكَ أَنَّ عَلِيّاً يَوْمَئِذٍ قَسِمَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ.^(٢)

جيد هذا كل الحديث في المعاني اللغوية والقرآنية لكلمة شاهد وشهيد والشهادة.

موقع الأئمة السياسي:

الآن نتحدث عن المعنى الذي هو موقع الأنبياء والأئمة على الخلق وهو الشهادة بالمعنى الثالث الذي هو الأصل حتى في اللغة أيضاً فإن شاهد بمعنى مشرف وقائد.

(١) مريم: ٧١.

(٢) بحار الأنوار ٧: ٣٢٦/٢.

نحن نعتقد نظرياً أنّ الأنبياء والأئمة عليهم السلام لهم موقع الشهادة على الخلق
«وشهداء على خلقه».

هذا البحث في الحقيقة مطروح عالمياً اليوم وسياسياً بلغة حديثة.
في علم السياسة أنّ المجتمع البشري هل يحتاج إلى شاهد ومشرف
وموجه أو لا يحتاج؟
وإذا كان يحتاج من هو هذا الشاهد على الناس؟

ثلاث نظريات:

النظرية الإسلامية والنظرية الغربية الديمقراطية والنظرية الشيوعية
الماركسية:

ثلاث نظريات في موقع الشهادة.

النظرية الإسلامية تقول: الأمة تحتاج إلى شاهد.

النظرية الغربية الديمقراطية تقول الأمة لا تحتاج إلى شاهد بل هي
شاهدة على نفسها ولا تحتاج إلى قيادة وشهادة.

النظرية الماركسية الشيوعية تقول الأمة في هذه المرحلة وقبل أن
تصل إلى المجتمع الأممي العالمي العمالي تحتاج إلى شاهد والشاهد هو
عبارة عن الطبقة العمالية التي بدورها تفرز الحزب العمالي الذي يفرز بدوره
القيادة المركزية للحزب العمالي الذي يفرز بدوره القائد الأعلى للحزب
الشيوعي العمالي الذي يمثل قيادة الأمة وهو الذي له الحق بالشهادة بأعمق
مستواها وأشدّ إمساكاً بالأمر حتّى يصل إلى مستوى الدكتاتورية، والشيوعية
تفتخر أيضاً وتقول أنا أعتقد بالدكتاتورية العمالية يعني العمال يجب أن
يكونوا مستبدّين ويقصدون بالعمال الحزب الذي هو حزب العمال ويقصدون
بحزب العمال الحزب الشيوعي فقط ويقصدون بالحزب الشيوعي القيادة

المركزية التي يتفرد بها القائد ويمارس دكتاتورية بمستوى سحق ملايين الناس كلهم إلى القبور، (ستالين) وحده قتل ستة ملايين من الناس، لينين قتل أربع ملايين من الناس.

الماركسية تقول هذه دكتاتورية العمال وأن الحزب العمالي له الشهادة على الناس إذن البقية إذا خالفوا ذلك يجب أن يُسحقوا. نظرياً يبررون هذا الأمر.

طبعاً هم لا يقولون نحن مستبدون يقولون هذا الأمر له فلسفة، ما هي فلسفته؟ الطلائع الحزبية لحزب العمال هم أكثر تقدماً وتحضراً من الآخرين فيجب أن يكون لهم حق السيادة على الآخرين والبقية يجب أن يساقوا ويقتلوا إذا خالفوا. النظرية الشيوعية تقول الأمة تحتاج إلى شاهد والشاهد هو الحزب العمالي الشيوعي.

الديمقراطية تقول الأمة لا تحتاج إلى شاهد.

النظرية الإسلامية:

الإسلام يقول الأمة تحتاج إلى شاهد وليس هذا الشاهد من مستوى البشر بل شاهد إلهي وتتم العملية بشكل متبادل بينه وبين الأمة، هذا هو الذي سمّاه آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمته عليه في كتابه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)، الأنبياء هم الشهود على الأمة والأمة تحتاج إلى شاهد وقائد ومربي؟

لكن من هو هذا المربي ليس من مستوى هؤلاء الناس ذاك هو الذي ربّاه الله «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^(١) مثل هذا الإنسان الإلهي له موقع الشهادة وليس ذاك الإنسان القوي أو الدكتاتور له حق ذبح الناس أو افتراض القيمومة على الناس.

أكثر الناس طهراً وزكاة ونقاءً ورحمة بالناس هو الذي يكون شاهداً على الناس.

وليس أكثرهم قسوةً وغلظةً وشدةً على الناس.

الأمة تحتاج إلى شاهد ولكن الشاهد يجب أن يكون شاهداً إلهياً ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

النظرية الإسلامية تعتقد بموقع الشهادة للأنبياء وبعد الأنبياء الأوصياء وبعد الأوصياء الفقهاء.

الأمة في كل زمان تحتاج إلى مدير، كما المدرسة تحتاج إلى إدارة وبدون مدير مدرسة لا يمكن أن تنجح المدرسة مهما كانت المدرسة والكلية والجامعة متطورة ومهما كان المعمل متطوراً ومتقدماً ومتحضراً لكن لا بد من إدارة وقيادة.

الله بمحبته ولطفه أرسل لنا هؤلاء الأنبياء ولهذا فإن القرآن يسمي عملية بعث الأنبياء بالمن ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

هذا هو من منطلق اللطف والمحبة وإلا فإن الله تبارك وتعالى كان يمكن أن لا يبعث أنبياء، وكان ممكن أن يترك البشر كالبهائم، وكان ممكن أن يترك البشر بلا عقول لكن الله بلطفه من علينا بالعقل وبالأنبياء وهكذا.

الأئمة عليهم السلام أيضاً لهم بعد النبي موقع الشهادة.

قصة هشام بن الحكم:

ولهذا في قصة معروفة ونحن في ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام، الإمام الصادق عليه السلام التقى به رجل شامي - والشام يومئذ معروفة بعداها

(١) الجمعة: ٢.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

لأهل البيت وولاءها الأموي _ هذا الشامي دخل على الإمام قال أنا جئت
لأنظر أصحابك _ يومئذ توجد مجالس حوار وسجال فكري يومئذ كان هذا
السجال موجوداً بحرية كبيرة _

الإمام التفت إلى أحد تلاميذه وكان أصغرهم غلام قد خط عارضاه
إسمه هشام قال عليه السلام: «ناظر هذا الغلام».

فأقبل إليه الشامي وقال: سلني في إمامة هذا.

هشام بدأ بالسؤال قال له: يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟

قال الله: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل لهم بنظره ماذا؟

قال: أقام لهم حجة ودليلاً كي لا يتشتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم

أودهم ويخبرهم بغرض ربهم.

قال: فمن هو؟

قال: رسول الله ﷺ.

قال هشام: فبعد رسول الله ﷺ؟

قال: الكتاب والسنة.

قال هشام: فهل نفعلنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟

قال الشامي: نعم.

قال: فلم اختلافنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في من لفتنا إياك؟

قال: فسكت الشامي.

فقال أبو عبد الله عليه السلام للشامي: ما لك لا تتكلم؟

قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إن الكتاب والسنة يرفعان

عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، وأن قلت: قد اختلافنا وكل واحد منا

يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة إلا أن لي عليه هذه الحجة.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: سله تجده ملياً.

فقال الشامي: يا هذا من أنظر للخلق أربهم أم أنفسهم؟

فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم.

فقال الشامي: فهل أقام من يجمع لهم كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم

بحقهم من بطالهم؟

قال هشام: في وقت رسول الله ﷺ أو الساعة؟

قال الشامي: في وقت رسول الله ﷺ والساعة من؟

فقال هشام: هذا القاعد الذي تشد إليه الرحال، ويخبرنا بأخبار السماء

والأرض، وراثة أب عن جد.

قال الشامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري فعليّ السؤال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا شامي أخبرك كيف كان سفرك؟ وكيف

كان طريقك؟ كان كذا وكذا».

فأقبل الشامي يقول: صدقت، أسلمت لله الساعة.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «بل آمنت بالله الساعة، ان الإسلام قبل الإيمان

وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون».

فقال الشامي: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً

وأنك وصي الأوصياء.^(١)

«وشهداء على خلقه» شهداء على خلقه ليس مجرد موقع سياسي أو

موقع فكري.

الأئمة يعلمون سرائر الناس:

نحن نعتقد بأن الأئمة الأطهار والأنبياء يعلمون أعمال العباد وسرائر العباد، يعني لديهم علم فوق معلوماتنا العادية.

وأنا بهذا الصدد أقرأ لكم روايتين.

رواية تقول عن الإمام الصادق عليه السلام: ما لكم تسوؤون رسول الله؟!

قال رجل: يا بن رسول الله كيف نسوؤه؟

قال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه فإذا رأى فيها معصية ساء ذلك فلا تسوؤوا رسول الله وسرّوه.^(١)

لاحظوا الأئمة الأطهار ورسول الله ﷺ كما عندنا في الروايات تعرض عليهم أعمال الخلق وأعمال الشيعة بالخصوص فإن رأوا حسنة فرحوا بذلك.

قصة داود الرقي:

ولهذا هذا شخص اسمه (داود الرقي) يقول كنت جالساً عند أبي عبد الله فقال لي الإمام مباشرة مبتدأ من عند نفسه يا داود قد عرضت عليّ أعمالكم يوم الخميس فرأيت فيما عرض عليّ من عملك صلتك لابن عمك فلان فسرّتي ذلك أن صلتك له _ وذاك كان من المعاندين _ أسرع لفناء عمره وقطع أجله.

قال داود: وكان لي ابن عم معاند ناصباً خبيثاً بلغني عنه وعن عياله سوء حاله فصككت له نفقة قبل خروجي إلى مكة للحج فلمّا صرت في المدينة أخبرني الإمام الصادق عليه السلام بذلك.^(٢)

(١) الكافي ١: ٢١٩/٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٦: ١١٢/٢١١٦ - ١٥.

الأئمة يعلمون ويبلغهم عملنا.

في رواية عن إبراهيم يقول: خرجت من عند أبي عبد الله ليلة ممسياً فأُتيت منزلي بالمدينة وكانت أمي معي فوقع بيني وبينها كلام فأغلظت لها، فلمّا ان كان من الغد صليت الغداة وأُتيت أبا عبد الله _ الصادق _ عليه السلام فلمّا دخلت عليه قال لي مبتدأ: «يا أبا مهزّم مالك وللوالدة أغلظت في كلامها البارحة أمّا علمت أن بطنها منزل قد سكنته وأن حجرها مهدّ قد غمزته ونديها وعاءٌ قد شربته؟!». قلت: بلى.

قال: «فلا تغلظ لها».^(١)

إذن شهادة الأئمة الأطهار ليس هو مجرد موقع انتخابي فإن لهم من الله تبارك وتعالى كفاءة عالية، لهم من الله تعالى أهلية بأعلى مستوى بحيث هم بمستوى العلم بأعمالنا بسرارنا وأسرارنا ولهذا كانوا يتمتّعون بمثل هذا الموقع. على كل حال إسلامياً نعتقد أن الأئمة تحتاج إلى شاهد وهذا الشاهد هو عبارة عن الأنبياء ثم الأوصياء ثم الفقهاء.

الفقهاء نواب الأئمة:

الإمام المنتظر عليه السلام يكتب في جواب رسالة عمرو بن حنظلة وهو أحد أصحاب أهل البيت عليهم السلام كتب رسالة للإمام المنتظر يقول سألته عن الحوادث الواقعة ما هو الموقف فيها؟

قال عليه السلام: مكتوباً «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا» يعني الفقهاء «فأنهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله».^(٢)

هذا امتداد موقع الشهادة يعني الفقيه بالنيابة عن الإمام المعصوم والإمام المعصوم بالنيابة عن الله.

(١) بصائر الدرجات: ٢٦٣ / ٣.

(٢) غيبة الطوسي: ٢٩١ / ضمن ح ٢٤٧.

النظرية الديمقراطية:

الديمقراطية تقول عجباً الناس هل هم جهلة أو قصر لا يعرفون حتى يكون أحد مشرفاً عليهم وموجّهاً لهم؟

هذه في الحقيقة شبهة لكنها مغالطة لأن رجال الديمقراطية الحديثة نفسها التي تقول إن الأمم والشعوب لا تحتاج إلى شاهد هم الآن يجعلون أنفسهم شهوداً على العالم.

الآن الغرب يقول إن كل مجتمعات آسيا وأفريقيا يجب أن يقلّدوني في الأعمال في الثقافة وهم يفترضون أنفسهم قادة على العالم في الوقت الذي يقولون على مستوى النظرية إن العالم لا يحتاج إلى شاهد لكن الغرب الآن يضع نفسه وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية تضع نفسها بموقع الشاهد على العالم الشاهد ليس فقط ثقافياً بل سياسياً.

الآن هم يصدّرون للعالم النداء الذي وجّهه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية للشعوب العربية ويطالبهم بالاقتراب من الديمقراطية، هكذا كلام جيّد لكن خلفيته ما هي؟

خلفيته أنّه هناك إنسان يضع نفسه بموضع الشهادة على العالم والاشراف على العالم ويعطيهم التوجيه، فهم يفترضون أنفسهم قيادة العالم.

الغرب يدرك أنّه لابد من شهادة على العالم وهناك صراع الآن بين الشهادة الإسلامية على العالم وبين الشهادة الغربية على العالم يعني نحن ندّعي أنّ الإسلام يجب أن يكون هو الشاهد والغرب يقول الفكر الغربي يجب أن يكون هو الشاهد.

الآن العالم يمارس الشهادة ميدانياً يمارس الشهادة الدكتاتورية على كل العالم من خلال توزيع العقوبات الاقتصادية على كل العالم بما في ذلك أوروبا.

فواقع الأمر أن أمريكا تمارس عملية الشهادة على العالم.
الأمم المتحدة ما هي؟ هي عبارة عن مراقب جعلته أمريكا في الصف
قالت أيها العالم أنتم صف ابتدائي أنا أجعل عليكم مراقب اسمه الأمم
المتحدة، واقع الأمر إن الأمم المتحدة مؤسسة خاضعة لتوجيه الولايات
المتحدة الأمريكية.

إذن هناك ممارسة لقانون الشهادة على العالم.
الآن في العالم يوجد شيء اسمه الشرطة الدولية (انترپول) في كل
العالم هناك شرطة ليس مرتبطة بالعاصمة وبجهاز الشرطة لتلك الدولة بل
مرتبطة عالمياً بالأمم المتحدة يعني بأجهزة المخابرات الأمريكية مباشرة،
يعتقل من يشاء في كل مكان، ليس فقط في العراق، ممكن العراق الآن تحت
الاحتلال، بل في كل العالم يوجد شرطة (انترپول) يدخلون على ذاك
الشخص بعنوان عنده جريمة دولية أو ما شاكل ذلك ثم يأخذونه إلى
محاكمهم أيضاً.

هناك محكمة اسمها محكمة (لاهاي) الدولية، يعني محكمة دولية
وضعت نفسها بموقع القاضي الأكبر على كل العالم.
هذا ممارسة شهادة على العالم.

الآن العالم يُقاد وفق نظرية الشهادة على العالم غاية الأمر بأغلفة
الديمقراطية وبأغلفة الأمم المتحدة.

هذه نظريات ثلاث في مسألة الشهادة على العالم وهذا كله في إطار
الحديث عن قوله (وشهداء على خلقه).

وهناك مقطع ثانٍ للبحث نؤجله إلى أسبوع آخر وهو أن الأمة
الإسلامية لها شهادة على العالم أو ليس لها شهادة؟

القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(١) يعني الأمة الإسلامية شاهدة على الناس نظرياً.

شروط ذلك ما هي؟

هل هذا الأمر ممكن؟ نؤجل هذا الحديث إلى أسبوع لاحق إن شاء

الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الرابعة والعشرون:

المصراط

مدلوله وحقيقته

«ومناراً في بلاده، وأدلاء على صراطه».

حدثنا عن هذا المقطع من الزيارة «وأدلاء على صراطه».

أدلاء: جمع دليل ومعناه العلامة.

الصراط: ومعناه الطريق.

الله تعالى له طريق يوصل إليه، وأهل البيت هم علامات على هذا الطريق.

هذه الزيارة تقول إن الأنبياء بشكل عام وأهل بيت النبي ﷺ بشكل خاص هم علامات على طريق الله تعالى. وهذا معنى «وأدلاء على صراطه». والطريق الذي يسير عليه الإنسان إذا كان في المجال المادي نسميه شارع أو جادة.

لكن قد يكون في قضايا سياسية فنقول عنه منهج سياسي وقد يكون في قضايا تربوية فنقول عنه منهج تربوي وقد يكون في القضايا التعليمية فنقول عنه منهج تعليمي، لاحظوا إذن الطريق هو بمعنى الجادة السلوكية كل سلوك بحسبه مرة سلوك بدني ومرة روحي ومرة علمي ومرة رياضي وهكذا.

الطريق إلى الله:

الطريق إلى الله ليس المقصود به الجادة المادية إلى الله تعالى وإنما جادة السلوك الروحي والسير المعنوي إلى الله تعالى، وهنا فإن الأنبياء عملهم أن يدلوا الناس على الطريق الصحيح، فهناك صراطان:

١ _ صراط مستقيم.

٢ _ صراط منحرف.

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا الصراط المستقيم يؤدي الى الجنة، وهناك

صراط منحرف أي ينزل من الجادة الصحيحة الى الجادة الانحرافية ونتيجته أن يهوي إلى جهنم فالصراط المستقيم هو صراط الله الذي يؤدي إلى الجنة.

والصراط المنحرف هو صراط الشيطان الذي يؤدي إلى النار.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

فطريق الدين مستقيم وطريق الجنة مستقيم وكل انحراف عن هذا الطريق يعني اعوجاجاً، فلا تتصوروا أن الانحراف هو عبارة عن جادة صحيحة، الطريق الصحيح هو طريق الدين وهو الطريق الذي يريده الله تعالى، أما ما عدا ذلك فهو انحراف واعوجاج. قال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾^(٢).

صراط الدنيا وصراط الآخرة:

عندنا تقسيم آخر للصراط.

التقسيم الأول: صراط مستقيم وصراط منحرف.

والتقسيم الثاني: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة.

فنحن الآن في الدنيا أيضاً نمشي على صراط وفي الآخرة فإن هذا الصراط الذي نمشي عليه في الدنيا هو نفسه ينكشف لنا بصورة صراط يؤدي إلى الجنة أو يؤدي إلى النار.

يقول الحديث الشريف:

سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى

معرفة الله تعالى وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، أما الصراط

(١) الملك: ٢٢.

(٢) إبراهيم: ٣.

في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مَرَّ على الصراط الذي هو جسر على جهنم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدنيا زَلَّت قدمه عن الصراط في الآخرة فتردَّى في جهنم»^(١).

اليوم من يمشي في الدنيا على صراط مستقيم فإنه في الآخرة أيضاً يمشي على صراطٍ مستقيم، ومن ينزل في الدنيا عن صراط الدين وأئمة الهدى فإنه أيضاً يوم القيامة ينزل عن الصراط فيقع في جهنم.

وفي الحقيقة فإن العلماء يقولون إن الآخرة هي عبارة عن باطن الدنيا. أي أن هذه الدنيا لو تفتح على عمقها وحقيقتها لرأيتَ في داخلها الآخرة وصراط الهدى الذي نسير عليه في الدنيا فإن الوجه الآخر والحقيقي له هو صراط النجاة يوم القيامة. ولهذا فإن الروايات تقول إن الصراط المستقيم في الدنيا هم أهل البيت عليهم السلام^(٢) فعموم الأنبياء هم الصراط وعموم الأوصياء هم الصراط، وعموم حملة الحق هم الدليل على الصراط ولهذا فإن الرواية تقول عن الإمام عليه السلام «نحن الصراط المستقيم»^(٣).

هناك آية في القرآن جميلة لكن حاول البعض أن يفسرها تفسيراً غير مقبول وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(٤) لا حظوا هذه الجملة ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٥) ورغم أن معناه واضح وهو أن هذا الطريق هو صراط يؤدي

(١) معاني الأخبار: ٣٢/١.

(٢) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنك على ولاية علي عليه السلام وهو الصراط المستقيم» البحار ٥٣:

٣٦٦/ضمن ح ٦.

(٣) التفسير الصافي ١: ٨٥.

(٤) الحجر: ٤١ و ٤٢.

(٥) الحجر: ٤١.

إليّ بنحو مستقيم. إلا أن بعض المتصوفة وبعض الروايات غير المقبولة عند الشيعة، رغم انها موجودة في التراث الشيعي حاولت أن تقرأ الآية القرآنية بهذا الشكل: (هذا صراطُ عليٍّ مستقيم)، لكن علماءنا لا يقبلون هذه القراءة، الآية القرآنية تقول: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

هذه الآية نزلت في الجدل بين الله تعالى وبين إبليس، إبليس قال: ﴿رَبِّ بِمَا أُغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(١) الله تعالى أجابه قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾،^(٢) فالآية جاءت في الجدل بين الله وبين إبليس قبل أن يهبط آدم وإبليس إلى الأرض، وقبل أن يكون هناك جدل في موضوع إمامة الإمام عليٍّ عليه السلام ولا كانت واقعا مطروحا.

عصمة القرآن:

في الحقيقة هذا الموضوع يجعلنا نتنقل الى مناقشة موضوع عصمة القرآن من التحريف.

نحن شيعة أهل البيت نعتقد بأن القرآن معصوم من التحريف بالزيادة والنقصان وأي تغيير في النص، فهذا القرآن الذي بين أيدينا لا فيه نقيصة ولا زيادة ولا تقديم آية ولا تأخير آية.

علمائنا من الجيل الأول من أيام الغيبة الصغرى والكبرى كالشيخ المفيد والطوسي والصدوق الى العلامة الحلي وإلى مراجعنا في هذا الزمان، يقولون بعصمة القرآن من التحريف، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣) وحينئذ فإن أي رواية نجدها في تراثنا الشيعي أو السني تنسب

(١) الحجر: ٣٩ و ٤٠.

(٢) الحجر: ٤١ و ٤٢.

(٣) الحجر: ٩.

التحريف للقرآن، فإننا نعتبرها مردودة وغير مقبولة، وهذا مذهب أهل البيت عليهم السلام، ولهذا فإن قراءة (هذا صراطٌ عليّ مستقيم) نعتبرها قراءة غير صحيحة فهي لم تأتِ عن أهل البيت عليهم السلام ولا جاءت عن طريق روايات صحيحة معتبرة، القراءات الصحيحة هي: ﴿هذا صراطٌ عليّ مُسْتَقِيمٌ﴾^(١) رغم أن الصراط في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) معناه صراط الأئمة كما جاء في الروايات لكن هذا من باب المصداق والتطبيق.

روايات جميلة عن الصراط:

١ - «الصراط هو جسر ممدود على جهنم»^(٣) قد يكون هذا من باب الإشارة إلى معنى المعبر فليس بالضرورة أن يكون جسراً من خشب أو ما شاكل ذلك، قد يكون عبارة عن ممر مادي، أو يكون عبارة عن امتحانات وأسئلة ثم تقول الرواية: «أدق من الشعرة وأحد من السيف».^(٤)

٢ - رواية ثانية عن رسول الله ﷺ: «أثبتكم قَدْماً على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي».^(٥)

٣ - رواية ثالثة تقول عن رسول الله ﷺ: «يا علي ما تبت حبك في قلب امرئ مؤمن فزلت به قدمٌ على الصراط إلا تبت له قدمٌ حتى يدخله الله بعبك الجنة».^(٦)

٤ - ورواية رابعة عن ابن عباس وهو ابن عم النبي وهو محترم عند

(١) الحجر: ٤١.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ٨: ١٢٧.

(٤) البحار ٨: ٦٥.

(٥) البحار ٨: ١٦/٦٩.

(٦) أمالي الصدوق: ٦٧٩.

الشيعية والسنة يقول: «إن على جسر جهنم سبع محابس - أي سبع نقاط سيطرة - يُسئل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها تامة جاز إلى الثاني فيسأل عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الثالث فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز إلى الرابع فيسأل عن الصوم، فإن جاء بها تاماً جاز إلى الخامس فيسأل عن الحج فإن جاء بها تاماً جاز إلى السادس فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامة جاز إلى السابع فيسأل عن المظالم - أي حقوق الناس - فإن خرج منها وإلا يقال: انظروا فإن كان له تطوع - أي أعمال مستحبة - أكمل به أعماله فإذا فرغ انتقل إلى الجنة»^(١).

٥ - رواية خامسة سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾^(٢) قال: «أخبرني الروح الأمين جبرئيل أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين أتى بجهنم تقاد بألف زمام بكل زمام مائة ألف يقوده من الغلاظ الشداد، ولها هدة وغضب وزفير وشهيق وانها لترفر زفرة لولا ان الله أخرهم للحساب لأهلكنا جميع ثم يخرج منها عنق يحيط بالخلائق يوم القيامة البر منهم والفاجر فما خلق الله ﷻ عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً الا وينادي ربي نفسي نفسي وأنت يا نبي الله تنادي أمتي أمتي، ثم يوضع عليها الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف عليه ثلاث قناطر. فأما واحدة فعليها الأمانة والرحم والثانية فعليها الصلاة والثالثة فعليها رب العالمين لا إله غيره، فيكلفون الممر عليها فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجو منها حبستهم الصلاة، فإن نجو منها كان المنتهى إلى رب العالمين وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلْمُصَادِقِ﴾^(٣) والناس على الصراط فمتعلق بيد

(١) البحار ٨: ٦٤.

(٢) الفجر: ٢٣.

(٣) الفجر: ١٤.

وتزول له قدم ويستمسك بقدم والملائكة حولها ينادون يا حليم اعف واصفح
وعُد بفضلك وسَلِّمْ والناس يتهافتون في النار كالفراس فياذا نجى ناج منها
التفت فقال: الحمد لله وبنعمته تقم الصالحات وتزكو الحسنات والحمد لله
الذي نجاني منك بعد إياس بمنه وفضله إن ربنا لغفور شكور»^(١).

الناس يوم القيامة يعبرون على الصراط على أشكال، أقرأ لكم هذه الرواية.

٦ _ الرواية السادسة عن الصادق عليه السلام: «الناس يمرون على الصراط
على طبقات فمنهم كالبرق من يمر مثل عدو الفرس ومنهم من يمر حبواً
ومنهم من يَمُر مشياً ومنهم من يَمُر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وترك
شيئاً»^(٢) هذه صور الناس عندما تمر على الصراط.

٧ _ الرواية السابعة عن رسول الله ﷺ يقول: «يا علي إذا كان يوم
القيامة أقعد أنا وأنت وجبرائيل على الصراط فلا يجوز على الصراط إلا من
كانت معه براءة بولايتك»^(٣).

الشيعة على الصراط:

أما رسول الله وأهل البيت وشيعة أهل البيت فقد قال رسول الله ﷺ
أتاني جبرائيل فقال: أبشرك يا محمد بما تجوز على الصراط؟
قلت: بلى.

قال: تجوز بنور الله، ويجوز علي بنورك ونورك من نور الله وتجوز
أمتك بنور علي ونور علي من نورك ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور»^(٤).

(١) التفسير الاصفى ٢: ١٤٤٢.

(٢) أمالي الصدوق: ٢٤٢/ ٢٥٧ - ٥.

(٣) اعتقادات المفيد: ٧٠.

(٤) بحار الأنوار ٧: ٣٣٢/ ١٥.

وعن الإمام علي عليه السلام يقول: «فلا أزال واقفاً على الصراط أقول رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا».^(١)

الرحم والأمانة:

رواية أخيرة ذات دلالة عظيمة تقول: إن صراط جهنم له حافتان هما عبارة عن الرحم والأمانة، ومعنى ذلك أن من لا يصل رحمه ولا يحافظ على الأمانة فإنه سيقع في جهنم. الإسلام كم هو عظيم؟ الإسلام يعني الأخلاق وصلة الرحم وأداء الأمانة والمحبة، هذا هو الإسلام وهذه هي ثقافة أهل البيت، وهذه هي أخلاق شيعتهم.

قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله يقول: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة فإذا مر الوصول المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما ما عمل وتكفأ به الصراط في النار».^(٢)

نظريية ابن عربي:

النبي هود على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، له كلمة خلّدها القرآن الكريم وهو الابن الثالث لنوح أو الابن السابع أي أنه قريب من نوح على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام.

القرآن الكريم يستعرض قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) ما من دابة: أي كل مخلوق من الإنسان وحتى النملة فإن الله تعالى آخذ بمقدم شعر رأسه وهو كناية عن التصرف التام به.

(١) الخصال: ٤٠٨.

(٢) الكافي ٢: ١٥٢ / ١١.

(٣) هود: ٥٦.

وهنا جاء ابن عربي وهو فيلسوف متصوف وله تعمق خاص في القرآن الكريم وله ادعاءات عريضة وبعض ادعاءاته صحيحة وبعضها غير صحيحة. ونحن الآن لا نريد أن نقيمه، ابن عربي يقول في هذه الآية التفاتة نادرة وهي أن كل الخلق على صراط مستقيم بدليل هذه الآية وهذا ما كشفه هود، حين قال: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾^(١) فالله تعالى آخذ بناصيتنا كلنا، وحيث ان الله تعالى على صراط مستقيم إذن كلنا على صراط مستقيم لأننا نمشي معه، والنتيجة أن كل الخلق على صراط مستقيم، إذن المؤمن على صراط مستقيم والكافر أيضاً على صراط مستقيم، وإذا كان كلاهما على صراط مستقيم، وكل من يمشي على صراط مستقيم فهو مرضي عند الله تعالى فالذي يمشي على صراط مستقيم فإن الله تعالى لا يغضب عليه ولا يضلّه بدليل قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(٢) وإذا كان الله تعالى راضياً عن كل الخلق إذن فإن من يرزقه الله الرضا يكون سعيداً بدليل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٣) إذن يكون كل الخلق سعداء ومرضيين وفي جنة الخلد يوم القيامة.

هذه التفاتة ابن عربي التي يحاول أن يكتشف فيها شيئاً من عمق الآية القرآنية، لكن القرآن مليء بالدلالة على انحراف الكافرين عن الصراط مثل قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُّنَ﴾^(٤) إذن لا يمكن القول ان كل الخلق يمشون على صراط مستقيم فلا الايات القرآنية تقبل هذا المعنى ولا الروايات الثابتة الصحيحة تقبل هذا المعنى.

(١) هود: ٥٦.

(٢) الفاتحة: ٦ و٧.

(٣) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

(٤) المؤمنون: ٧٤.

على كل حال فإن هود الذي هو الابن الثالث أو السابع لنوح بُعث لقوم عاد، وعاد كانوا في الأحقاف، والآن منطقة الأحقاف هي عبارة عن أطراف الربع الخالي من الجزيرة العربية.

قصة هود:

يقول القرآن الكريم لما بعث الله تعالى هوداً إلى قوم عاد، ويبدو أنهم كانوا أصحاب حضارة ومدنية حيث أن القرآن يصفهم قائلًا: ﴿وَأَرْفَأْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) قال لهم نبيهم: ﴿أَتَنْتُونَنِي بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾^(٢) فهم يبنون البناء الرائع وبنفس الوقت عندهم سطوة وبطش، وكذلك يصفهم القرآن ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾^(٣) البعض يفسره أنهم كانوا طوالاً، لكن لا يوجد دليل على هذا المعنى على كل حال فإن القرآن الكريم يشرح لنا قصة هؤلاء، وكيف أن الله أنزل عليهم العذاب.

اسمعوا الجدل بينهم وبين نبيهم هود ﴿وَالِي عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٤)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٥) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُنَالِغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا

(١) المؤمنون: ٣٣.

(٢) الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠.

(٣) الأعراف: ٦٩.

(٤) الأعراف: ٦٥.

(٥) الأعراف: ٦٦.

آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلَحُّونَ * قَالُوا أَجِئْنَا لَتُعِيدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَذَرَّ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُونَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا^(١).

كان عذاب هؤلاء أن الله تعالى قَطَعَ عنهم المطر مدة ثم جاءتهم
سحب ففرحوا بها ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرُنَا﴾^(٢) قال نبيهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ
بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) هذه إذا مرت على إنسان من داخله يذوب ويتجوف
﴿تَشْرَعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ يَخْلُ مُنْتَعِرٌ﴾^(٤) أي الجذع الأجوف ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا
بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا
صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ يَخْلُ خَاوِيَةٌ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٥).

هذا الحديث كان عن هذا المقطع ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٦)
والصراط المستقيم هم أهل بيت النبوة، ولهذا نقرأ في الزيارة الجامعة «وَأَدْلَاءَ
على صراطه» أهل البيت هم الأدلاء على صراطه، وهكذا نقرأ في دعاء الندبة
في مدح أمير المؤمنين بأنه «صراطه المستقيم».

«وكان بعده هدى من الضلال، ونوراً من العمى، وصراطه المستقيم، لا
يسبق بقراءة في رحم ولا بسابقة في دين يحذو حذوا الرسول ويقا تل على
التأويل ولا تأخذه في الله لومة لائم».

والحمد لله رب العالمين

(١) الأعراف: ٦٧ - ٧٢.

(٢) الأحقاف: ٢٤.

(٣) السابق.

(٤) القمر: ٢٠.

(٥) الحاقة: ٦ - ٨.

(٦) هود: ٥٦.

المحاضرة الخامسة والعشرون:

العصمة

معناها، دليلها، مساحاتها، مناقشات قرآنية

«عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن
وطهركم من الدنس وأذهب عنكم
الرجس».

حدثنا هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «عصمكم الله من الزلزل وآمنكم من الفتن وطهركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس» وفي هذا المقطع لدينا مجموعة بحوث:

البحث الأول: معنى العصمة:

ما معنى عصمكم الله من الزلزل؟
إن المعنى الاجمالي للعبارة أن أهل البيت معصومون من الزلزل.
الزلزل: بمعنى الانحراف والخطأ.
والعصمة ما تعني؟

العصمة: هي اصطلاح ديني مهم يشير اليه القرآن الكريم.
ونحن نعتقد بعصمة الأنبياء جميعاً وأهل بيت النبوة عليهم السلام.
العصمة لغوياً: بمعنى المنع والامتناع.

«قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»^(١) هذا ابن نوح عندما حدث الطوفان
قال لأبيه: «سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ» أي يمنعني من الماء.
قال له نوح: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ».

القرآن الكريم يستخدم هذا المفهوم بهذا المعنى الواضح البسيط في
كثير من الآيات مثلاً «وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا»^(٢) يعني امتنعوا من
الفرق والزلزل والتزموا بحبل الله.

(١) هود: ٤٣.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

وفي موضع آخر يقول: «وَمَنْ يَغْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١) أي ذاك الإنسان الذي يريد أن يمشي على الصراط المستقيم في الدنيا أو في الآخرة فإن المطلوب منه أن يعتصم بحبل الله.

وفي قصة يوسف وزليخا جاء هذا المعنى أيضاً حينما راودت زليخا يوسف عن نفسه ولا حفته «وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ»^(٢) هي تقول عنه: «فَاسْتَعْصَمَ وَلَكِنْ لَمْ يَعْمَلْ مَا آمَرُهُ لَيْسَ جَنًّا»^(٣) فهو يدري أن نتيجة السجن لكنه استعصم وامتنع، إذن فالمعنى اللغوي والقرآني للعصمة هو التمسك بشيء يعصمه من الزلل والغرق.

إذن المصطلح القرآني عن العصمة هو نفس المصطلح اللغوي.

العصمة في المفهوم العقائدي:

نتقل إلى المصطلح العقائدي. فنحن الآن في عقيدتنا أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام معصومون وهذا النص في الزيارة الجامعة يؤكد هذا الأمر. العصمة بالمفهوم العقائدي هي نفس العصمة بالمفهوم اللغوي بمعنى الامتناع، لكن امتناع عن أي شيء؟ هذا ما سنبحثه في البحث الثاني.

البحث الثاني: مساحات العصمة:

إن عصمة الأنبياء وعصمة الأئمة تمتد إلى أربع مساحات:

المساحة الأولى: هي مساحة أداء الشريعة.

والعصمة في هذه المساحة تعني إعطاء المفاهيم والتشريعات الواردة عن الله تعالى بدون أي خلل. فالأنبياء والأئمة معصومون لا يخطئون في هذه المهمة الرسالية.

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) يوسف: ٢٣.

(٣) يوسف: ٣٢.

يعني أن الأنبياء والأئمة لا يقدمون الرسالة الدينية خطأ أو يشتبهون في بعض المفاهيم التي يطرحونها. وكل ما يصدر من النبي ومن الأئمة في هذا المجال هو صحيح.

المساحة الثانية: هي مساحة السلوك الديني.

يعني أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام في سلوكهم لا يعصون الله تعالى لا عمداً ولا سهواً فهم معصومون في دائرة السلوك الديني يعني في المعاملات الدينية من الحلال والحرام حيث لا يقعون في خطأ.

المساحة الثالثة: هي مساحة السلوك الشخصي.

هذا الموضوع لا يتصل بالحرام أو الحلال لأن الإمام إذا سها أو غير ذلك لا يعتبر قد ارتكب حراماً لكن يعتبر هذا غفلة كما تكون هذه الغفلة في باقي البشر يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنَسَانِيُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾^(١). فالغفلة والنسيان هي من فعل الشيطان فهل يجوز ذلك في حق الأنبياء والأئمة؟

المساحة الرابعة: هي مساحة الاجتهادات السياسية والاجتماعية.

هل يمكن أن يخطأ النبي أو الإمام في تحديد الموقف الصحيح اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، أو لا يمكن أن يخطأ؟ هذا نسمة دائرة الاجتهادات، الامام الحسن عليه السلام صالح، أما الإمام الحسين فقد ثار، الإمام علي عليه السلام أول ما استلم الحكم عزل معاوية في الوقت الذي كانت عدة اجتهادات أخرى، مثلاً ابن عباس كان يقول للإمام علي لو تدع معاوية حتى يقوى حكمك ثم تعزله، بينما الإمام كانت نظريته أن يعزل معاوية فوراً، هذا موقف سياسي.

فهل الأئمة والأنبياء في الموقف السياسي أيضاً معصومون أولاً؟

فمثلاً إن النبي ﷺ هاجر الى الطائف لكن تجربته في الطائف لم تنجح، هل يمكن أن يقول قائل إن موقف النبي وتخطيطه للهجرة كان خطأ؟ هذا يقع ضمن دائرة المواقف والاجتهادات السياسية.

نظرية الشيعة في العصمة:

شيعة أهل البيت يعتقدون أن العصمة في المساحة الأولى والثانية ضرورية لا بد منها، والعصمة في المساحة الثالثة والرابعة هي حالة كمالية قد لا يرى بعض العلماء ضرورتها في النبي أو الإمام.

العصمة في المساحة الأولى وهي دائرة إبلاغ الرسالة والعصمة في المساحة الثانية وهي دائرة السلوك الديني، هنا النبي والإمام معصوم ولا يمكن أن يخطأ، وهذا معناه أن النبي لا يمكن أن يخطأ في نقل القرآن لنا، فنحن نقول إنه أوصل هذه الرسالة كما هي عند الله مئة بالمئة وأي نقص لا يوجد بها، والأئمة أيضاً شرحوا القرآن الكريم وأوصلوا لنا الحلال والحرام بدون أي خطأ.

أما في المساحة الثالثة والرابعة فالمسألة هي مسألة كمالية، وعلمائنا يعتقدون بأن النبي والأئمة معصومون أيضاً في السلوك السياسي والشخصي، هذا رأي كثير من علمائنا، لكن سوف نذكر بعض المناقشات التي عادةً تُذكر في الأبحاث، كيف نفسر الآيات القرآنية التي تشير إلى وقوع الخطأ من النبي؟

البحث الثالث: الدليل على العصمة:

ما هو الدليل على أن الأئمة والأنبياء معصومون في مساحة إبلاغ الرسالة وفي مساحة السلوك الديني؟
الجواب: هناك مجموعة أدلة.

الدليل الأول: الدليل العقلي:

علمائنا يقولون عقلياً إذا أردنا أن نحسب المسألة يقال هذا نبي من الله تعالى مبعوث حتى يوصل اليكم رسالته وكلماته، فإذا كان هذا النبي من المحتمل أن يخطأ في إيصال الرسالة، فحينئذ لا يمكن أن نعتمده ونثق بما جاء به.

لا توجد شخصية أكبر من النبي حتى نراجعها فالنبي هو القمة، فإذا كان النبي محتملاً أن يوصل إلينا الرسالة خطأ إذن لا يمكن اعتماد هذا النبي، ومن ناحية أخرى فإن الله تبارك وتعالى قدّم الأنبياء والأئمة كنموذج للإنسان الكامل. فالقرآن الكريم عندما يقول: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(١) نظرية الأسوة تعني أن هذا هو النموذج الإلهي وفرضية النموذج والأسوة تتنافى مع صدور الخطأ. فهل يمكن أن يكون به خطأ؟

الدليل الثاني: الدليل القرآني:

من أهم الآيات التي يستدل بها العلماء على العصمة هي قوله تعالى في قصة إبراهيم: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فالقصة تقول: إن الله تعالى امتحن إبراهيم فلما نجح في الامتحان قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٢) إبراهيم عندما فرح بهذا النجاح قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. فالنبوة والإمامة هي عهد من الله تعالى.

هذه هي المقدمة الأولى في الاستدلال، والمقدمة الثانية نحن نعتقد أن كل من يصدر منه معصية فهو ظالم لنفسه مثلاً إنسان ترك الصلاة عمداً فهو بالمعنى الشرعي ظالم والذي عصى ربه فقد ظلم نفسه. ﴿وَمَنْ يَعْدَ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٣) كل

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) البقرة: ١٢٤.

(٣) الطلاق: ١.

مذنب هو ظالم والقرآن يقول ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ولما كانت النبوة والإمامة عهد الله تعالى إذن لا ينالها إلا المعصوم الذي لا يظلم نفسه.

والآية الثانية التي يستدل بها على العصمة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) فهذه الآية صريحة في أن النبي ﷺ لا ينطق عن أهواءه الشخصية فكل ما يجري على لسان النبي هو وحي من الله تبارك وتعالى أي أن إرادة النبي متطابقة مع إرادة الله تعالى، وفي هذا السياق أيضاً في الدلالة على العصمة النصوص القرآنية التي تؤكد التقارن بين طاعة الله تعالى وطاعة الرسول، فهذا معناه أنه لا يمكن في يوم من الأيام أن يفترق النبي عن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢) ثم يقول: ﴿وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٣) هذا التقارن في الطاعة والمعصية بين النبي وبين الله تبارك وتعالى يعني أن هناك توافقاً دائماً في الأداء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٤) حيث يستدل بها علماء الشيعة على عصمة الأئمة. **الدليل الثالث: دليل السنة:**

هناك الكثير من الروايات تدل على عصمة أهل البيت ﷺ والأنبياء. مثلاً ما ثبت عن رسول الله ﷺ قوله: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ» يدور معه حيثما دار»^(٥) فهذه العبارة لا تحتاج إلى استدلال فلسفي، بل هي

(١) النجم: ٣ و ٤.

(٢) النساء: ١٣.

(٣) النساء: ١٤.

(٤) الأحزاب: ٢٢.

(٥) مناقب الكوفي ٢: ٥٣٠.

واضحة في أن كل ما يصدر من الإمام عليّ هو حقّ، وهذه الرواية إجماعية متفق عليها.

وهكذا حديث الثقلين وهو قول رسول الله ﷺ: «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١) وهو واضح في أن أهل البيت عليه السلام لا يفترقون عن القرآن الكريم وهذا دليل على ترابط وتلازم ومماشاة طول العمر بين أهل البيت والقرآن الكريم.

وكذلك حديث السفينة وهو قوله ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»^(٢) فإذا كان هناك خلل وعطل في هذه السفينة فسوف لا تتحقق النجاة، فلو كان أهل البيت عندهم معاصي وأخطاء تصدر منهم في إبلاغ الرسالة، إذن لا يصح قول النبي ﷺ: «من ركبها نجا» فلا بدّ أن يكون الأئمة معصومين حتى يكونوا مثل سفينة نوح.

البحث الرابع: مناقشات قرآنية:

قد يقول قائل إن عدداً من الآيات القرآنية تشير إلى صدور عدة مخالفات من الأنبياء فكيف يجتمع ذلك مع العصمة؟

من جملة تلك الآيات قوله تعالى في قصة آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٣) وفي آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نُفْسِي وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾^(٤) فهذه مخالفة يشهد لها ظاهر القرآن الكريم لأمر الله تعالى فإن الله تعالى قد نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة فوسوس لهما الشيطان ﴿فَلَمَّا ذَاقَا

(١) أمالي الصدوق: ٦١٦/٨٤٣ - ١.

(٢) خاتمة المستدرک ١: ٣٥٦.

(٣) طه: ١٢١.

(٤) طه: ١١٥.

الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَاتُهَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ^(١) فالقصة تقول إن الله تعالى عندما خلق آدم وحواء في الجنة أوحى لهما أن لا تأكلا من هذه الشجرة، وهنا جاء الشيطان ووسوس لهما ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ^(٢)﴾ و﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى^(٣)﴾ وبمجرد أن أكلَا منها انكشفت لهما الحقيقة في واقع الإنسان وتركبه من أمور مادية ومعنوية ﴿فَبَدَتْ لَهَا سَوَاتُهَا^(٤)﴾ أي رأوا بدنهم عارياً ولهذا أسرع آدم وحواء يجمعون من ورق الشجر يستترون به.

لاحظوا قبل هذا لم يكونوا يرون كل الحقيقة، إذن هنا يوجد لغز لا بد من حله فليست القضية أنهم ارتكبوا معصية، فكيف تحولت هذه المعصية إلى خير وبركة بحيث أصبح عندهم نور وإدراك بصري يرون به واقعهم على حقيقته، هذا الأمر يجعلنا نصل إلى نظرية جديدة لم يطرحها العلماء.

دفاعات عن آدم:

فالعلماء حاولوا أن يفسروا هذا الأمر ويدافعوا عن آدم بعدة دفاعات:

الدفاع الأول: إن هذه القصة لا تحدث عن آدم حينما كان نبياً بل تحدث عنه قبل أن يكون نبياً، كان في الجنة ولم تكن توجد هناك نبوة أو رسالة وحينئذ فمن الممكن أن يرتكب معصية.

الدفاع الثاني: إن آدم لم يرتكب معصية شرعية وإنما ارتكب مخالفة للنهي الارشادي، فالله تعالى قال لآدم وحواء: لا تأكلا من هذه الشجرة فإذا

(١) الأعراف: ٢٢.

(٢) الأعراف: ٢١.

(٣) طه: ١٢٠.

(٤) طه: ١٢١.

أكلتما فنتيجتكم أن تنزلوا إلى الدنيا ولم يكن ذلك نهياً تحريمياً وإنما كان نهياً تحذيرياً ومن باب النصح.

الدفاع الثالث: لكن يوجد تفسير آخر نقدمه لكم وهو يحتاج إلى تقريب وجهة النظر وظرافة في البيان والتعبير.

يوجد شيء يُسمى مصلّ وقائي أي لقاح مناعة يحتاج إليه كل أحد حتّى لا يصيبه مرض، فآدم كان في الجنة بنوع آخر من الحياة، مثل الجنين في بطن الأم. لا توجد فيها هذه الأوبئة الموجودة في الدنيا والانحرافات الماديّة الشيطانيّة.

الله تعالى خلق آدم لينزله إلى الأرض فهو بالأصل مخلوق للدنيا وليس للسماء، الله تعالى يريد أن ينزل آدم إلى الأرض ولذا فهو يحتاج إلى لقاح، وهذا اللقاح سوف يمرضه عدة أيام لكنه فيما بعد ذلك سوف يعطيه مناعة، وهذا اللقاح هو عبارة عن الأكل من هذه الشجرة الذي كان ضرورياً للهبوط إلى الدنيا، ولذا بمجرد أن أكلا تولدت عندهم حالة المناعة ورغم أنهم في الحقيقة تمرضوا بهذا العمل، وبدت لهما السوآت والعورات. ولهذا فإن القرآن يعتبرها مرضاً ومعصيةً وغوى، ولكن هذا المرض هو سبب العافية فيما بعد ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾^(١) فيما بعد عندما أصبحت عنده هذه المناعة تقبله الله تعالى وجعله نبياً وخليفةً في الأرض.

فآدم قبل أن يجتبيه الله تعالى هو غير آدم بعد أن اجتباه، ولذا فهو عندما نزل إلى الدنيا لم يغلط ولم يقم بمعصية.

مناسبة دحو الأرض:

في هذه الليلة^(٢) توجد مناسبة كونية عظيمة تسمى دحو الأرض، أي

(١) طه: ١٢٢.

(٢) وهي ليلة ٢٥ ذو القعدة.

في مثل يوم غدٍ ٢٥ ذي القعدة حيث أن الله تبارك وتعالى _ على ما تقول الروايات _ دحى الكرة الأرضية وجعلها بهذا الشكل الذي عليه الآن .
أهم النظريات في تكوين الكرة الأرضية نظريتان:
النظرية الأولى: الانفصال الشمسي.
النظرية الثانية: التكتل الغباري.

نظرية الانفصال الشمسي تعني أن هذه الكرة الأرضية كانت جزءاً آمن من الشمس ونتيجة حركة الشمس ودورانها على نفسها السريع تطاير من الشمس مجموعة كتل صخرية عملاقة كان من جملتها الأرض ومن جملتها الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس.

أما نظرية التكتل الغباري فهي أن الكرة الأرضية كما هي الكواكب السيارة الأخرى هي عبارة عن غبار هيدروجيني ضخّم، هذا الغبار وفي ظروف معينة مناخية تكون وتكتل وأصبح عبارة عن تراب وحجر وما شاكل ذلك.

أحاديث أهل البيت عليه السلام تقول: إن قبل آدم كان ألف ألف آدم،^(١) الفاصل بين آدم وبيننا في أقصى حالاتها لا تصل إلى عشرة آلاف سنة،^(٢) بينما وصل العلماء في تاريخ تكون الأرض سواءً بالنظرية الأولى أو النظرية الثانية يمتد إلى مئة وخمسين مليون سنة، ولهذا فإن روايات أهل البيت عليه السلام تقول: إن قبل آدمكم هذا يوجد ألف ألف آدم على هذه الأرض.
وبعض علماء الجيولوجيا يرجع بتاريخ نشوء الأرض إلى خمسين مليون سنة.

(١) البحار ٢٥: ٢٥.

(٢) علماؤنا يقدرّون الفاصلة الزمنية بـ ستة إلى سبعة آلاف سنة، أنظر الميزان للعلامة الطباطبائي وكذلك المراقبات للميرزا جواد الطباطبائي.

نشوء الحياة:

كيف نزلت الحياة إلى الأرض؟ يوجد عدة نظريات بعضها تقول: إن الحياة انبثقت من نفس الأرض ونظريات أخرى تقول: إنها نزلت من عالم السماء فهي تشابه نزول آدم من الجنة، الآن توجد نظرية مفترضة لدى العلماء وهي أن الحياة لم تكن وليدة هذه الأرض وإنما أتت من الفضاء ولهذا فهم يبحثون عن بعض النيازك والشهب ليروا فيها آثار حياة.

أود أن أذكر لكم أشياء عجيبة ومذهلة حيث أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(١) يعني هذه السماء والفضاء الكوني يمتد ويتوسع هذه نظرية يشير إليها القرآن قبل ألف وأربعمائة عام، ثم إن القرآن يذكر نظرية ثانية وهي نظرية ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾^(٢) فالسماة قُرشَت وما تزال في اتساع ثم يقول القرآن: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ...﴾ أي أنها تطوى مثل طي السجل، هذا الشيء الذي يذكره القرآن بقوله في نظرية العود إلى الله ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٣) يسميه الفلاسفة قوس النزول وقوس الصعود، أي إن البشر جاء عبر ملايين السنين من الله تبارك وتعالى عبر قوس النزول، وسوف يرجع إلى الله تعالى ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٤) عبر قوس الصعود، هذا الأمر علماء الفلك يحاولون أن يؤكدوه.

نظرية الامتداد والانعكاش:

فالعلماء الآن يقولون إن هذا الكون يتمدد ويتسع خلال ٦٦ ألف مليون

(١) الذاريات: ٤٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) الأعراف: ٢٩.

(٤) البقرة: ١٥٦.

سنة ضوئية في عملية (الامتداد) ثم يبدأ ينكمش بعد هذا الامتداد في ١٣٢ ألف سنة ضوئية، هذه هي نظرية (الامتداد والانكماش) وهي شبيهة بما يذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(١).

والسنة الضوئية هي عبارة عن عشرة مليون مليون كيلومتر. وامتداد الكون وتوسعه في ٦٦ ألف مليون سنة ضوئية، هذا هو الذي يسمى الفضاء الكوني المرصود، لكن هذا لا قيمة له بالحسابات العلمية، لأنه إذا تطور العلم وتجاوز الإنسان حالة الرصد المادي بحيث يصل إلى حالة رصد الأنبياء حيث يكتشف أن هذا الكون لا نهاية له، إننا نحتاج إلى وحدات قياس فوق السنوات الضوئية، إن حدود الكون المرصود فعلاً هو ٢٠ ألف مليون سنة ضوئية.

إن الكون المرصود يشتمل من المجرات التي نشاهدها عبر التلسكوبات، هو مليون مليون مجرة في الفضاء.

الحياة لم تكن موجودة في هذا الكون حيث وجدت الحياة الحيوانية على الأرض في مثل الديناصورات وغيرها منذ خمسين مليون سنة أو أكثر، أما الحياة الآدمية فهي أكثر حداثة حيث أن آدما وهو آخر آدم على الأرض وهو لا يبعد بأكثر من عشرة آلاف سنة في أقصى التقدير.

معصية يونس:

إن الآية التي تقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٢) هناك أكثر من تفسير وتأويل للتخلص من فكرة أن آدم قام بمعصية. فنحن نؤمن بنظرية العصمة، لكن القرآن يشير إلى مخالفات عديدة قام بها الأنبياء من جملتها ما جاء في

(١) الأعراف: ٢٩.

(٢) طه: ١٢١.

قصة يونس عليه السلام المعروفة ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) إن خلاصة قصة يونس أنه دعا قومه فلم يستجيبوا له فدعا عليهم فلما أوشك العذاب انسحب يونس عن قومه فابتلعه الحوت، التفسير المعقول يقول إن الله تعالى عاقبه لماذا تركت قومك؟ ولماذا دعوت عليهم؟ كان المفروض أن لا تدعو عليهم؟ البقاء أولى من الفناء، والصبر عليهم أولى من الدعاء عليهم، حيث يوجد اثنان من الأنبياء دعوا على قومهما، أولهما نوح حيث دعا قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُلْغُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^(٢) والنبي الآخر هو يونس.

إن ظاهر الآية القرآنية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) يؤكد اعترافه بالخطأ، وهذه أليست مخالفة؟

اعتراف الأئمة:

قد يقول قائل: أئمتنا عليهم السلام كذلك، فالإمام عليّ يقول: «إلهي قلبي محجوب وعقلي مغلوب وهوائي غالب وطاعتي قليل ومعصيتي كثير»^(٤) فكيف يقول الإمام معصيتي كثير ونحن نعتقد بعصمته؟ هذا هو ما يحتاج إلى تفسير وتأويل أيضاً.

النظرية تقول في تفسير ذلك أنه كلما كان الإنسان صالحاً فإن الأخطاء الصغيرة بينه وبين الله تعالى يراها جداً كبيرة وأما ذاك الإنسان العادي فهو

(١) الأنبياء: ٨٧

(٢) نوح: ٢٦ و ٢٧.

(٣) الأنبياء: ٨٧

(٤) بحار الأنوار ٨٤ / ٣٤١ الدعاء المعروف بدعاء كميل.

يرى نفسه رغم كل المعاصي كأن لم يعمل أي ذنب، ولهذا ترى كلما ازداد الإنسان في مدارج الكمال ازداد خوفاً وبكاءاً وسهراً حتى يصل إلى ما وصل إليه الأنبياء، لكن كلما ابتعد عن مدارج الكمال يرى نفسه كأن لم يعمل ذنباً، إن هذا الابتعاد عن الله تعالى هو بمثابة المعصية لدى الأنبياء والأولياء، ولهذا فإن الإمام يقول: «إلهي قلبي محجوب... ومعصيتي كثير ولساني مقرر بالذنوب».

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السادسة والعشرون:

الفتنة

أنواعها وطرق النجاة منها

«عصمكم الله من الزلل وآمنكم من الفتن
وطهركم من الدنس واذهب عنكم الرجس
وطهركم تطهيراً».

حديثنا الليلة حول هذا المقطع من الزيارة «وآمنكم من الفتن» حيث يوجد هنا بحثان:

البحث الأول: بحث قرآني، عن الفتنة، مدلولات الفتنة، واستعمالاتها، والمنجيات من الفتنة في القرآن الكريم، والموقف تجاه الفتنة حسب الدلالات القرآنية؟

البحث الثاني: بحث عقائدي. لماذا كان الله تعالى يفتن الناس؟ الله العطوف الجليل الواسع المغفرة.

مدلول كلمة الفتنة:

ما هو مدلول كلمة الفتنة في القرآن الكريم؟

يمكن أن نقول: إن الفتنة في الاستعمال القرآني لها معنيان المعنى الأول إيجابي والمعنى الثاني سلبي، المعنى الأول للفتنة هو الامتحان الاختباري، مثل طالب مدرسة يدخل الامتحان في آخر السنة، هذا نسميه امتحاناً اختبارياً، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان، هذا امتحان وليس ظلماً وإنه اختباري، حيث لا يمكن أن تكون الإدارة عادلة إذا كانت تعطي درجة النجاح لكل الطلاب بدون اختبار، ولا يمكن لكلية الطب أن تعطي لكل الطلاب شهادات تخرج من الطيبة بدون أن يكونوا قد بذلوا جهداً علمياً. هذا في الحقيقة خيانة للمجتمع يعني لا بد من امتحان اختباري لطلاب الكلية.

المعنى الأول:

الفتنة بالمعنى الأول تعني امتحاناً اختبارياً، الله يفتن الناس أو يمتحن الناس الجيد منهم أو الرديء ولا بد أن يمروا في هذه الدنيا عبر عملية امتحان حيث لا يمكن

أن يدخل الجيد والسيئ في الجنة دون حساب، الظالم والمظلوم يدخلون الجنة بدون حساب فإن هذا ليس عدالة بل هو ظلم، فمن أجل تحقيق العدالة لا بد أن يدخل الظالم والمظلوم بحساب، هذا هو المعنى الأول الذي نسميه (الامتحان الاختباري).

القرآن الكريم يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(١) إن الله يعطيك الأبناء ولكنهم فتنة وامتحان لك، صحيح أنه يعطيك الأولاد ولكن يريد أن يرى كيف تربى وتعلم هؤلاء الأبناء؟ وكذلك الأموال الذي يعطيها هي رحمة ولكنها امتحان حيث كيف تتعامل معها من حيث الانفاق؟ هل ترفق بالفقير؟ أو تصل بها رحمك؟ أو تنفقها على والديك وأولادك؟ وتؤدي واجباتك الشرعية أو العكس؟ هذا كله امتحان ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٢) لكن هذه فتنة إيجابية.

وبهذا المعنى الإيجابي جاء قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُزَكُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٣) يعني هل يتصور الناس بمجرد أن يقولوا: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) أنهم يدخلون الجنة بدون اختبار النية ومدى صدقهم؟ القرآن يقول لا بد من اختبار وليس بالقول فقط وإلا فإن كل الناس يدعون الإسلام والإيمان، القرآن يقول: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُزَكُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٤) الدنيا عبارة عن جامعة علمية مثل ما عندكم بالجامعة امتحانات شهرية ويومية ونهائية، كذلك الدنيا كلها امتحانات فالدنيا جامعة إنسانية.

القرآن الكريم أيضاً يقول: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٥) القرآن يقول حتى الخير الذي نعطيه لك نريد أن نبتليك به مثل العافية والذكاء

(١) الأنفال: ٢٨.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) الأنبياء: ٣٥.

والرزق هذا خير وفيه امتحان، والشر كذلك المرض والفقر والمشكلات السياسية، نمتحنكم حتى نرى من هو الصابر وغير الصابر.

إذن الفتنة بهذا المعنى لا تمثل حالة سلبية بل حالة إيجابية وسنة إلهية، ﴿وَلِيَمْخَصَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١).

الله تعالى يقول: لا بد أن أعرف ما في قلوبكم لأن بعض الناس إذا أعطاه الله شكر وإذا لم يعطه كفر. إذن هذا ليس إيماناً حقيقياً ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^(٢) هذا هو المعنى الأول للفتنة وهو الامتحان الاختباري.

المعنى الثاني: بحسب الاستعمال القرآني للفتنة هو عبارة عن الامتحان التسقيطي، هذا الامتحان التسقيطي هو الفتنة بالمعنى السلبي وهو فتنة الشيطان. لاحظوا الله تعالى عنده فتنة والشيطان عنده فتنة، فتنة الله تعالى عبارة عن امتحان اختباري حتى ينجحوا ويتقدموا، الشيطان أيضاً عنده فتنة حتى يضل الناس ويسقطهم ويغويهم في نار جهنم هذه فتنة شيطانية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾^(٣) وهذه هي الفتنة التي يقف عنها القرآن ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٤) القرآن مرة أخرى يقول: ﴿الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٥) الفتنة هنا يعني إضلال الناس وإيجاد العداء بين الناس وإيجاد الإرهاب وتسقيط المجتمع وسلب الأمان. الشيطان يفتن الإنسان بهذا الهدف ولهذا فان القرآن يحذر من الفتنة الشيطانية، لكن لا يحذر من الفتنة الإلهية لأنها شيء جيد.

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) الحج: ١١.

(٣) المائدة: ٩١.

(٤) البقرة: ١٩١.

(٥) البقرة: ٢١٧.

يوماً^(١) ما في زمن عمر بن الخطاب سمع الخليفة رجلاً يقول: إني أكره الحقّ وأحب الفتنة، الناس صاحوا هذا كافر، اقطعوا رأسه، وصل الخبر إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: امهلوه حتّى نعرف ما قصده، فسأله أمير المؤمنين أنك تقول: إني أكره الحقّ وأحب الفتنة، فماذا تقصد؟ قال: صحيح يا أمير المؤمنين ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٢) وأنا أحب أموالي وأولادي، والموت حقّ، أنا أكره الموت.

لاحظوا يوجد ناس يتسرعون في تكفير الناس، لأنك تزور مراقد أهل البيت عليهم السلام قالوا هذا مشرك كافر ودمه حلال. أولاً اسمع ماذا نقول: «يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» إذن الأمر كله لله والتوجه هو إلى الله تعالى.

الفتنة الشيطانية مثل إيقاع العداوة بين الناس والاقتتال الطائفي والضعينة بين الأخ وأخيه والجار وجاره والفتنة بهذا المعنى يجب الابتعاد عنها والحذر منها ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾^(٣).

التشااور مع الزوجة الصالحة:

يُروى انه في زمن بني إسرائيل كان هناك رجل رأى في المنام رسولاً من عند الله يقول له: إن الله قدّر لك عشر سنوات من عمرك سعادة وعشر سنوات شقاء، والله تعالى يخيرك تريد النصف الأول شقاء والثاني رخاء أم تريد العكس؟ كان هذا الرجل فاهماً، قال: أنا عندي شريك في حياتي وهو زوجتي، اسمح لي أستشيرها، لأنه ليس من حقي أن أختار وحدي، استيقظ في الصباح وجاء إلى زوجته، وحكى لها ما رأى وسألها ماذا تقولين؟ ما

(١) أنظر: الغدير ٦: ١٠٥.

(٢) الأنفال: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٢٧.

نختار؟ قالت له: ليكن النصف الأول رخاءاً والبقية على الله تعالى فهو كريم، هذا الأمر به دلالات كثيرة على أهمية مشورة المرأة الصالحة والعاقلة، وعلى العدالة في السلوك، إن الإنسان عنده شريك في الحياة وليس وحده.

مرة أخرى جاء إليه الرسول في المنام وقال: ماذا تقول؟

فقال له الرجل: أختار النصف الأول رخاءاً وسعادة، والنصف الثاني

شدةً وشقاء.

في الصباح من اليوم التالي جاءه الخير والرزق والرحمة وكثر خيره لكن هذه الزوجة الصالحة كلما كانت الرحمة تأتيه تقول لزوجها: هذا جيرانك فقير أعطه، وعندك أرحام صلهم، وعندك بيت كبير ادعهم إلى بيتك، أقربائك وجيرانك الفقراء وهكذا. وكلما تأتيه رحمة يوزعها ويأخذ حصته ولكن يكرم الآخرين.

انتهت العشر سنوات الأولى، قال الرجل: يا ساتر يا الله سوف نبدأ بعهد الشدة والشقاء، جاء اليوم الأول والثاني والشهر الأول والثاني والخير مستمر ولا يوجد شقاء، مضت ستة أشهر على هذا الحال، نام ذات ليلة من الليالي رأى ذلك الرسول من عند الله فقال له: يا فلان أنت قلت لي النصف الأول سوف يكون رخاءاً والنصف الثاني شدة، وأنا الآن منذ ستة أشهر في النصف الثاني والرخاء مستمر ولا توجد شدة، أين الوعد الإلهي؟

فقال الرسول: إن الله تبارك وتعالى جعل هذا النصف الثاني لك أيضاً خيراً ورخاءاً ببركة صلة الرحم وبرك الجيران وعطاءك الخيرات، الله تعالى جعل ذاك النصف الذي هو شر جعله خيراً أيضاً.

هذا معناه أن الله تعالى افتتن هذا الإنسان واختبره وهذا الإنسان نجح في الاختبار، وقد قلنا إن الفتنة الإلهية هي امتحان اختباري وهي شيء جيد وكل إنسان يتعرض لهذا الامتحان لكن الإنسان إما ينجح أو يرسب.

قصة عن الفتنة الشيطانية:

أما الفتنة الشيطانية فهي فتنة تضليل، أذكر لكم رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:
تقول الرواية والمعنى صحيح بقطع النظر عن سند هذه الرواية لأن الفكرة
الواردة فيها هي فكرة مقبولة وفق القياسات الدينية: يؤتى يوم القيامة بامرأة حسناء
جميلة، لكن في الدنيا قد افتنت وضلّت وانحرفت، تقول: إلهي أنا في الدنيا انحرفت،
أنت ابتليتني بالجمال فذهبت وراء المعاصي، فيؤتى بمريم بنت عمران يقال: أيها
أجمل أنت أم مريم بنت عمران؟ تقول: مريم بنت عمران.

الله تعالى يقول: إذن هي افتنتها بالجمال ولكن لم تَفضَل لماذا أنتِ ضلّلتِ؟
ويؤتى بشاب جميل يوم القيامة وقد انحرف في الدنيا يقول: إلهي أنت
امتحننتي بالجمال والعافية والدنيا غرّنتني، ولولا الأموال والجمال ربما كنت أنساناً
صالحاً، فيؤتى بيوسف عليه السلام يقال لهذا الشاب: أنت أجمل أو يوسف أجمل؟
يقول: يوسف أجمل.

فيقال له: إذن الله تعالى امتحن يوسف بالجمال ولم ينحرف فلماذا انحرفت؟
ثم يؤتى برجل من أهل البلاء والشدة وقد انحرف في الدنيا يقول: إلهي أنت
ابتليتني وأنا لم أصبر، فيؤتى بأيوب ويقال: أنت أشد بلاءً أو أيوب أشد بلاءً؟
يقول: أيوب أشد بلاءً.

يقال: أيوب ابتليناه وافتتناه ولم ينحرف فلماذا انحرفت أنت؟^(١)

هذه أفكار تأتي على شكل روايات هي صحيحة من حيث الفكرة
والمحتوى، لأن الله تعالى يوم القيامة له حجة على جميع الناس ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ
الْبَالِغَةُ﴾^(٢) لا يوجد شخص يقول أنا عندي دليل وحجة على الله فلا يستطيع أن
يحاسبني، هذه القصص والروايات هي ذات دلالات صحيحة.

(١) أنظر: الكافي ٨ / ٢٨٨ / ٢٩١.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

الفتنة العامة والفتنة الخاصة:

هذه الفتنة بالمعنى الأول والثاني التي تحدثنا عنها هي فتنة عامة، كل الناس الله يفتنهم والشیطان أيضاً يفتنهم، كل البشر في هذه الجامعة الدنيوية هم في طريق الامتحان أما امتحان اختباري إلهي أو امتحان تسقيطي تضليلي من قبل الشيطان، هذه فتنة عامة.

توجد هناك فتنة أخرى هي الفتنة الخاصة حسب الاستعمال والدلالة القرآنية، توجد امتحانات خاصة، حيث يُمتحن إنساناً امتحاناً خصوصياً ليس له مثيل مثل امتحان أيوب، هذه امتحانات شدة.

فتنة ناقة صالح:

أذكر لكم واقعة تاريخية وهي قصة ناقة صالح، صالح نبي من الأنبياء، قبره في وادي السلام. وهو أحد الأنبياء العرب وهم خمسة، ولعل من الأسرار أن الأنبياء هم إما عرب أو عبريين والأنبياء العرب هم خمسة فقط إسماعيل وشعيب وهود وصالح ومحمد ﷺ.

بعث نبي الله صالح إلى قومه ثمود، كانوا موجودين في الجزيرة العربية، وآثارهم ما تزال موجودة شمال حضرموت، وكان لهم مدينة وقرى ومزارع كثيرة، القرآن يصف تمدنهم في بعض الآيات بقوله:

﴿تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبُونَ * وَتَأْخُذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾^(١) قالوا: يا صالح تدعي أنك نبي، ادع الله أن يخرج لنا من هذه الصخرة اليابسة ناقة، دعا الله تبارك وتعالى حسب بعض الروايات وليس حسب النص القرآني، فخرجت ناقة من هذه الصخرة وكانت هي معجزة وفتنة لقوم صالح، اقرأ لكم هذه الآيات حتى تروا هذه الناقة وما كان اعجازها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ * وَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾^(١)

القصة هكذا تقول: إن الله تبارك وتعالى أعطاهم هذه المعجزة لكن لم يؤمنوا بل بقوا على كفرهم، هذا النبي أنبأهم بعذاب من عند الله تعالى.

أما ما هو الإعجاز في الناقة؟ القرآن لا يذكره، هناك مجموعة تفاسير وروايات في إعجاز هذه الناقة.

التفسير الأول: إنها ناقة خرجت من عمق الصخرة.^(٢)

التفسير الثاني: أن هذه الناقة كانت عجبية تشرب الماء الذي عندهم في القرية كله وحدها في يوم وفي اليوم الثاني يبقى الماء للناس والحيوانات الباقية ﴿فَارْتَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ * وَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ في اليوم الذي هو للناقة لا يجوز الناس أن يأخذوا من الماء لأن هذه الناقة كما تقول الروايات تأتي وتشرب الماء كله وهذه معجزة.^(٣)

التفسير الثالث: أن هذه الناقة بعد ما تشرب الماء تعطيهم من الحليب ما يكفي كل المدينة، وهذه رحمة ومعجزة.^(٤)

التفسير الرابع: عندما يكون يوم الناقة تمتنع جميع الحيوانات عن شرب الماء وهذه معجزة أيضاً. القرآن الكريم يذكر إجمال القضية أما التفاصيل فلا يذكرها ﴿إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ﴾ فهي معجزة أولاً وفتنة ثانياً لكن هؤلاء لم يرضوا أن تشرب الناقة يوماً وهم يشربون في اليوم الثاني.

(١) القمر: ٢٧ - ٣١.

(٢) الكافي ٨: ١٨٧ / ٢١٤.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

إلا ان مجموعة منهم اتفقوا وهم تسعة على رجلٍ سيَّاف أن يقتل الناقة ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾^(١) أي قَتَلَ الناقة، وقد كان نبيهم أخبرهم أن هذه الناقة إذا قُتِلَتْ ينزل عليكم عذاباً من السماء، فلما قتلوها بدأت معالم العذاب وهو ﴿وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(٢) ثلاثة أيام في اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة وفي اليوم الثاني تكون محمرة وفي اليوم الثالث تكون مسودة، أي ثلاث عواصف رملية شديدة يُقتلون بها جميعاً.^(٣)

القرآن يقول: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾^(٤) في اليوم الثالث ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾^(٥) أصبحوا عظاماً بالية. هذه الناقة في الحقيقة هي فتنة لكن هي فتنة إلهية ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ﴾^(٦). هذه قصة ناقة صالح.

الموقف من الفتنة:

السؤال ما هو الموقف من الفتنة؟

توجد ثلاثة مواقف من الفتنة، اثنان من المواقف خطأ وواحد منهما صحيح. الموقف الأول: الهروب من الامتحان والنتيجة أن ترسب في الامتحان، وهذا نسيمه موقف الهروب والاعتزال من امتحانات الدنيا، كما يقول بعض الناس في معركة الحق والباطل إن هذه قضايا سياسية وهي ابتلاء وامتحان وأنا

(١) القمر: ٢٩.

(٢) هود: ٦٥.

(٣) الكافي ٨: ١٨٨ ضمن ح ٢١٤.

(٤) القمر: ٢٠ و ٢١.

(٥) القمر: ٣١.

(٦) القمر: ٢٧.

لا أتدخل فيها، اعتزال المجتمع، واعتزال العمل السياسي، هذا نسميه مذهب الاعتزال والرهبانية والتصوف والصوفية، هذا الاتجاه غير صحيح.

الموقف الثاني: الدخول في الامتحان، لكن الدخول والحضور الغافل اللاواعي، أي يذهب إلى الامتحان لكن لا يستعد له. يعني الساحة محتدمة بالمواقف السياسية والمواجهات الثقافية، وأنت تقول آخذ النتيجة، تحضر لكن حضور غافل لا يكون لك دور حقيقي وجد واجتهاد، هذا الموقف يشير إليه القرآن الكريم بالقول: ﴿ذَرُهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾^(١) فهو فقط يأكل هذا نسميه الحضور الترفيهي والحضور الغافل وليس حضوراً واعياً وهذا أيضاً خطأ في الموقف.

الموقف الثالث: الحضور الواعي وباستعداد، وهو الموقف الصحيح. ولهذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لَوْ لَّا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بَوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارَوْا عَلَى كَلِمَةٍ ظَالِمٍ وَلَّا سَغَبٍ مَظْلُومٍ لَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا». الإمام يقول لولا أنها مسؤوليتي كنت أجلس في البيت، لكن أنا مسؤول مثل ما أنتم مسؤولون.

الدروع الأربعة:

إذن المطلوب في الفتنة الاجتماعية والسياسية هو الحضور الواعي المستعد. هذا الحضور الواعي باستعداد لا بد أن تدرع له بأربعة دروع.

الدرع الأول: التقوى والإخلاص، أي تدخل المعركة أنت متمسك بحبل الله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾^(٢) فإذا هجم عليك الشيطان فأنت عندك سلاح.

الدرع الثاني: العلم، أي أنت تدخل هذه الغابة لا بد أن تأخذ معك خارطة

(١) الحرج: ٣.

(٢) الطلاق: ٢.

طريق حتى تتخلص من متاهات الغابة، مثلاً اللعبة الرياضية لها قواعد ولا يصح أن يذهب أحد إلى اللعبة ولا يعرف القواعد، كذلك الدخول في المعركة السياسية والاجتماعية والثقافية، القرآن الكريم يقول: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾^(١) ﴿أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^(٢) الدرع الثالث: الصبر، القرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^(٣) الله تعالى يفتش الناس ليعرف مدى صبرهم على البلاء.

الدرع الرابع: إتباع القيادة الشرعية، فمن الممكن أن يكون عندك علم وصبر، وممكن عندك تقوى، لكن إذا كان لا يوجد لديك قيادة شرعية تدلك على الطريق، فسوف لا ينفعك الصبر والتقوى والعلم.

لا بد من القيادة الشرعية في هذه الغابة، غابة المعارك السياسية والثقافية. الإمام علي عليه السلام يقول: «أبها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة»^(٤) أي لا تهربوا من الفتن وشقوا أمواجها لكن من خلال سفينة نجاة أي القيادة الشرعية. هذه دروع أربعة لا بد منها حتى ننجح في مواجهة الفتنة.

أهل البيت والفتنة:

الزيارة تقول: «وآمنكم من الفتن» أهل البيت والأنبياء آمنهم الله من الفتن أي من الفتن الشيطانية، أما الفتن الإلهية فأهل البيت مشمولون بها ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٥) والسؤال هو كيف آمن الله تعالى أهل البيت من الفتن؟ هل هو بعملية جراحية؟

(١) آل عمران: ٧.

(٢) السابق.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) نهج البلاغة: خ ٥.

(٥) التغابن: ١٥.

رواية شق الصدر:

توجد رواية تسمى برواية شق الصدر، وحاصلها أن رسول الله حينما كان طفلاً نزل ملكان من السماء وشقوا صدره وأخرجوا قلبه وأزالا من قلبه نقطة سوداء، هكذا تقول الرواية. أي أن رسول الله طهره الله بعملية جراحية، هل هذا في الحقيقة صحيح؟

الجواب: لا، هو غير صحيح، وعلمائنا ناقشوا ذلك، أن الأنبياء وأهل البيت الله تعالى آمنهم الله من الفتن عبر الجِد والإخلاص والتقوى وليس عبر عملية جراحية. قال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١) هذا هو معنى «وآمنكم من الفتن».

سفينة النجاة:

رسول الله ﷺ يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح» وهذا حديث متفق عليه عند الشيعة والسنة «من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى». في مثل هذا اليوم كانت شهادة الزهراء عليها السلام.

ومجمعي حطبٍ على البيتِ الذي	لم يجتمع لولاه شملُ الدين
والقائدين أمامهم بنجاده	والطَّهر تدعو خلفهم برنين
خَلُّوا ابنَ عمي أو لأُكشِف للدها	رأسِي وأشكو لله شجوني
ورَتَّت إلى القبر الشريف بعوكةٍ	عُظْمِي وَقَلْبٍ مُكَمَدٍ محزونٍ
أبتاه هذا السامري وعِجْلُهُ	تُبعا ومالَ الناسُ عن هارون

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة السابعة والعشرون:

الميثاق الإلهي

نماذج وتطبيقات

«فعظمت جلاله، وأكبرتم شأنه، ومجدتم
كرمه، وأدمتم ذكره، ووكدتم ميثاقه،
وأحكمتم عقد طاعته».

حدثنا هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «وَوَكَّدْتُمْ مِيثَاقَهُ» الميثاق الإلهي والعهد الإلهي بين الله والإنسان.

الميثاق في اللغة: بمعنى العهد الموثق المُحكَّم والمُدوَّن.

حدثنا عن الميثاق وأهميته في الإسلام، ما هو الميثاق بين الله والإنسان؟ ثم ما هو الحكم في الميثاق بين العباد وأنفسهم؟

المواثيق بين الله والإنسان:

القرآن الكريم يطرح مجموعة مواثيق بين الله والإنسان.

سوف أحدثكم في البداية عن نمط العلاقة بين الله والإنسان حيث أنها تعتمد على عدة أركان.

أولها: الاحترام المتبادل بين الله والإنسان، الله تعالى يحترم الإنسان فعلى الإنسان أن يحترم الله تعالى.

والركن الثاني هو المحبة المتبادلة.

والركن الثالث هو القانون.

يوجد مجموعة مواثيق، القرآن الكريم يشير لها:

الميثاق الأول: الميثاق العام بين الله وبين كل البشر، مؤمن وغير مؤمن، في قديم الزمان أو في هذا الزمان، كان هذا الميثاق قبل أن يُخلق البشر على هذه الدنيا، كان في عالم ما قبل من الدنيا يسمى (عالم الميثاق) في ذلك العالم قام الله تعالى بعرض أولي للبشر وأخذ عليهم الميثاق.

القرآن الكريم يشرح ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ^(١). هذا يسمى بالاصطلاح الديني عالم الميثاق، عالم الذر، في ذلك العالم أخذ الله تعالى عهداً وميثاقاً على البشر سجّله الملائكة.
ما هو هذا الميثاق؟

تشهدون أنا ربكم وأنتم العباد قالوا بلى شهدنا جميعاً. كل الخلائق، يومئذٍ لا يوجد كافر كما هو في يوم القيامة فالخلائق كلها تؤمن بالله. هذا الميثاق عن التوحيد والربوبية هو إشارة إلى وجود نزعة الارتباط بالله هذه النزعة لا تفارق البشر جميعاً، المؤمن والكافر كلهم لديهم نزعة الارتباط بشيء أكبر منهم هو المطلق، لكن القرآن الكريم يقول رغم أن هذه النزعة موجودة في فطرة البشر، لكن ﴿بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) هذه النزعة تغلّت واتسخت بتراب المعاصي. هذا هو الميثاق الأول.

الميثاق الثاني: الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء وهم مائة وأربع وعشرون ألف نبياً أخذ الله عليهم عهداً خاصاً.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾^(٣) هذا عهد أخذه الله على الأنبياء باتجاه الإيمان بخاتم الأنبياء ونصرته، ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾^(٤) قال فاشهدوا أيها الأنبياء يا آدم ويا نوح ويا إبراهيم ويا موسى ويا أيها الأنبياء ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٥) العهد بين الله تعالى والأنبياء مضمونه نصره نبياً ﷺ والإيمان به.

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) آل عمران: ٨١.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

قد يقول قائل كيف يحصل هذا؟ وما معنى أن أنبياء مبعوثين قبل آلاف السنين يجب عليهم أن ينصروا نبياً سوف يأتي بعد آلاف السنين؟ يعني يجب على آدم ونوح وإبراهيم أن ينصروا نبينا وهم متقدمون عليهم بآلاف السنين، من الممكن أن يؤمنوا به لا بأس لكن كيف ينصرونه؟ هناك عدة تفاسير:

التفسير الأول: أن نقول ينصرونه أي يبلغون أمهم ويدنون ذلك في وصاياهم جيلاً بعد جيل.

التفسير الثاني: يقول إن الأنبياء سيعودون إلى عالم الدنيا قبل الآخرة وهناك في عودتهم يلتحقون بركب الإسلام وينصرون الإسلام يومئذ سيرجع الأنبياء ولذا فإن بعض العلماء يرى أن هذه الآية من الآيات التي تدل على عالم الرجعة، ونحن الآن لسنا بهذا الصدد بل ذكرناها لمعرفة الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء.

الميثاق الثالث: أخذه الله تعالى على الأنبياء بما فيهم نبينا ﷺ، القرآن الكريم يشير إلى هذا الميثاق الثالث بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١).

هذا الميثاق الثالث لا يشرح القرآن مضمونه لكن الآية التي بعدها تقول: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾^(٢) كأن هذا الميثاق الثالث هو أخذ العهد عليهم بإبلاغ الرسالات، بدين الله، وحينئذ حينما يبلغون الناس فإن الله تعالى يوم القيامة حينما يجمع الناس يسأل الصادقين والأنبياء والمرسلين أن رسالتكم هل بلغتوها للناس؟

الميثاق الرابع: أخذه الله تعالى على علماء الدين بالخصوص، الذين هم

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) الأحزاب: ٨.

في مرتبة الوساطة بين الأنبياء وبين الناس، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(١) فالعلماء يحملون كتاب الله تعالى ﴿لِّيَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُمُومَةٌ﴾^(٢) وهذا عهد أخذَه الله تعالى على العلماء.

الميثاق الخامس: أخذَه الله تعالى على بني إسرائيل خاصة كما يشير إليه القرآن الكريم. بنو إسرائيل هم الأمة الرسالية قبل نبينا ﷺ لكنهم فشلوا في الامتحان، ثم جاءت أمة نبينا ﷺ فهل ننجح في الامتحان أو نفشل؟ التاريخ والسنة تقول إننا ننجح في الامتحان وبالأخص هذه الأمة التي ارتبطت بأهل البيت عليه السلام.

التجربة الفاشلة لبني إسرائيل:

الله تعالى يذكر لنا قصصاً من تجربة بني إسرائيل الفاشلة، وأحدها أن الله تعالى نتيجة دجل ونفاق بني إسرائيل رفع فوقهم الطور، الطور يعني الجبل، الآية القرآنية تقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾^(٣) هنا يوجد تفسير لقوله: ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ فكيف يمكن أن تتصور ارتفاع الجبل على رؤوسهم؟

التفسير الأول: يبقى على ظاهر الآية القرآنية، الجبل انبسط عليهم بدل أن يكون واقفاً عمودياً أصبح ممتداً عليهم أفقياً وأصبح مثل السحابة كأنه ظلة ﴿وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾^(٤) وهذا الجبل يكاد يسقط عليهم لأنه بلا أعمدة ومفصول عن الأرض.

(١) آل عمران: ١٨٧.

(٢) السابق.

(٣) البقرة: ٦٣.

(٤) الأعراف: ١٧١.

في بعض الروايات جبرائيل عليه السلام فلع جبل فلسطين، لأن هذا الحديث كان في فلسطين وبسطه على رؤوسهم كأنه ظلة.^(١)

التفسير الثاني: يقول أنهم كانوا واقفين عند قاعدة الجبل وهذا الجبل مال عليهم، حتى يكاد أن يقع وهم ينظرون ويرون الجبل سوف يسقط عليهم ﴿وَإِذْ تَقُنَّا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

وعلى كل حال ومهما يكن واقع القضية فإن الله قال لني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أمسكوا بالكتاب والتزموا الدين، ولا تنهاروا أمام صعوبات ومشاكل اجتماعية أو سياسية.

بنو إسرائيل سألوا الله تعالى أسئلة عجيبة، مرة سألوا الله تعالى أن ينزل عليهم المن والسلوى، يعني يريدون أن تمطر السماء عسلاً والسلوى هي الطيور نزل عليهم المن والسلوى، بعد فترة قالوا يا نبي الله نحن مللنا من هذا الطعام، نريد باقلاء وعدس ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾،^(٢) هذه هي أسئلة بني إسرائيل، الله تبارك وتعالى أراهم هذه المعجزة وجعل الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم، وأخذ عليهم الميثاق أن لا يترددوا ولا يرتابوا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.^(٣)

الميثاق السادس: هو الميثاق الذي أخذه الله من صحابة النبي ﷺ.

هذا الميثاق الذي في بيعة الشجرة، التي جرت بين رسول الله والمسلمين، هم كانوا بايعوا الرسول من قبل لكن أخذ عليهم البيعة مرة

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٧/٢٣٨.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) البقرة: ٦٣.

أخرى، سُمِّيت بيعة الشجرة وذلك في صلح الحديبية حين زحف النبي بالمسلمين وعددهم اثنا عشر ألف زحف بهم إلى مكّة لأجل الحج وليس لأجل الحرب.

القصة تقول: أن قريش لم توافق على دخولهم مكة وبعد ذلك عقدوا صلحاً بينهم، هنا جدّد رسول الله أخذ البيعة من المسلمين، لأن المعركة مع قريش كانت معركة جهادية أمّا اليوم فقد تحولت إلى معركة سياسية، وربما ينجح بعض الناس في المعركة الجهادية، لكن الآن أصبحت معركة سياسية هل تباعون على المعركة السياسية؟ الآن عندي صلح مع قريش وسوف أقوم بمقاومة سياسية إلى أن نسقطهم إذا كنتم مستعدين تعالوا وجددوا البيعة، هؤلاء المسلمين كلهم كانوا بايعوا من قبل لكن الآن يوجد تحوّل في المرحلة، توجد معركة من نمط جديد وبعض الناس قد يعاند ولا يقبل.

مثل ذلك الرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ عندما قال رسول الله فلنصالح قريشاً، جاء ذلك الرجل وقال: يا رسول الله أنعطي الدنّية من ديننا؟ أنا غير مستعد! يعني أنا لا أقبل المعركة السياسية، الرسول ﷺ أخذ منهم البيعة لأنه يوجد ههنا تحوّل مهم يحتاج إلى تجديد البيعة، هنا يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْنَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١) جاء المسلمون وبايعوا.

تفسير رضى الله عن الصحابة:

بعد البيعة نزلت آية ثانية أصبحت محل الجدل إلى اليوم بين الفكر الشيعي والسني وهي قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

الشَّجَرَةَ^(١) حيث يرى أهل السنّة أن القرآن الكريم صريح هنا في رضى الله عن جميع الصحابة الذين بايعوا النبي يومئذ، إذن لا تستطيع أن تقول إن فلاناً وفلاناً عليهم مؤاخذات وإن الله تعالى غير راض عنهم هذا هو القرآن يقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

هنا يأتي علماؤنا ويقولون إن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، سألوأ أحداً من العلماء قالوا له: لقد رضى الله عن المؤمنين ما تقول؟ قال له: هذه الآية القرآنية تفسرها الآية التي قبلها التي تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٢) يعني الذي ينكث يكون قد خرج من هذه الدائرة، إذن هذه الآية ليست مطلقة بل القرآن الكريم يشير فيقول إن قسماً ينكثون وآخرون لا ينكثون، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَنُؤِثِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

القرآن الكريم يصنّف هؤلاء الناس الذين بايعوا إلى صنفين – على سبيل الفرضية – الصنف الأول الذين ينكثون، والصنف الثاني الذين يلتزمون بالبيعة.

القرآن الكريم هو نفسه يقول: ﴿مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٤).
الله تعالى قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

وعلى كل حال هذه هي قصة الميثاق السادس.

الميثاق والعهد بين الله والإنسان يدلل على نمط علاقة رائعة بين الله

(١) الفتح: ١٨.

(٢) التفتح: ١٠.

(٣) السابق.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

(٥) الفتح: ١٨.

والإنسان، القرآن يصوّر هذه العلاقة أنها علاقة محبة ورحمة وودّ وصداقة وتكريم ودفاع وليس علاقة عدااء وشروط وتعالى وفروض وظلم وكبرياء.
القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.
اقرأ لكم أسس العلاقة بين الإنسان والله في الفلسفة الدينية الإسلامية.

أسس العلاقة بين الله والإنسان:

من وجهة نظر الإسلام فإن العلاقة بين الله والإنسان تقوم على ثلاثة أسس:

الأساس الأول: المحبة واللطف:

القرآن يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.^(١)
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

يعني إذا كنت لا تريد أن تتوب فإن الله تعالى يريد أن يتوب عليك.
وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾،^(٢) ولهذا فإن أحد أسماء الله تعالى هو (الحبيب)، «يا حبيب قلوب الصادقين» كم هي لغة جميلة وكم هو أدب جميل، وأسماء إلهية جميلة، لله الأسماء الحسنی، لا يوجد من أسماء الله أنه عدو أو خشن أو ظالم، بل من أسماء الله حنان، منان، رؤوف، رحيم، لطيف هذه هي أسماء الله تعالى، هذه هي العلاقة بين الله والإنسان في التصوير الديني الصحيح.

الأساس الثاني: القانون:

ربما يتصور بعض أن الله تعالى يتصرف بدون أسس لأن القرآن يقول: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) لكن القرآن يقول هذا كله وفق قوانين،

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) النساء: ٢٨.

(٣) المدثر: ٢١.

الله تعالى يقول صحيح أنا أهدي من أشاء وأعذب من أشاء وأرحم من أشاء لكن كل ذلك وفق قانون الاستحقاقات.

القرآن يقول: ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ هذا قانون التناسب مع واقع الإنسان في الدنيا وهذا هو القانون الأول.

ويقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١) وهذا هو قانون المجازاة بالمثل إذن يوجد هناك قانون، لا يصح أن تزرع شوكة وتحصد عنباً وهذا هو القانون الثاني.

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّا نَشْكُرْ لِنَفْسِهِ﴾^(٢) هذا قانون ثالث. وهكذا ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٣) وهذا قانون رابع. وهكذا في آية أخرى تقول: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾^(٤) أي التزموا بما عليكم ألتزم بما عليّ، هذه هي مجموعة قوانين يذكرها القرآن لطبيعة العلاقة بين الله والإنسان.

الأساس الثالث: الاحترام:

يعني أن أساس العلاقة بين الله وبيننا هو الاحترام فنحن عبيد لله، لكن الله تعالى يقول لكم عندي احترام، فأنتم لستم تراباً ولا حيوانات ولا كميات مهملة، أنتم بنو آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٥) الله يعاملنا على أساس الاحترام، يقول: يا عبادي ﴿الْمَ أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٦) ثم يأتي

(١) الزلزلة: ٧ و ٨

(٢) النمل: ٤٠

(٣) البقرة: ١٥٢

(٤) البقرة: ٤٠

(٥) الإسراء: ٧٠

(٦) يس: ٦٠

للسيطان ويقول له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾^(١) يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾،^(٢) و﴿يَا عِبَادِي﴾ و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾^(٣) ولم يقل يا عبيد ويا أهل المعاصي، وحتى عندما ينحرف الإنسان أنظر كيف يتعامل معه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٤) وفي آية أخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥) الله تعالى سميع بصير ويقول أيها الإنسان جعلتك سميعاً بصيراً فهذا تكريم عظيم.

هذه هي أسس العلاقة بين الله والإنسان.

موائيق متقابلة:

في الحقيقة هناك موائيق متقابلة بين الله وبين الإنسان وهناك نماذج من تلك الموائيق المتقابلة:

الأول: واحد في مقابل واحد.

الثاني: ثلاثة موائيق يقابلها ثلاثة موائيق.

الثالث: أربعة في مقابل واحد، أي أن الله تعالى يريد منا شيئاً واحداً ويعطينا في مقابله أربعة.

هذا الأمر نستعرضه كقراءة قرآنية سريعة.

النموذج الأول:

القرآن الكريم يشرح لنا النموذج الأول وهو واحد في مقابل واحد في

(١) الحجر: ٤٢.

(٢) الانفطار: ٦.

(٣) يس: ٦٠.

(٤) الانفطار: ٦ - ٨.

(٥) الإنسان: ٢.

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(١) هذا ميثاق متبادل، ومثال ثاني: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾^(٢) ومثال ثالث: ﴿إِنْ تَشْكُرُوا اللَّهُ يُضَاعِفْ لَكُمْ فَضْلَهُ﴾^(٣) ومثال رابع: ﴿لَنْ يَرْضَى اللَّهُ بِكُمْ حَتَّى تَتُوبَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(٤)

النموذج الثاني:

أما نموذج ثلاثة في مقابل ثلاثة.

فإن الله تعالى يحدده في آية واحدة يقول فيها أعطوني ثلاثة أشياء أعطكم ثلاثة أشياء، لكن يبقى الفارق النوعي بين الأشياء التي نعطيها والأشياء التي يعطيها الله تعالى.

القرآن الكريم يقول: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَنْ أَقْسِمُ الصَّلَاةَ وَأَتِيَمُ الزَّكَاةَ وَأَمِّنُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٥) هذه ثلاثة في مقابل ثلاثة:

أولاً: ﴿لَنْ أَقْسِمُ الصَّلَاةَ﴾.

ثانياً: ﴿وَأَتِيَمُ الزَّكَاةَ﴾.

ثالثاً: ﴿وَأَمِّنُمْ بِرُسُلِي﴾.

صلاة وزكاة وإيمان، البقية هي ملحقات وتفاصيل لما قبلها، في الحقيقة هذه

ثلاثة أمور إذا أعطيتوها لله تعالى فإن الله تعالى في المقابل يعطيكم ثلاثة أشياء:

أولاً: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

ثانياً: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) البقرة: ٤٠.

(٣) محمد: ٧.

(٤) إبراهيم: ٧.

(٥) المائدة: ١٢.

ثالثاً: ﴿وَلَا دُخْلَنتَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

النموذج الثالث: أربعة في مقابل واحد يعني نحن نعطي لله شيئاً واحداً ويعطينا أربعة في مقابلها ﴿قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾^(١) هذه أربعة في مقابل واحد، وهو الاستغفار يقابله المغفرة، ورزق السماء والأموال والبنين، وثواب الآخرة. هذه نماذج للمواثيق المتقابلة بين الله تعالى والإنسان.

حكم العهد:

السؤال: ما هو حكم الميثاق؟

الميثاق كما شرحناه هو العهد الموثق.

ما حكم العهد في الإسلام؟

يوجد في الفقه الإسلامي ثلاثة أشياء:

اليمين والنذر والعهد، وفي رسائل العلماء الفقهية تجدون كتاب اليمين وكتاب النذر وكتاب العهد. هذه الأمور متشابهة وهي كلها مواثيق لكن يوجد ميثاق أقوى من ميثاق ولهذا فإن أحكامها تختلف.

الميثاق الأدنى هو اليمين والقسم تقول: والله سأحضر المحاضرة، والله سأعطي كذا وحكمه انه يجب الوفاء به وإذا لم تؤده تجب عليك الكفارة.

والكفارة هي أن تصوم ثلاثة أيام أو تتصدق على عشرة مساكين ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعُمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾^(٢).

نتنقل إلى مرحلة أعلى هي مرحلة النذر مثلاً نقول لله عليّ، أو نذر عليّ

(١) نوح: ١٠ - ١٤.

(٢) المائدة: ٨٩.

أن أصوم أول يوم من شعبان، هذا النذر حكمه انه يجب الوفاء به، أما إذا تخلفت عنه ونكثت فحكمه _ حسب رأي بعض الفقهاء _^(١) أشد من اليمين من الناحية الشرعية، حكمه كفارة إفطار شهر رمضان وهي أما عتق رقبة وفي زماننا لا يوجد عبيد أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكين.

الميثاق الثالث هو العهد تقول: عهد الله علي، أو عاهدت الله أن أفعل كذا وكذا أو عاهدت الله أن لا أكذب، هذا العهد يجب الوفاء به أيضاً ولا يجوز مخالفته والنكث به وإذا خالفته فإن الكفارة هي كفارة إفطار شهر رمضان أي إما صوم شهرين متتابعين أو عتق رقبة أو إطعام ستين مسكين هذا هو حكم العهد فيما بين الإنسان وبين الله تعالى.

العهد بين الناس:

العهد بين الناس كما إذا عاهدت صديقاً لك فهناك حالتان فقط يجب فيهما الوفاء بالعهد:

الحالة الأولى: إذا دخل العهد في صياغة أدبية معينة بحيث أصبح مربوطاً بالله تعالى تقول عاهدت الله، وعهد الله عليّ أن أعطيك كذا وكذا، هذه صياغة أدبية، وإذا دخل العهد في هذه الصياغة الأدبية فيلزم الوفاء به لأنه صار عهداً مع الله.

الحالة الثانية: إذا جاء شرطاً في ضمن عقد لازم شرعاً، مثلاً عندك معاملة بيع وشراء، تقول بعثك هذه الدار بشرط أن تقرأ لوالدي زيارة عاشوراء، هذا الشرط جاء في ضمن عقد البيع والشراء، وعقد البيع والشراء هو عقد لازم شرعاً يجب الوفاء به إذن يجب الوفاء بشرطه.

في هاتين الحالتين يكون الوفاء بالعهد لازماً أما ما عدا هاتين الحالتين يكون الوفاء بالعهد مستحباً.

القرآن الكريم يؤكد هذه القضية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾
لكن ليس على سبيل الوجوب وإنما هو خلق مؤكد.

آثار نقض العهد:

القرآن يقول إن مخالفة الوعود والعهود لها آثار وضعية على قلب الإنسان فيكون قلبه قاسياً ويكون ملعوناً ومطروداً من رحمة الله تبارك وتعالى.
القرآن الكريم يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضُ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(١)
يعني هذان أثران وضعيان الأثر الأول هو اللعنة الإلهية والأثر الثاني هو قساوة القلب.

يتضح من ذلك أن قساوة القلب ورحمة القلب تتأثر بأمور خارجية حيث توجد مجموعة أعمال تجعل القلب قاسياً وأعمال أخرى تجعله رحيماً ونحن نبحث عن القلب العطوف الرحيم البكاء من خشية الله فكيف نصل إلى هذا القلب؟

عوامل قساوة القلب:

أذكر لكم رواية عن رسول الله ﷺ يرويها علماؤنا في كتب الحديث يقول ﷺ: «يا علي خمسة يُقَسِّين القلب: الذنب على الذنب، والأكل على الشبع، وظلم الناس، وتأخير الصلاة، والأكل والشرب بالشمال، يا علي وخمسة تذهب بالقساوة: مجالسة العلماء، ومسح رأس اليتيم، وكثرة الاستغفار بالأسحار، والسهر بالليل، والصوم».

هذه أمور خمسة تذهب قساوة القلب من جملتها مجالسة العلماء حيث لها فضل عظيم ان نفس مجلس العلماء فيه بركة ومجلس الموعظة والذكر فيه عطاء على قلب الإنسان ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول في وصيته

للإمام الحسن عليه السلام: «أي بُني أحيي قلبك بالموعظة وأمته بالزهد وقوه باليقين وذلك بالموت وقرره بالفناء وبصره بفجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر»^(١).

القرآن الكريم يقول أحياناً يكون قلب ابن آدم كالحجارة أو أشد قسوة، أنظر هذه الآيات من سورة البقرة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٢).

الآية تشير إلى ثلاث نماذج لكون الحجارة ألين من قلب ابن آدم القاسي ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى عيون الماء. هذا نموذج أول ونموذج ثاني ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ إشارة إلى الآبار ونموذج ثالث ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وهي عملية الانهيارات الجليّة والزلازل والقرآن يعتبر ذلك سقوطاً من خشية الله وخضوعاً تكوينياً لأمر الله تعالى، القرآن يقول إن قلب ابن آدم حينما يكون قاسياً يكون أشد قسوة من الحجارة.

على طول التاريخ كانت قساوة القلب موجودة لدى الإنسان الظالم البعيد عن الله تعالى ذلك ما صنعه جيش ابن سعد يوم عاشوراء بالإمام الحسين وأصحابه، هذه قساوة قلب أن يقول ابن سعد: يا خيل الله اركبي ودوسي صدر الحسين ما هذا؟ هذه قساوة قلب.

حرمان الإمام الحسين من الماء أيضاً قساوة قلب، وكذلك الطفل الرضيع وحرمانه من الماء.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) نهج البلاغة ٣: ٣٨ / ٣١، ويصحح المتن: «أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلك بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره بفجائع الدنيا وحذره صولة الدهر».

(٢) البقرة: ٧٤.

المحاضرة الثامنة والعشرون:

منهج أهل البيت عليهم السلام

في التبليغ الإسلامي

«ونصحتهم له في السر والعلانية ودعوتهم إلى
سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة».

حدثنا الليلة حول هذا المقطع من الزيارة «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة» هذا المقطع إشارة إلى آية قرآنية تقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١) ولدينا حول هذا المحور بحثان:

البحث الأول: ما هو سبيل الله؟

البحث الثاني: ما هي أساليب ومناهج الدعوة إلى الله؟

سبيل الله:

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ السبيل بمعنى الطريق.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾^(٢)

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣)

﴿وَأَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤)

إن مجموع الاستعمالات القرآنية لكلمة سبيل هي بمعنى الطريق حتى حينما يقول: ﴿وَكُنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٥) هنا السبيل بمعنى اليد والسيطرة أي ليس لديهم طريق يسيطرون به على المؤمنين.

ولهذا حينما يقال إن أحد موارد صرف الزكاة هو ابن السبيل فهو يعني ذاك الذي انقطع به الطريق مثلاً هو رجل غني لكنه فقد ماله في الطريق فأصبح ابن سبيل. إذن سبيل الله يعني الطريق إلى الله تبارك وتعالى.

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) البقرة: ٢١٨.

(٤) البقرة: ١٩٥.

(٥) النساء: ١٤١.

أركان الدعوة إلى الله:

والحقيقة أن الدعوة إلى الله كما جاء في الأمر القرآني يجب أن تعتمد على ركنين.

الركن الأول: الحكمة.

الركن الثاني: الموعظة.

ما الفرق بين الحكمة والموعظة؟

الحكمة بمعنى البرهان العلمي.

والموعظة بمعنى الأسلوب الأدبي الصحيح المناسب، فالدعوة إلى الله يجب أن تكون أولاً: قائمة على أساس البرهان والدليل العلمي وليس على أساس خرافات وأساطير وهذا هو معنى الحكمة.

وثانياً: عبر أسلوب رقيق، أسلوب يدخل القلوب، وليس مجرد تقديم أبحاث علمية فإن الناس يحتاجون إلى بحث علمي لكن بثوب مبسّط ومقبول وأخلاق جميلة وهذا هو المعنى بالموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١).

ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»^(٢) بالأسلوب الذي يتحملونه، والمستوى الذي يفهمون، هذا هو تكليف الأنبياء وحينئذ فإن الزيارة هكذا تقول: «ودعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة» هذه الدعوة إلى الله تعالى هي واجب من واجبات الأمة الإسلامية.

في الحقيقة فإن القرآن الكريم هكذا يقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) الكافي ١: ٢٣.

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(١) يعني الدعوة إلى الله ليس فقط هي عمل الأنبياء وليس فقط عمل الأئمة وباقي الناس يتفرجون، بل هذه هي مسؤولية الأمة الإسلامية أن يبلغوا رسالات الله وأن يدعوا إلى الله تعالى.

وجوب التبليغ والدعوة:

يوجد بحث في هذه الآية لا بد أن نطويه طياً سريعاً، وهو الإشارة إلى وجوب التبليغ والدعوة إلى الله، ولكن السؤال ان هذا الوجوب هل هو كفائي أو وجوب عيني؟

طبعاً في الفقه تعرفون ما هو الفرق بين الوجوب الكفائي والوجوب العيني، مثلاً إذا دخل شخص مجلساً وبه عدد كبير من الجالسين وقال: السلام عليكم، فهل يجب على جميع الموجودين في المجلس أن يردوا عليه السلام؟ كلا، إذا أجاب شخص واحد وقال: عليك السلام، فإن هذا كافي.

هذا يسمى وجوباً كفائياً وهو الذي إذا قام به شخص سقط عن البقية، أما الوجوب العيني مثل وجوب الصلاة فإنه لا يسقط عن الباقيين إذا قام به شخص واحد. هنا في هذه الآية يوجد بحث في أن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هل ان الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل فرد وجوباً عينياً أي ان كلهم يجب أن يكونوا علماء ومرشدين؟

الجواب: كلا بل ان الآية إشارة إلى وجوب كفائي، يعني ان مجموعة أفراد من أبناء الأمة الإسلامية يجب أن تخصص في الدعوة إلى الله بحيث لا يبقى إنسان في قرية أو مدينة يقول يوم القيامة: إلهي أنا لم أسمع أحداً يرشدني ويبلغني، المفروض ان صوت الإسلام يصل إلى كل مدينة وكل قرية.

فإذا قام به عدد من الأشخاص سقط عن الباقي. هذا هو معنى الوجوب الكفائي.

مناهج التبليغ:

الآن نتقل إلى البحث الثاني (مناهج التوعية والتثقيف والإبلاغ والدعوة)، ما هي؟
هناك منهجان:

المنهج الأول: هو منهج الفرض القسري على الناس يعني يجب عليك أن تصبح مؤمناً وإلا سوف تعاقب وتحاسب.

المنهج الثاني: هو منهج الإقناع العلمي، أي إقناع الناس أن هذا حق الإسلام يؤمن بمنهج الإقناع العلمي وليس منهج الفرض القسري.
منهج الفرض القسري هو منهج الأمم السابقة مع الأنبياء والمؤمنين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(١).

قصة عبد الله بن أبي:

هذا الأمر يذكرنا بقصة يذكرها القرآن الكريم بصورة مفصلة ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ * يَقُولُونَ لِنُزِجْنَاهُ إِلَى الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ^(٢) هذه الآية نزلت في قصة: أن رسول الله ﷺ خرج في معركة بني المصطلق حينما انتهت المعركة حصلت مشادة بين بعض المهاجرين اللذين جاءوا إلى المدينة من مكة المكرمة وبعض أبناء المدينة وهم الأنصار، فكان

(١) إبراهيم: ١٣.

(٢) المنافقون: ٧ و٨.

بينهم مشادة أحدهم ضرب الآخر، وكل منهم استغاث بجماعته الأنصاري استغاث بالأنصار والمهاجر استغاث بالمهاجرين فأوشكت أن تكون معركة، ولكن رسول الله أطفأ نار المعركة، إلا أن الخبر وصل إلى زعيم من زعماء المدينة المنورة الذي دخل الإسلام نفاقاً واسمه عبد الله ابن أبي هذا الزعيم يومئذٍ عندما دخل الناس في الإسلام دخل هو أيضاً ولكن في قلبه مرض، ولما سمع أن مشادة حصلت بين واحد من أبناء المدينة وهم الأنصار وآخر من أبناء مكة وهم المهاجرون قال لجماعته وأصحابه: يا أهل المدينة أرايتم ما صنعتُم بأنفسكم، سلطتم عليكم أهل مكة وأصبحوا يضربونكم، وأصبحتم أذلاء. ثم قال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(١) هذه الكلمة سمعها زيد بن الأرقم، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله هذا عبد الله بن أبي قال: إذا رجعنا إلى المدينة سوف نخرجكم، فقال له رسول الله ﷺ: هل أنت متأكد من قوله أم لعله كان قد غضب عليك ولم يكن يقصد ما يقول؟ فأكد له زيد ابن أرقم أن الكلمة كانت مقصودة. فدعا رسول الله ﷺ براحلته وركبها وأذن بالانصراف ثم قال: سوف لن نرجع إلى المدينة ونذهب إلى مكة المكرمة، ثم أمضى النبي ﷺ يوماً وليلة وهو لا يعود إلى المدينة فأقبل إليه المسلمون وقالوا له أين تذهب، قال النبي لهم أنضروا إلى صاحبكم ماذا يقول؟ يقول إن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنا الأعز منها الأذل، هل ترغبون بذلك؟

فذهب المسلمون إلى عبد الله وقالوا له: إذهب واعتذر من رسول الله ﷺ. فجاء عبد الله إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أنا لم أقل هذا الكلام وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

فقال له النبي: أنا أقبل منك ذلك، ثم عادوا راجعين إلى المدينة المنورة وأصبح الناس يقولون لزيد: أنت كذبت على عبد الله وأحدثت مشكلة في بلاد الإسلام. وفي طريق النبي إلى المدينة نزل عليه الوحي بسورة المنافقين ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا شَهِدْ إِنَّكَ... الْأَذَلُّ﴾^(١).

الشاهد هنا هو الأسلوب القسري، أسلوب ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، أسلوب الطرد والقتل، هذا هو أسلوب الفرض القسري، أما أن تصبح من جماعتنا أو تخرج منها هذا منهج.

إن كثيراً من الأحزاب الدكتاتورية والمناهج المستبدة في العالم تؤمن بهذا المنهج، هنا في العراق كان نظام البعث يمثل أعلى درجة من الدكتاتورية والمنهج القسري، ونحن رأينا كيف أن النظام يقسر الناس ويفرض عليهم أن يكونوا من أتباعه وإن امتنعوا فمصيرهم القتل أو أي لون من ألوان العقوبات.

هذا المنهج مرفوض في الإسلام، والمنهج الذي يؤمن به الإسلام هو منهج الاقتناع العلمي.

منهج الاقتناع العلمي:

لقد مارس الأنبياء ورسول الله ﷺ والأئمة الأطهار أسلوب الاقتناع العلمي بلطف وظرافة والموعظة الحسنة لأجل هداية الناس، ممكن أن نقدم شواهد كثيرة على هذا الأمر، لاحظوا القرآن الكريم ماذا يقول؟ يقول على لسان كل الأنبياء: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٢) أنت أيها

(١) المنافقون: ١.

(٢) أنظر: الصحيح من سيرة الرسول الأعظم ﷺ ١١: ٣١٩.

(٣) يس: ١٧.

الرسول مسؤوليتك أن تَبْلَغ وتُنذِر، أما أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا فهذا ليس مسؤوليتك يا رسول الله ﷺ.

وهكذا نحن نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١) إذن لا يوجد ههنا منهج قسري، لا يوجد فرض وقهر على الناس، إن منهج القرآن الكريم ومنهج الأنبياء والأئمة الأطهار هو منهج الإقناع العلمي ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

قصة بشر الحافي:

لهذا فإن الإمام الكاظم عليه السلام في قصة معروفة وهي قصة بشر الحافي مارس هذا الأسلوب نفسه، فبينما هو يسير وإذا جارية ترمي قمامة من داخل البيت ترميها في الشارع وفيها قناني الخمر والمشروبات الكحولية وما شاكل. الإمام الكاظم عليه السلام وهو مار في الطريق قال: يا جارية لمن هذا القصر التي خرجت منه؟ قالت: هو لمولاي بشر.

قال: مولاك حرٌّ أو عبد؟

قالت: مولاي حر.

قال: صدقتِ لو كان عبداً لاستحي من مولاه!

رجعت الجارية إلى سيدها في القصر قال لها: أبطأتِ ما الخبر؟

فقلت له ما كان من خبر الرجل، فلما سمع بشر هذه الكلمة نزل من كرسيه وذهب يركض وراء الإمام، فهذه الكلمة أثرت به، أنا عبد الله كيف لا أستحي من الله.

(١) الكافرون: ١ - ٦.

(٢) البقرة: ١١١.

وصل إلى الإمام الكاظم وتاب توبة شديدة نصوحة وأصبح عابداً زاهداً وأصبح يُلقَّب ببشر الحافي، فأصبح زاهداً من الزهاد يضرب به المثل، كيف تغيَّر بموعظة حسنة.

هذا نموذج من نماذج الموعظة الحسنة.

قصة إبراهيم عليه السلام والأصنام:

أريد أن أقرأ لكم قصة أخرى عن الموعظة الحسنة وهي قصة إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، إبراهيم كما تعرفون له منزلة خاصة بين الأنبياء ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾^(١) القرآن الكريم يقول: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢) وله في القرآن الكريم حديث مفصل وفي أكثر من قصة.

القرآن الكريم يحدث عن إبراهيم في سورة الصافات يقول: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣) اسمحوا لي أقرأ لكم الآية من البداية في قصة إبراهيم تقول: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾^(٤) يعني شيعته نوح، لأن الآية التي قبلها تقول: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(٥) يعني أن إبراهيم من أتباع نوح ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾^(٦) ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَشْحَنُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٧).

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الصافات: ٨٨ - ٩١.

(٤) الصافات: ٨٣.

(٥) الصافات: ٧٩.

(٦) الصافات: ٨٤ و ٨٥.

(٧) الصافات: ٩٥ و ٩٦.

أما في سورة الأنبياء يقص القصّة بشكل آخر ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾^(١).

ثلاث كلمات تشبه الكذب:

هنا يوجد ثلاث كلمات للأنبياء تشبه الكذب وما هي بكذب اثنان لإبراهيم وواحدة ليوسف.

كلمة يوسف هي قوله: ﴿إِنَّهَا الْمِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٢) ولم يكونوا قد سرقوا وإنما كان يوسف هو الذي أخفى تاج الملك في رحالهم.

هل هذا كذب؟ هذه كلمة تشبه الكذب لأن الأنبياء لا يكذبون إن مقصود يوسف هو أيها الناس وفيهم أخوته تتذكرون أنكم سرقتم يوسف إذن هو يقصد سرقة يوسف، لكن الناس يتصورون سرقة تاج الملك. فهذه كلمة تشبه الكذب وليست بكذب.

إبراهيم أيضاً عنده كلمتان تشبه الكذب وليست بكذب واحدة منها ما جاء في سورة الصافات: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٣) ولم يكن سقيماً، أحد التفاسير يقول أنه لم يكذب ولكن مقصوده معنى آخر، هنا سقيم بمعنى إني مبتلى بديني، أنه أنتم عندكم دين وأنا عندي دين، والله تعالى قد ابتلاني بكم فأنا سقيم بهذا الابتلاء.

(١) الأنبياء: ٦٢ - ٦٥.

(٢) يوسف: ٧٠.

(٣) الصافات: ٨٨ و٨٩.

والكلمة الثانية حينما قالوا: «أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»^(١).

هذا كلام يشبه الكذب وما هو بكذب لأن مقصود إبراهيم أنهم لو كانوا ينطقون لقلت لكم قد فعله كبيرهم، فهذه جملة مشروطة بشرط غير متحقق.

القرآن الكريم يحدث عنهم يقول: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ»^(٢) يعني كلمة إبراهيم أثرت في قلوبهم وهذه هي الحكمة والموعظة الحسنة. قالوا «أَنْتُمْ تَقُولُونَ»^(٣) لقد جمع إبراهيم أولاً الدليل العلمي وثانياً الموعظة الحسنة حين أخذ الفأس وكسر الأصنام بدل أن يدخل في قتال معهم بل ذهب وكسر الأصنام لأجل أن تكون موعظة حسنة.

زوجة إبراهيم عليه السلام:

في قصة أخرى من قصص إبراهيم أراد أن يخرج من المدينة التي كان فيها قال: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ»^(٤) أخذ زوجته سارة مهاجراً إلى الله تعالى وفي الطريق خرج عليهم رجال الملك فإذا إبراهيم ومعه زوجته سارة محتفظاً بها في صندوق كما تقول الروايات، جاءوا به إلى الملك وكانت سارة كما تقول الروايات امرأة حسنة، فلما رآها الملك مدَّ يده إليها، فغضَّ إبراهيم طرفه ودعا «اللهم احبس يد هذا الملك عن سارة»، الروايات تقول لم تستطع يده أن تلمس سارة وأصبحت يابسة.

(١) الصافات: ٦٢ و ٦٣.

(٢) الصافات: ٦٤ و ٦٥.

(٣) الصافات: ٩٥.

(٤) الصافات: ٩٩.

فقال له المَلِك: يا إبراهيم ماذا صنعت؟ قال: سألتُ ربي حتّى لا تتمكن من سارة.

قال الملك: أدعُ ربّك أن يرجع يدي وأنا أعطيك عهداً أن لا أعتدي عليها.
فسأل الله تعالى أن ترجع يد الملك ورجعت.
مرة أخرى مدّ يده على سارة، وهنا إبراهيم غضَّ طرفه ودعا ربه أن يمنع يده عن سارة، مرة أخرى لم تصل يده إلى سارة ولا يستطيع أن يرجعها.
قال: يا إبراهيم ادعُ ربك أن يرجع يدي.
قال بشرط مرة ثالثة إذا اعتديت لا أدعُ لك، فقبل الملك فدعا الله تعالى فعادت يد الملك إليه.

فقال الملك لإبراهيم: إن ربك لغيرور وأذن له بالانصراف.
لما أذن الملك لإبراهيم بالانصراف ومعه سارة، نزل الملك يمشي وراءه تجليلاً وتعظيماً لإبراهيم فأوحى الله لإبراهيم لا تسمح للملك أن يمشي وراءك بل دَعِ الملك يتقدّم وأنت امش وراءه هيبة له وإكراماً للملك، لاحظوا هذه الموعظة الحسنة.
إبراهيم قال للملك: إن الله تعالى أمرني أن لا تمشي خلفي وأنا نبي لكني هيبةٌ لك واحتراماً لك أمشي وراءك، هذه الكلمة أثرت بالملك فقال: إن ربك لحليم كريم وإنك ترغّبني في دينك، لاحظوا هذه هي الحكمة والموعظة الحسنة وليس بالفرض القسري.^(١)

الإسلام هل انتشر بالسيف؟

هناك شبهة على الإسلام تقول: إن الإسلام انتشر بالقوة والسيف.
هذه شبهة في الحقيقة غير صحيحة.
الإسلام انتشر بقوة الإقناع وارتباطه بالفطرة الإنسانية بدليل إن الإسلام

اليوم لا يمتلك قوة ولا سيفاً وهو منذ قرون ضعيف من الناحية التسليحية، لكن مع ذلك فإن الإسلام قوي وثابت في الصين وفي أوروبا وفي أمريكا، الآن الديانة الثانية في فرنسا هي الإسلام، في بريطانيا كذلك الديانة الثانية الرسمية هي الإسلام، الإسلام ينتشر في الصين إذن لو كان الإسلام يقوم على أساس السيف، لكان مصيره مثل مصير الشيوعية التي حكمت سبعين عاماً ولكن بمجرد أن سقط الحكم الشيوعي سياسياً انتهت الشيوعية، الآن لا توجد شيوعية في دول الاتحاد السوفيتي السابق، سبعون سنة حكموا دول الاتحاد السوفيتي بالقهر، وفرضوا على الناس حتى تغيير أسمائهم فالذي اسمه عليّ يجب أن يكون اسمه عليّ أوف وهكذا، ومع ذلك فإن الملايين من المسلمين موجودون الآن في دول الاتحاد السوفيتي رغم أن معارفهم التفصيلية عن الإسلام ضعيفة لكن ارتباطهم بالإسلام ارتباط قوي.

لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما بقى إلى اليوم وكان مصيره مثل الشيوعية هذا أولاً، وثانياً نحن نعتقد نظرياً وفقهياً أن الإسلام لم يدخل حروباً حتى في زمن النبي ﷺ إلا في حالتين:

الحالة الأولى: حالة دفاعية ﴿فَمَنْ اغْتَدِي عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اغْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(١) ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٢).

الحالة الثانية: كسر الحواجز والسدود أمام الشعوب لوصول الإسلام إليهم. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾^(٣) هذا نسمة كسر السدود، الإسلام يريد أن ينتشر ولا بد أن يعمل على إسقاط الحكومات المتجبرة التي تمنع الناس من الاستماع إلى صوت الإسلام. ثم إذا سقط ذلك الحكم

(١) البقرة: ٩٤.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) النساء: ٧٥.

المتجبر حيث لا يقال للناس يجب عليكم أن تكونوا مسلمين بل يقال: هذا هو الإسلام إن شئتم أن تدخلوا إلى الإسلام أو إن شئتم أن تبقوا على ديانتكم فليس ههنا إجبار وإكراه.

في الحالتين يؤمن الإسلام بالحروب، الحالة الأولى حالة الدفاع والحالة الثانية هي كسر السدود.

هذا هو حديثنا الموجز عن قوله: «ودعوتكم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة».

لقد كان أهل البيت عليه السلام نموذجاً في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

نموذج ثورة الحسين عليه السلام:

نأخذ مثلاً نموذج ثورة الحسين عليه السلام كانت بالحكمة والموعظة الحسنة، صحيح أن الحسين عليه السلام دخل في قتال لكنه كان قتالاً مفروضاً على الحسين عليه السلام، كان قتالاً دفاعياً ومفروضاً عليه، يزيد فرض على الحسين عليه السلام أن يبايع أو يقتل لكن الإمام الحسين عليه السلام لا يقبل أن يبايع يزيداً وأصبح مضطراً أن يخرج من المدينة المنورة وعنده أنصاره في الكوفة ويجب أن يلحق بهم ولقاؤه بهم ليس للقتال ولكن حتى تبقى الأمة حرة ولا تباع يزيداً، دور الإمام عليه السلام هو دور دفاعي.

الإمام الحسين عليه السلام رغم أن ثورته دخلت مشهداً مسلحاً ولكنها كانت حالة دفاعية، السيف فرض على الحسين عليه السلام ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة وبين الذلة وهيهات منا الذلة».

موقف الحسين عليه السلام كان دفاعياً ولم يكن موقفاً هجومياً، أهل الكوفة

حينما بعثوا برسائل إلى الحسين عليه السلام لكي يبايعوه على أساس أن يكون إمامهم بدل يزيد بن معاوية حيث أن يزيد فرض نفسه بالقسر وأما سياسية أهل البيت عليهم السلام فهي سياسة الإبلاغ وحين كان الإمام الحسين عليه السلام يلتقي بمجموعات من العرب ما كان يفرض عليهم أن يهاجروا معه بل حتى في ليلة عاشوراء قد خيّر الإمام أصحابه وقال لهم هذا الليل فاتخذوه جملاً وليأخذ كل واحد منكم بيد واحد من أهل بيتي فإن القوم لا يطلبون غيري.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة التاسعة والعشرون:

الصبر

«وبذلت أنفسكم في مرضاته وصبرتم على
ما أصابكم في جنبه وأقمتم الصلاة وآتيتم
الزكاة».

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «وصبرتم على ما أصابكم في جنبه» الحديث عن الصبر وصبر الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام وشيعتهم في سبيل الله، لأن معنى في جنب الله أي في سبيل الله.

لكن بالنظر إلى الأحداث والمناسبات التي نعيشها سوف لا أدخل في هذا الموضوع كبحت نظري عن الصبر وفلسفة الصبر وأهميته، وإنما تناول الصبر في واقعنا المعاصر، الصبر في تجربة شيعة أهل البيت والشيعة العراقيين.

كيف نصبر اليوم؟

وما معنى الصبر؟

فسوف أتحدث حديثاً ميدانياً أكثر مما هو حديث نظري.

صبر الشيعة:

كما تعرفون أن الإمام الصادق عليه السلام في الرواية عنه يقول: «نحن صُبر وشيعتنا أصبر منا».

قلت: جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟

قال: «لأننا نصبر على ما نعلم وهم يصبرون على ما لا يعلمون».^(١)

أحياناً أمامك النهر، وتعرف أنك بعد نصف ساعة أو ساعة أو أكثر سوف تصل إلى الماء وترتوي من الماء فأنت تراه أمامك فلو صبرت على هذه النصف ساعة فهي قضية طبيعية وسهلة، لكن أحياناً أنت لا تجد أمامك النهر ولا تراه عليك أن تمضي قدماً تمشي متوكلاً على الله تعالى بأمل أن

تصل إلى الماء، هذا الصبر أعظم من الحالة الأولى، فالشيعة يصبرون بمقتضى الثقة بالله تعالى، وانتظار وعد الله تعالى، وهم لا يعلمون الغيب ولا يرون أمامهم النهر إلا أن الثقة بالله تعالى تفرض عليهم أن يتحلّوا بالصبر العالي.

الصبر قرين الإيمان:

الصبر في الحقيقة هو قرين الإيمان يعني توأم الإيمان ومن غير الممكن التفكيك بينهما.

الكلمة المعروفة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فمن لا صبر له لا إيمان له»^(١).

لقمان الحكيم لم يكن نبياً وإنما كان حكيماً، أوصى ابنه في جملة وصاياه: «يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»^(٢). الصبر هو من تدبير الأمور وشرط نجاحها وهذا هو معنى «مَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ».

الأحاديث في الصبر وأهميته كثيرة، لكن قلت لكم سوف لا أتحدث هذا اليوم حديثاً نظرياً وسوف ننزل إلى الواقع الذي نعيشه، ونرى كيف يكون الصبر هو شرط النجاح وبدون صبر لا نستطيع تحقيق النجاح.

لاحظوا تاريخياً أن أمير المؤمنين عليه السلام كيف قيّم حركة الثوار المصريين على عثمان بن عفان، فهؤلاء جاءوا من مصر ثم ناروا على عثمان ثم قُتل عثمان، وحدثت مشكلة كبيرة فمعاوية رفع راية المطالبة بدم عثمان واتّهم الإمام علي بأنه هو وراء العملية وأدى الأمر إلى ما أدى إليه، هذا تاريخياً.

لاحظوا تقييم الإمام علي لثورة المصريين حين قال عن عثمان: «استأثر

(١) التمهيد: ١٤٨ / ٦٤.

(٢) لقمان: ١٧.

فأساء الأثرة، وجزعوا فأساءوا الجزع»^(١) أي صحيح أن عثمان أخطأ فقد استأثر وأخذ المُلْك كله هو وبنو مروان وبشكل غير شرعي، لكن الناس وفيهم صالحون هؤلاء جزعوا فأساءوا الجزع، فالتحليل السياسي أنه كان يجب على المصريين والعراقيين أن يصبروا على أخطاء عثمان حتى لا يستفيد معاوية وهو يتربص بهم الدوائر، لكنهم لم يستمعوا للإمام علي وجرى ما جرى، فقد كان عليهم أن يتحملوا أكثر لأنه إذا ذهب عثمان فسوف تأتي مشكلات معاوية بأخطر وأساء. فالإمام علي كان يرى أن الإبقاء على عثمان والعمل على نصحه أولى من أن يدخل العالم الإسلامي في معارك صفين والجمل. هذا هو تحليل الإمام علي عليه السلام.

مقابل العجلة والجزع:

الصبر أحياناً يكون في مقابل العجلة وأحياناً يكون في مقابل الجزع. يوجد تضاد بين الصبر والعجلة، فالعجول غير صبور وهو ينتظر أن تأتية الأمور والنتائج سريعاً كمن يقطف الثمرة قبل أن تنضج فهذا نسميه عجلة، فصبر يقابله عجلة ولذا قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(٢) هذا صبر في مقابل العجلة. أحياناً الصبر يقابله شيء آخر اسمه الجزع كما في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾^(٣).

وكما قال الإمام علي عليه السلام:

ولا تجزع من الموت إذا حلّ بنا ديكاً

(١) نهج السعادة: ٥: ٢٢٢.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) إبراهيم: ٢١.

فالجزع هو أن يفقد الإنسان رشده ولا يعرف كيف يتصرف، فالمرضى مثلاً يجب أن يصبر ويذهب إلى الطبيب ويصبر على العلاج حتى يتحسن، أما إذا كان غير صبور فإنه سوف يؤذي نفسه ولا يستعمل الدواء وهذا يسمى جزعاً، الإنسان الصابر هو الذي يعرف كيف يدبر أمره ويحل المشكلة بالصبر والتحمل ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١).

الصبر على العمل:

لاحظوا الأنبياء والأئمة عليهم السلام لم يكن صبرهم على مشكلة فقر أو مرض أو على مشاكل شخصية، صحيح أن هذا كان موجوداً لكن الصبر الأعظم هو الصبر على مشاكل العمل وعلى بناء المجتمع وعلى تطبيق الرسالة هذا هو الصبر العظيم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) فقد صبروا كثيراً حتى وصلوا إلى تحقيق انجازات كبيرة.

صبر الإمام علي عليه السلام:

الإمام علي عليه السلام هكذا يقول: «وَطَفِيفْتُ أَرْثِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ يَدٍ جَذَاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَخْجَى فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى وَفِي الْخَلْقِ شَجَا»^(٣) الإمام علي يرى أن هناك عدواناً على الزهراء وعليه وعلى الإسلام، لكن ماذا يفعل؟

ليس المهم أن ينتقم لنفسه أو للزهراء، لا، بل المهم أن ينتصر للدين.

(١) لقمان: ١٧.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

(٣) نهج البلاغة: خ ٣ المعروفة بالشفقة.

لقد جاء أبو سفيان إلى الإمام عليّ وقال له: يا عليّ مُدَّ يدك أبايعك، لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً. فأبو سفيان يتصور أن الإمام عليّ ينخدع بهذه اللعبة، لأن أبا سفيان هدفه أن يلقي الفتنة بين المسلمين ويريد إيقاع معركة بين عليّ وبين الوضع القائم يومئذ، لكن الإمام عليّ لم يرَ ذلك من المصلحة، وقد كان بالامكان أن ينتقم الإمام عليّ عليه السلام لنفسه، لكن هنا تأتي مسألة الأهداف والمصالح الكبرى ما هي؟ ولو كان الإمام عليّ ينتقم لنفسه فإنه سوف يخسر أهدافه الكبرى، وسيكون ذلك منه جزءاً ولكنه أثر الصبر والتحمل ولا يتنلى بالجزع.

قد يتصور كثير من الناس أن الصبر إنما هو في حالات المرض والفقر وما شاكل ذلك، لكن هناك صبر أعظم منه، هو الصبر على المشروع الديني والسياسي حتى تقطف الثمرة التي تريدها وهي ثمرة الانتصار وحاكمية الإسلام، هذا الصبر هو غير الصبر على المرض والفقر وما شاكل ذلك، هو صبر على المعاناة والاختلافات والاتهامات والارهاب وتمزيق الساحة، يجب أن تصبر وتتعامل بعقل كبير، ليس كل أحد يمتلك هذا الصبر لكن الشيعة بحمد الله يمتلكون هذا الصبر إذ تعلموا من أهل البيت الصبر الرسالي وهو غير الصبر الشخصي.

الصبر الرسالي هو صبر من يريد أن يبنّي مجتمعاً وينصر الدين فهذا الصبر هو من خصائص الأنبياء والمؤمنين ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.^(١)

صبر العوام وصبر الخواص:

يوجد صبر يُسمى صبر العوام وهو صبر عامة الناس.

وهنا أنقل لكم قصة جرت مع داود النبي عليه السلام حيث نزل جبرائيل إلى داود قال له: «بِشْرَ خِلَادَةٍ» وهي امرأة محترمة جلييلة في زمن داود - انها قرينتك في الجنة.

فأرسل عليها داود، قال لها: يا خلادة الله يبشرك انك قرينتي في الجنة.
استغربت خلادة من ذلك وقالت: لعلة شئبه عليك الاسم، لأنني أرى
نفسي من عوام الناس، وليس لي شأن كبير حتى أكون قرينتك.
قال لها داود: ارجعي إلى نفسك وتأملّي.
قالت: إن كان كذلك فأنا في الحقيقة أقول لك يا نبي الله أنا عندي
خصلة واحدة أنه لا يصيبني بلاء أو مكروه أو وجع أو أذى إلا وصبرت عليه
وما شكوته إلى أحد بل شكرت الله عليه.
لمّا سمع بذلك داود قال: هو هذا الذي يجعلك من نساء الجنة ومن
زوجات الأنبياء.^(١)

وهذا هو نموذج صبر العوام.
لكن يوجد صبر أرقى منه يسمى صبر الخواص ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا
الْعِزِّ مِنَ الرَّسُلِ﴾^(٢) فهذا ليس صبراً على فقر لأن النبي لم تكن لديه مشكلة فقر
ومرض وما شاكل ذلك.

صبر الخواص مثل صبر أمير المؤمنين عليه السلام، حين يُعتدى على الزهراء
عليها السلام وحين يُغصب منه الحكم ويُعتدى على القيم الإسلامية فهنا صبر الإمام
صبر الخواص، لأن لديه أهدافاً أكبر.

كذلك الإمام الحسن فقد صبر صبراً عظيماً حفاظاً على المؤمنين والمسلمين،
وإلا ليس سهلاً على الإمام الحسن أن يجلس في مجلس معاوية ومعاوية أمير والإمام
الحسن جالس في المجلس يسمع مواعظ وأكاذيب معاوية، لكن من أجل الله تعالى
ومن أجل الأمة ووحدة الكلمة، هذا صبر عظيم.

(١) أنظر: بحار الأنوار ٦٨: ٤٢/٨٩.

(٢) الأحقاف: ٣٥.

وهكذا العباس عليه السلام حينما جاءوا بجنازة الحسن عليه السلام لكي يزور مسجد النبي وقبره، خرجت عائشة وآل أمية مروان تقول: مالي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب، هنا يوجد موقفان، وأما موقف الاستبسال والدخول في معركة مع المنافقين والأمويين وهو اختيار العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام لكن الحسين عليه السلام بعصمته وعقليته الأكبر قال: لا الآن ليس وقت قتال، فإذا دخلنا الآن في معركة داخلية فإن ذلك ليس من مصلحتنا، فبنو مروان يريدون أن ندخل هذه المعركة، وإذا دخلنا هذه المعركة فسوف يسقط الإسلام كله ولذا فقد قال الحسين للعباس: «الله الله في وصية أخي الحسن، فإن أخي الحسن أوصى أن لا يراق فيه ملاً محجمة دماً» هذا هو صبر الخواص.^(١)

شرحت لكم آفاق صبر العوام والخواص.

ذكرى انتفاضة شعبان:

ونحن في مرحلتنا هذه نحتاج إلى صبر، لاحظوا نحن الآن نعيش ذكرى انتفاضة شعبان عام ١٩٩١ التي انتفض فيها الشعب العراقي وصاح الموت لصدام والنصر للإسلام، وتحررت أربعة عشر محافظة من قبضة نظام صدام من مجموع ثمانية عشر محافظة، وكان نظام صدام على وشك السقوط والانهاء لكن سرعان ما ساعده وعاد للحكم.

لقد كان هناك تخوف عربي وعالمي من مجيء حكم إسلامي شيعي لدى سقوط صدام وبقاء صدام من وجهة نظرهم هو أفضل من انتصار الشعب العراقي وتحرر الإرادة العراقية وتحركت يومئذ دول عربية على الولايات المتحدة الأمريكية لتغيير القرار بإسقاط صدام، فتغير القرار الدولي وأعيدت الحياة لنظام صدام بعد أن كان قاب قوسين من الهاوية.

القرار العالمي سحق الشيعة بصواريخ أرض أرض كما حدث في النجف وكربلاء وبعدها في الأهوار وتدميرها، وبالمقابل كان قرار إعطاء الأكراد في كردستان حكماً مستقلاً.

كنّا نحتاج إلى إثني عشر سنة اضافية من الكفاح حتّى نفتح العالم العربي ثمّ العالم الدولي أن الخطر لا يأتيكم من الشيعة، بل الخطر يأتي من التكفيريين والسلفيين، بينما نحن اليوم فخورون أننا بمقدار ما نمتلك من قوة جماهيرية كبيرة وشجاعة كذلك نمتلك عقلاً وتديراً وسياسة، كما أشار إلى ذلك الكاتب السعودي المعروف (القاججي) حينما طرحوا في العالم أن المرجع السيد السيستاني (دام ظله) يستحق جائزة نوبل فكتب القاججي لا ليس فقط جائزة نوبل للسلام، بل يستحق جائزة الملك عبد العزيز وهي أعلى جائزة في المملكة العربية السعودية لماذا؟

قال: لاحظوا نحن عملنا الكثير في الشيعة من إرهاب وقتل وتشريد وكان بإمكان السيد السيستاني أن يُفجّر الوضع ضدنا حيث يملك هذا الرجل – مشيراً إلى السيد السيستاني – الجماهير الكبيرة في أنحاء العالم وكان يمكنه بكلمة واحدة أن يفجر الوضع كله ضدنا لكنه بحكمته الكبيرة وعقله الرشيد احتوى هذا الوضع بعائته، ثمّ خاطب القاججي الوهابيين والسعوديين طالباً منهم أن يعيدوا دراستهم للشيعة.

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تظهر حقانية شيعة آل البيت بما صبروا، إذا كان الشيعة يريدون أن يكون لهم شأن واستقلال وإرادة وحاكمة في العراق فيجب أن يصبروا، ولقد صبروا وتمتعوا بهذه الروحية والأصالة ببركة تلمذتهم على يد آل البيت وحافظوا على وحدة الصف حيث رفضوا أن يدخلوا في معركة جانبية على حساب المصلحة الإسلامية والوطنية العليا، ولهذا فقد خاضوا معركة الانتخابات بنجاح وكذلك الاستفتاء على الدستور بنجاح أيضاً رغم أن هناك من يحاول أن يستفز الشيعة.

هناك ثلاثة اتجاهات للموقف من الإرهاب:

١ _ موقف الاستسلام.

٢ _ موقف تفجير الحالة والدخول في معركة مستعجلة حيث نقوم

بالمثل إرهاب بمقابلة إرهاب.

٣ _ موقف الصبر الحكيم ومواصلة العمل السياسي والتحرك على

الدول العالمية ودول الجوار وكذلك التحرك على أهل السنة لأقناعهم

وممارسة الأدوات القانونية لتطهير العراق من الإرهاب. وهذا يحتاج إلى جهد

كبير من الصبر والإرادة والعزم بهدف بناء العراق وهذا الاتجاه هو الذي

اخترناه.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثلاثون:

الجهاد

أنواعه ومستوياته ونماذجه

«وأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر
وجاهدتم في الله حق جهاده».

هذا المعنى يتكرر في وصف أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام في العديدة من الروايات، حيث نقرأ في هذه الزيارة الجامعة لكل أئمة الهدى «أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم في الله حق جهاده» وهكذا نقرأ في زيارة أمير المؤمنين «أشهد أنك جاهدت في الله حق جهاده» في إشارة إلى المهمات الكبرى الخمس في الإسلام.

كبريات الإسلام:

هناك كبريات عقائدية وكبريات عملية. (التوحيد، العدل، النبوة، الإمامة، المعاد) هذه كبريات عقائدية نسميها (أصول الدين) لكن هناك كبريات عملية وهي خمس طالما أشار إليها القرآن الكريم وهي (الصلاة، الزكاة، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الجهاد في سبيل الله).

هذه الزيارة الجامعة تؤكد هذه المهمات الخمسة بالقول: «أشهد أنكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم في الله حق جهاده».

هذا معناه أن هناك خمس قضايا كبرى مهمة جداً، نعتقد أن أهل البيت كانوا القمة فيها، كما أنهم في العلاقة مع الله كانوا يمثلون القمة (الصادقون، المقربون، المتقون، المهديون، المصطفون) هذا في العلاقة مع الله تعالى.

وفي أداء المهمات الإسلامية الكبرى أيضاً هم أول الناس فيها «لا يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق»، فلا أحد يسبق أهل البيت في إقامة الصلاة أو يسبقهم في إيتاء الزكاة وقد نزل فيهم: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَى حَبِّهِ

مُسْكِينًا وَتَيْمًا وَأَسِيرًا^(١) ولا أحد يسبقهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا في الجهاد في سبيل الله، الجهاد حق الجهاد، حيث يوجد جهاد بسيط ويوجد حق الجهاد، فهذه الإشارة في القرآن تتكرر في مكانين فمرة يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾،^(٢) ومرة يقول: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.^(٣) وان أعلى مراتب الجهاد هو الجهاد الحقيقي، فيوجد جهاد شكلي محدود ويوجد جهاد دائم ومطلق ويوجد جهاد بالمال ويوجد جهاد بالأنفس ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.^(٤)

أهل البيت عليه السلام جاهدوا في الله حق الجهاد بالأموال كذلك بالأنفس.
في كل الجوانب يجب أن يكون الإنسان مجاهداً، هذا معنى حق الجهاد.

المعنى العام للجهاد:

الجهاد بالمعنى العام القرآني لا يعني فقط القتال، اليوم في الاصطلاح الفقهي في كتاب الجهاد، يقصدون به الجهاد بالمعنى الخاص، أي القتال ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾،^(٥) ﴿قَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.^(٦) هذا جهاد بالمعنى الخاص وهو القتال، والمجاهد في سبيل الله بمعنى المقاتل في سبيل الله.

لكن القرآن الكريم يعطي معنى عاماً للجهاد هو أوسع من القتال ﴿يَا

(١) الإنسان: ٨

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) النساء: ٩٥.

(٥) النساء: ٧٥.

(٦) النساء: ٧٦.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١)
الجهاد في سبيل الله بالمعنى العام يصدق على كل مجاهدة من أجل إعلاء
كلمة الله تعالى، فكل محاولة وكل عمل من أجل إعلاء كلمة الله هذا يسمى
جهاداً وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.^(٢)

أكثر ما جاء في آيات الجهاد جاء بالمعنى العام وليس بالمعنى
الخاص، ولهذا نحن نجد أن أهل البيت عليهم السلام جميعاً يوصفون بالجهاد
«وجاهدتم في الله حق جهاده» هذا ينطبق على الإمام علي عليه السلام الذي قاتل في
بدر وأحد وصفين والجمل وينطبق على الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين
عليه السلام والإمام زين العابدين عليه السلام الذي لم يقاتل كما ينطبق على الإمام الباقر
عليه السلام الذي لم يقاتل وعلى الإمام الصادق عليه السلام الذي لم يقاتل وينطبق على
الإمام موسى بن جعفر الذي صبر في السجون، هذا كله جهاد.

نحن لا نستطيع وفق المفهوم القرآني أن نقول إن الإمام الصادق عليه السلام
لم يجاهد، وكذلك الإمام الباقر عليه السلام، لأنهم لم يشتركوا في الغزوات
والحروب، الجهاد بالمعنى العام هو كل عمل من أجل الله وإعلاء كلمة الله
ولهذا سوف يصبح لدينا جهاد بالمال وكذلك جهاد باللسان، كما جاء في
الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

الجهاد السياسي الثقافي:

هناك أيضاً الجهاد السياسي وكذلك الجهاد الثقافي، اليوم نحن نمر في
مرحلة الجهاد الثقافي ومرحلة الجهاد السياسي، الحضور اليوم في الساحة
الثقافية والسياسية هو بناء العراق هذا أيضاً يعتبر جهاداً، الحضور في

(١) المائدة: ٣٥.

(٢) العنكبوت: ٦٩.

الانتخابات هو جهاد سياسي، الحضور في المجالس الدينية هو جهاد ثقافي، وكذلك الحضور في المجالات الثقافية المختلفة فإنه يعتبر جهاداً وهو مشمول بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

هذه الزيارة التي تقول: «وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتهم عن المنكر وجاهدتم في الله حق جهاده» إنما يريد أن يدفع التهم عن أهل البيت لأنهم تعرضوا إلى تهمة (الاعتزال السياسي) و(التخلف الجهادي) فقد قيل لأهل البيت عليهم السلام إنكم تخلفتم عن الجهاد بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام ثم اعتزلتم سياسياً، هذه تهمة وجهت إلى أهل البيت عليهم السلام، لأن الإمام الصادق عليه السلام والإمام الباقر عليهما السلام انصرفوا إلى الأمور العلمية والثقافية والإمام زين العابدين عليه السلام انصرف إلى الدعاء حتى قيل لهم إنكم تركتم الجهاد لأن الجهاد فيه مشقة وصعوبة وذهبتهم إلى الأمور البسيطة.

عباد البصري:

الإمام السجاد عليه السلام التقى به عباد البصري وهو من الشخصيات المعروفة، فوجه له هذا الاتهام.

قال: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته وأقبلت على الحج - لأن الإمام زين العابدين كان يذهب للحج كل عام ويذهب ماشياً من المدينة إلى مكة -، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^(١).

الإمام زين العابدين قال له: أكمل الآية فقرأ عباد تنمة الآية ﴿الضَّالُّونَ

الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)

فلما قرأ ذلك قال له الإمام عليه السلام: «إذا وجدنا من هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج»^(٢).

الإمام يريد أن يقول له ان الجهاد الشرعي هو حينما يكون مع قيادة شرعية أما الجهاد مع يزيد بن معاوية فليس جهاداً.

شروط الجهاد:

وسوف نعرف الفرق بين الجهاد وبين الإرهاب، فنحن نعرف جيداً أن الجهاد له شروط والإرهاب له خصوصيات.

فالجهاد الإسلامي له أربعة شروط:

الشرط الأول: سلامة الأهداف:

﴿يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ هذا هدف، أن يكون القتال في سبيل الله وليس في سبيل الشيطان.

الشرط الثاني: سلامة القيادة:

أن تكون القيادة شرعية، أما إذا كان جهاداً تحت راية جائرة ظالمة منحرفة، فإنها تسوق العملية كلها لصالحها وليس لصالح الإسلام.

إن الكثير مما يجري من العمليات المسلحة التي يقودها الإرهابيون هنا في العراق بعنوان الجهاد والمقاومة هو في الحقيقة ليس في سبيل الله وإنما في سبيل مواقع سياسية، وفي سبيل الشيطان.

(١) التوبة: ١١٢.

(٢) أنظر: الكافي ٥: ٢٢ / ١.

الشرط الثالث: القدرة والاستطاعة:

إن الشرط الثالث في الجهاد الإسلامي الواجب هو القدرة والاستطاعة ولهذا فإن الإنسان إذا لم يكن لديه قدرة تتناسب مع حجم المشروع، فإن الجهاد يسقط عنه. الإمام الحسن عليه السلام لم يكن يرى أن المشروع القتالي مع معاوية يحقق نتيجة رابحة. والإمام الصادق لم يكن يرى أن المشروع القتالي مع الحكم الأموي يحقق نتيجة رابحة، لأن شروطه غير متوفرة. القدرة شرط، ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول في خطبته في نهج البلاغة: «أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فَلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَكَأَيُّ رَقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا وَطَفَقْتُ أُرْثِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ يَدَ جَدَاءٍ _ أَي أَنِّي فَكَّرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ لَكِنْ لَا تَوْجِدُ لَدَيَّ يَدَ أَيِّ أَنْصَارٍ _ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ يَهْرِمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشْيِبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدُخُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَخْجَى _ رَأَيْتُ أَنَّ شُرُوطَ الْجِهَادِ غَيْرَ مَتَوَفَّرَةٍ فَتَكُونُ تَضْحِيَةً بِدُونِ هَدَفٍ، وَالْإِنْسَانُ الْمُسْلِمُ يَفْكَرُ بِالْأَهْدَافِ وَلَيْسَ إِنْسَانًا مَتَهَوِّرًا _ فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَأٌ أَرَى تَرَائِي نَهَابًا»^(١).

الشرط الرابع: سلامة المناهج والأساليب:

فالجهاد يجب أن لا ينحرف عن المناهج الصحيحة والأخلاقية، أما التمثيل بالناس وإحراق الدور وتقطيع الأوصال والرؤوس هذا لا يسمى جهاداً، هناك أصول أخلاقية في القتال، وسوف يكون أرباباً إذا لم تتوفر هذه الشروط.

تعريف الإرهاب:

ونستطيع أن نذكر مجموعة معالم للعمل الإرهابي، أولاً: الأهداف غير سليمة والقيادة غير شرعية، ثانياً: فالقيادة التي تقتل الحسين، والتي تسبي زين

العابدين، أو التي تأسر بنات أمير المؤمنين، هل هذه قيادة شرعية؟ اذن لا يوجد سلامة في الأهداف أولاً، ولا يوجد سلامة في القيادة ثانياً، وثالثاً: لا يوجد سلامة حتى في المناهج. هو قتال لكن بطريقة «يا خيل الله اركبي ودوسي صدر الحسين» هل هذا قتال في سبيل الله؟ أو أن رأس الحسين يطاف به في البلدان من بلد إلى بلد ثم يوضع أمام يزيد بن معاوية ثم يضربه بالسوط. إذن هذه مناهج غير سليمة.

اليوم ما يجري في العراق من أعمال قتالية ليس جهاداً في سبيل الله، ما يجري في العراق هو إرهاب بدليل أنه لا سلامة في القيادة ولا سلامة في الأهداف ولا سلامة في المناهج، ثلاثة أمور غير متوفرة فالقيادة هي قيادة أتباع صدام والقتلة البعثيين. فهي ليست قيادة شرعية، وأيضاً لا توجد سلامة في الأهداف فهؤلاء لا يقاتلون في سبيل الله بل يقاتلون من أجل عودتهم للحكم، اذن لا توجد سلامة أهداف وأيضاً لا توجد سلامة مناهج، فإذا كان الهدف هو طرد الاحتلال، اذن ما معنى الهجوم على الجامعات والأسواق والمستشفيات، لقد قتل في هذه العمليات الإرهابية أكثر من خمسة آلاف بريء بين طفل وامرأة والقتل بقطع الرؤوس والتمثيل بهم، هذا لا يمكن أن يعتبر جهاداً في سبيل الله، فالمسلم والمؤمن لا يعمل ذلك بالحيوان فضلاً عن الإنسان، هذا الذي يجري هو إرهاب.

أما رؤيتنا فيجب أن ندخل مرحلة بناء العراق، فبناء العراق هو جهاد في الحقيقة لكن جهاد سياسي واعي ومالي فالיום يجب أن نشارك لبناء هذه البلاد المنهكة والمدمرة، وكل مشاركة منا هو جهاد في الحقيقة، فالناس الذين شاركوا في الانتخابات جاهدوا جهاداً حقيقياً، والذين يشاركون في صلاة الجمعة ويذهبون إلى المساجد والحسينيات وهي مهددة بالخطر فهذا جهاد حقيقي في سبيل الله.

إذن هذا النص الذي يقول: «وجاهدتم في الله حق جهاده» يريد أن يدفع عن أهل البيت عليهم السلام تهمة الاعتزال السياسي والتخلف الجهادي.

قصتان في معركة تبوك:

في معركة تبوك حينما خرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة وترك على المدينة عليّ بن أبي طالب توجد قصتان:

القصة الأولى: إن المنافقين جاءوا وأشاعوا شائعة في المدينة المنورة

أن رسول الله ﷺ أهملَ عليّاً وتركه تشؤماً به، المعركة الوحيدة التي لم يشترك فيها عليّ عليه السلام هي معركة تبوك لأن رسول الله ﷺ أمره أن يبقى والياً على المدينة فلما خرج النبي انتشرت الشائعات أن رسول الله هجره وقلاه وأعرض عنه، ولو كان يحبّه كان أخذه معه، هذه شائعة انتشرت كالنار في الهشيم، إلى مستوى أن عليّاً عليه السلام خرج ملتحقاً برسول الله باكياً، أي أن الهزة السياسية كانت بمستوى أن عليّاً وهو البطل العملاق خرج باكياً يقول: يا رسول الله أنت تركتني في المدينة وأصبحت الشائعات هكذا تقول وهنا جاء حديث المنزلة فقال ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي يا عليّ لا ينبغي أن أخرج من المدينة إلا وأنت فيها» هذا وسام عظيم أعطاه رسول الله لعليّ وسام فيه دلالتان دلالة على موقع الإمام علي، ودلالة على أنه لا يوجد كفوء لقيادة المدينة المنورة بعد رسول الله ﷺ إلا عليّ عليه السلام هذه هي القصة الأولى.^(١)

أما القصة الثانية: في تبوك فهي أن مجموعة من الضعفاء قالوا: يا رسول الله نحن ليس لدينا قدرة أن نخرج معك، الرواية تقول إن هؤلاء لم يكن لديهم نعال يستطيعون أن يستعينوا به على المشي في الرمال الحارة. لكن

كانت قلوبهم مع الجهاد، كما قال تعالى: ﴿قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾^(١).

قالوا: يا رسول الله اما تعطينا أحذية نلبسها أو تركبنا على الخيل.

النبي قال ليس لدي قدرة ارجعوا أنتم معذورون، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع، القرآن يقول إن هؤلاء ليس عليهم عتب فهم معذورون لأن الشرط الثالث في الجهاد وهو شرط القدرة غير متوفر فيهم.

اقرأ لكم الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَمْ يُحْمَلْهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾^{(٢) (٣)}.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) التوبة: ٩٢.

(٢) التوبة: ٩١.

(٣) أنظر: تفسير أبي حمزة الثمالى: ١٩١.

المحاضرة الحادية والثلاثون:

المحافظة على السنة

«حَتَّىٰ أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ، وَبَيَّنْتُمْ فَرَائِضَهُ، وَأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ، وَنَشَرْتُمْ شُرَائِعَ أَحْكَامِهِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ».

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة «وسنتم سنّته» الذي يعني ان
أهل البيت عليهم السلام سنّوا سنة الله تعالى.

ما معنى السنة؟

وما هي سنة الله تبارك وتعالى؟

وكيف أن أهل البيت سنّوا سنة الله تعالى وبأي صورة؟ هذه بحوث
نقف عندها هذا اليوم:

معنى السنّة:

السنّة في اللغة: بمعنى السلوك الثابت والمستمر والذي يتحول من خلال ثباته
واستمراره إلى الأمر الذي يقرّه الانسان ويلتزمه ويتبناه عملياً بنحو دائم وثابت هذا
يسمى طريقة ومنهج وخطة وعادة لا تتغيّر. طبعاً هذه ليست خاصة بالإنسان، فالإنسان له
سنة، الله تبارك وتعالى له سنة، الطبيعة لها سنّة، وهكذا.

الله تبارك وتعالى له سنّة وله أمور قد التزمها وتبناها مع الإنسان
والكائنات الأخرى ومع كل الوجود، القرآن الكريم يشير الى مجموعة من
السنن والقوانين الإلهية.

سنّة الله:

لدينا ثلاثة أمور في القرآن: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ و﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾ و﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾.
فطرة الله: بمعنى الشكل التأسيسي الأول للخلق، حيث أن الله تعالى فطر
الناس على التوحيد وقال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.^(١)

صبغة الله: أي المظهر الخارجي الذي صُبغَ عليه الخلق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١)
 سنة الله: بمعنى القانون الإلهي في الكون قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢)

نماذج من السنة الإلهية:

القرآن الكريم يشرح لنا مجموعة سنن، مثل سنة بعثة الأنبياء حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٣) أي أن الله تعالى يقول لا يمكن أن أعذب أمة من الأمم دون أن أبعث لهم نبياً وأقيم عليهم الحجة هذه قاعدة.

نموذج ثاني للسنة الإلهية هي سنة التغيير كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٤) فإن الله تعالى لا يرفع البلاء عن الناس أو يسلب منهم النعمة إلا أن يغيروا أنفسهم، هذه سنة من سنن الله تعالى.
 ونموذج ثالث قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٥) الذي يؤكد أن الله تعالى يقول عهداً عليّ أن الخائن لا يوفق ولا يهتدي ولا ينجح.
 ونموذج رابع قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٦) هذا قانون إلهي أن كل من على الأرض لا بد أن يموت.

(١) البقرة: ١٣٨.

(٢) الأحزاب: ٦٢؛ الفتح: ٢٣.

(٣) الإسراء: ١٦.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) يوسف: ٥٢.

(٦) الرحمن: ٢٦ و ٢٧.

ونموذج خامس قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١) الله تعالى يقول انا أخذت على نفسي عهداً أنه اذا كان النبي موجوداً فلا ينزل العذاب على الناس وكذلك إذا كان الناس يستغفرون انا أيضاً لا أنزل العذاب عليهم، ولهذا في قصة لوط على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْقَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾^(٢) حيث ان الله تعالى أمر لوطاً بالخروج من قريته، فمجرد أن خرج لوط من القرية نزل عليهم العذاب.

قابلية السنن للتغيير:

أطرح عليكم سؤالاً: ان هذه السنن الإلهية هل هي قابلة للتغيير أم غير قابلة للتغيير؟

القرآن يقول إن السنن الإلهية ليست قابلة للتغيير ﴿لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٣)، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ان الشيء الذي يقدره الله ويجعله سنة، لا يتغير، لكن قد يحدث أحياناً غلبة سنة على سنة وغلبة قانون على قانون. مثلاً القضاء الإلهي يخضع للدعاء.

هذه هي سنة من سنن الله تبارك وتعالى «وبقضاءك المبرم الذي تردّه بأيسر الدعاء»^(٤) فأصبح لدينا إذن قضاء ولدينا دعاء، ويوجد قانون إلهي يقول الدعاء يغلب القضاء، من الممكن افتراض أن الله تعالى قد قدر لهذا الطفل أن يموت لكن إذا دعا أهله دعاءً صالحاً فإن الله تعالى قد يستجيب ذلك الدعاء

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) هود: ٨١.

(٣) فاطر: ٤٣.

(٤) مقطع من دعاء السمات.

وسوف يبقى الطفل حياً، ولا يقول قائل إن الله تعالى قد قدّر له في اللوح المحفوظ أن يموت، فكيف لا يموت؟

الجواب: أنه هناك تزاحم وتغالب بين سنة وسنة أخرى وبين مادة بالقانون ومادة أخرى بالقانون واحدة تغلب الأخرى، فهذا في الحقيقة ليس تبديلاً في السنة الإلهية بل هو خضوع للسنة الإلهية، «الصدقة - مثلاً - تدفع ميتة السوء»^(١) ربما كان مكتوباً أن يموت هذا الشخص بحادث سير لكن جاءت الصدقة فدفعت ذلك، فأطالت عمره هذا يعتبر قانوناً ثانياً أصبح حاكماً على القضاء الإلهي الأول.

قصة حامل الحطب:

مثال ذلك هناك رواية تقول في زمن النبي ﷺ قال النبي للناس: هناك رجلٌ سوف يموتُ غداً، وأصبح اليوم التالي وجاء هذا الرجل في الصباح حياً وهو يحمل رزمة من الحطب فتعجب المسلمون عندما رأوا هذا الرجل الذي قال النبي ﷺ أنه سوف يموت، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له إن الرجل لم يمت فقال النبي ﷺ للرجل افتح حزمة الحطب فلما وضع الحطب على الأرض وانفتحت الرزمة خرج منها أفعى ميت، حيث كان قد ابتلع قطعة من الحطب واختنق بها ومات فسأل النبي ﷺ الرجل ماذا فعلت بالأمس؟

قال الرجل: كان معي رغيفين من الخبز وفي الطريق رأيت كلباً جائعاً ألقيت له قطعة من الخبز، فقال رسول الله ﷺ هذا الذي دفع عنك ميتة السوء،^(٢) هذا في الحقيقة ليس رداً للقضاء الإلهي بل القضاء الإلهي سنة، وسنة الله لا تجد لها تبديلاً لكن قد تدفع سنة بسنة أخرى.

(١) المقنع: ٢٩٥.

(٢) أنظر: الكافي ٤: ٣ / ٥.

الاستثناء من القاعدة:

القرآن الكريم يذكر لنا نموذجاً لاستثناء وخروج عن القاعدة الإلهية الثابتة وذلك في قصة نبي الله يونس على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

القرآن الكريم يقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ﴾^(١) إن الله تعالى يقول إذا نزل العذاب السماوي على أمة من الأمم فلا يتغير، أي ان الإيمان والإسلام في اللحظات الأخيرة لا ينفع، والتوبة إذا نزل الموت لا تفيد، مثل فرعون عندما غرق في البحر قال: اللهم اني تبتُ إليك فلم ينفعه ذلك لأن التوبة يجب أن تكون قبل نزول الموت.

القرآن الكريم يذكر حالة واحدة كان الله تعالى قد استثناءها حيث يقدم لنا نموذجاً للدلالة على أن كل قضاء إلهي يمكن أن يخضع لبعض الشرائط، ويمكن أن يتغير حسب الإرادة الإلهية، فقوم يونس نزل عليهم العذاب وأصبحوا يرون العذاب قد أحاط بالمدينة التي هم فيها، وكان النبي يونس أخبرهم أنه سينزل عليكم العذاب وأنا خارج عنكم قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾^(٢) حيث تركهم واكفهرت السماء، حُمْرَةً مَرَّةً وَصَفْرَةً مَرَّةً وَزَرْقَةً مَرَّةً، فعرف الناس أن العذاب نزل.

القرآن يقول إذا نزل العذاب فلا يرتفع إلا في قصة قوم يونس حيث أنهم آمنوا وضجوا بالبكاء وفي اللحظات الأخيرة قَبِلَ الله توبتهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾^(٣) هذه حالة واحدة يريد أن يجعلها الله لنا كنموذج حتى لا يكون عند الإنسان يأس أنه يمكن حتى في اللحظات الأخيرة أن تُقْبَلَ التوبة.

(١) يونس: ٩٨.

(٢) الأنبياء: ٧٨.

(٣) الزخرف: ٥٠.

القاعدة هي أن لا تُقبل التوبة ﴿فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنْتُ فَتَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾^(١) أي ان القرآن يقول لا توجد قرية تؤمن في اللحظة الأخيرة وينفعها ذلك الإيمان إلا في حالة واحدة جعلها الله نموذجاً ومثلاً للبشرية حتى لا يأسوا وهي حالة قوم يونس.

إذن الله تبارك وتعالى له سنن.

سؤالنا اليوم كيف أن أهل البيت عليه السلام سنوا سنة الله تبارك وتعالى؟

سنة النبي ﷺ وأهل البيت عليه السلام:

قبل أن نتحدث عن سنة الله لدينا سنة رسول الله، بالمقصود بسنة رسول الله؟

سنة أهل البيت ما المقصود بها؟

السنة هي عبارة عن شيء أقره الرسول إما قولاً أو فعلاً أو تقريراً وإمضاءً يعني - مثلاً - كانت سنة رسول الله ﷺ أن يصوم شهر رمضان صياماً واجباً ويصوم شهر شعبان صياماً مستحباً فهذه سنة، وكان علي عليه السلام يقوم بهذه السنة، إن كل ما قاله رسول الله ﷺ كتشريع يُسمى سنة، لأن هذه الأقوال النبوية هي عبارة عن قرار لتشريعات عملية أي أن النبي يعطينا منهجاً لهذا يُسمى سنة، في الحقيقة القول ليس سنة إنما العمل هو السنة، لكن حينما تكون هذه الأقوال هي التي تقرر الطريقة كقوانين سميت الأقوال سنة هذا هو معنى سنة النبي ﷺ القول أو الفعل أو الامضاء.

الفقهاء يقولون السنة عبارة عن قول النبي أو فعل النبي أو إمضاء النبي لفعل معين يجري أمامه ولا ينهى عنه.

أهل البيت عليه السلام سنوا سنة الله تعالى «سننتم سنته»، فالسنن الإلهية:

أولاً: أهل البيت يَبْنُوها لنا.

ثانياً: أهل البيت التزموا بها عملياً.

ثلاثة سنن:

توجد رواية عن الإمام الرضا عليه السلام تقول «لا يؤمن أحدكم حتى تكون فيه ثلاث خصال، سنة من ربه وسنة من نبيه وسنة من إمامه.

أما السنة من ربه فكتمان سرّه _ أي ان المؤمن يكون كتوماً لا يكشف الأسرار سواء الأسرار الدينية أو السياسية أو العائلية فهو ليس من أهل شائعات، فهذه السنة هي صفة إلهية لقوله تعالى: ﴿لَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١) أي ان الله تعالى لا يُطْلِع على غيبه كل الناس وإنما الأسرار بيّنها إلى رُسُلِهِ بل إلى بعض رُسُلِهِ.

السنة الثانية: سنة من نبيه وهي مداراة الناس، فإن النبي كان أحد خصوصياته أن يداري الناس، حيث الإسلام هو دين الرحمة. السنة الثالثة: سنة من إمامه وهي الصبر في البأساء والضراء.

قصة المسيحي الذي صار مسلماً:

في يوم ما كان هناك رجل مسيحي دعاه مسلم إلى الإسلام فأسلم وقال: أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قال: ماذا أفعل؟

قال له المسلم تعال إلى المسجد حتّى نُصلي صلاة الظهر، وكان ما أراد وانتهت الصلاة فقال: لنذهب إلى البيت للغداء.

قال له المسلم: فلنتنظر حتّى نصلي العصر، وبعد إنهاء صلاة العصر قال المسيحي لنعد إلى البيت.

فقال المسلم: انتظر إلى صلاة المغرب فاستجاب له المسيحي وانتظر حتى المغرب وبعد الصلاة قال له المسيحي: فلنذهب إلى البيت، فقال المسلم: فلنتنظر صلاة العشاء، وهكذا انتظر وصلى صلاة العشاء وبعدها ذهب إلى البيت.

في اليوم التالي ذهب إليه المسلم يدعوه إلى الصلاة، فقال له المسيحي من وراء الباب: اذهب إلى غيري ممن لا شغل له وليكن مثلك مسلماً، أما أنا فتركت الإسلام.

هذه في الحقيقة قسوة، ولهذا فإن الإمام الرضا الذي ينقل هذه القصة^(١) يقول: ليس في الصحيح القسوة على الناس في الدعوة بل تعاملوا معهم بلطف.

الأعرابي يدخل الإسلام:

أحياناً كان يأتي أعرابي إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله علمني الإسلام.

النبي لم يشرح له أصول الدين وفروع الدين، بل قال له: لا تكذب.

قال الأعرابي: هذا هو الإسلام؟

قال له النبي ﷺ: نعم.

وذهب الأعرابي وقد أعجبه كلام النبي ﷺ ودخل الإسلام.

أحياناً يقول النبي لمن يسأله عن الإسلام: لا تغضب.

انظروا إلى مداراة الناس، فإن كل شخص يجب أن تعطيه استحقاقه وتلاحظ مدى قابليته، إن من غير الممكن أن كل الناس نشرح لهم الإسلام بتفاصيله فهم لا يتحملون، هذه هي سنة من نبيّه.

أما السنة الثالثة: سنة من إمامه، وهي الصبر في البأساء والضراء.

إن الإنسان المؤمن يجب أن يكون صبوراً أي لا يقول قائل أنا من

شيعة أهل البيت، ولكن أجزع بسرعة، وأخرج عن طوري وعن ديني لماذا الأمور هكذا كانت؟ ليس هكذا يكون الإنسان الشيعي المؤمن، المؤمن يجب أن يكون صبوراً في الضراء والسراء، وبحمد الله تعالى فإن هذا الصبر أصبح من خصائص الشيعة، واليوم فإن ما يجري في العراق هو صبر رائع يقدمه شيعة أهل البيت في المجال السياسي.

ذكرى شهادة الإمام الرضا عليه السلام:

أنقلكم إلى الإمام الرضا عليه السلام حيث أقرأ هنا عدة روايات وبمناسبة ذكرى شهادة الإمام الرضا عليه السلام.

الرواية الأولى: جاء عن الإمام الرضا عليه السلام: «من زارني على بُعد داري، أتيتّه يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى أخلصه من أهوالها، إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان»^(١).

هذه مواقع خطيرة يوم القيامة وهي موقع تطاير الكتب، والعبور على الصراط ثم الميزان حيث يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾^(٢) فهذه الموازين قبل اللحظات الأخيرة وقبل أن يصبح فريق في الجنة وفريق في السعير، توجد هناك موازين توضع للإنسان وتوزن أعماله. الإمام الرضا يقول أنا أحضر في ذلك الموقف وأخلصه.

الرواية الثانية: يقول عليه السلام: «ما زارني أحد من أوليائي عارفاً بحقي إلا شفعتُ له يوم القيامة»^(٣).

(١) كامل الزيارات: ٥٠٦ / ٧٨٩ - ٤.

(٢) القارعة: ٦ - ١١.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٦ / ٢٨٩.

والرواية الثالثة: «إن في خراسان بقعة يأتي عليها زمان تصير مختلف الملائكة، ولا يزال فوج ينزل من السماء وفوج يصعد إلى أن ينفخ في الصور». فقليل له: يا بن رسول الله، وأي بقعة هذه؟

قال: «هي بأرض طوس وهي والله روضة من رياض الجنة، من زارني في تلك البقعة كمن زار رسول الله وكتب الله له بذلك ثواب ألف حجة مبرورة وألف عمرة مقبولة وكنت أنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة»^(١).

التشكيك في فضل زيارتهم:

ما هو الموقف من هذه الروايات؟

هذه الروايات تعطينا يقيناً بالنجاة وشفاعتهم وحضورهم في تلك المواقف.

ما هو الموقف من تلك الروايات؟

هل يمكن التشكيك فيها؟

ربما يقول قائل هذه الروايات غير صحيحة وهي موضوعة ومكذوبة؟

الجواب: لا يمكن أن تكون روايات مكذوبة؟ لأن هذه الروايات متواترة ويقينية وثابتة بما لا يقبل الشك، وليس فقط هذه الروايات بل هناك مئات الروايات بشأن دور العلاقة مع رسول الله ومع أهل البيت وبشأن التوحيد وفضله وبشأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة.

رسول الله ﷺ يقول: «إدّخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٢) وهي ثابتة عند الفريقين (الشيعية والسنة) وهي تؤكد أن المؤمن سيكون ناجياً يوم القيامة بلا شك كما قال: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»^(٣).

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٦/٥.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٠.

(٣) المؤمنون: ١.

لا يمكن التشكيك في هذه الروايات خاصة وأن الكثير من هذه الروايات هي صحيحة من حيث السند، فالناس الذين يروون هذه الروايات هم علماء ثقة، وهي ثابتة في عمدة المصادر الشيعية والسنية وحينئذ هل يعني ذلك أن كل من زار الإمام الرضا وهم ملايين الناس فكلّهم من الناجين؟ أو أن المسألة خاصة بمجموعة من الناس، أي نحمل هذه الروايات على البعض وليس على الكل؟

الجواب: الروايات مطلقة وعامة ولا يمكن تخصيصها بعشرة أو مئة أو أكثر من ذلك، الإمام الرضا عليه السلام يقول: «من زارني على بُعد داري» ومثلها من زار رسول الله وأمير المؤمنين ومن زار الإمام الحسين عليه السلام، أن نحمل هذه الروايات على حالات خاصة فإن هذا ما لا يتحمّله صريح الروايات.

أنواع الزيارة:

هناك ثلاث زيارات، زيارة العوام وزيارة الخواص وزيارة أخصّ الخواص.

زيارة العوام: هي زيارة معظم الناس وهي أن تسلّم على الإمام وتصلّي ركعتين وينتهي الأمر.

أمّا زيارة الخواص: فهي أن يجلس بعد وضوء وطهارة وغسل ويزور الزيارة الجامعة بخشوع وتوجّه كامل ثم يؤدي الصلاة والدعاء بعد الزيارة هذه هي زيارة الخواص.

أمّا زيارة خواص الخواص: بحيث يصل إلى مستوى الحديث مع الإمام، وربما يسمع جواب الإمام.

الشيخ الطوسي مؤسس الحوزة العلمية في النجف الأشرف والذي دفن في بيته وأصبح فيما بعد مسجداً، كانت زيارته من نموذج زيارة أخصّ الخواص، حيث كان لا يكثر الذهاب إلى مرقد أمير المؤمنين بالرغم من أن

بيته قريب من المرقد الشريف، ولما سئل عن ذلك، يا شيخنا الطوسي يا محمد بن الحسن لماذا تذهب لزيارة أمير المؤمنين مرة في الأسبوع لا أكثر. فقال لهذا السائل: أنت عندما تذهب للزيارة هل تسمع جواب الإمام؟ قال السائل: لا.

قال له الشيخ: تعالَ معي إلى سطح الدار، وسَلَّم الشيخ الطوسي قائلاً: «السلام عليك يا أمير المؤمنين»، وإذا به يسمع الجواب: «وعليك السلام يا شيخنا»، وهنا قال الشيخ للسائل: صحيح أنا جالس في البيت ومشغول في خدمة الدين والمذهب لكن أنا هكذا زيارتي.

عجبا هذه الرواية التي تقول: «من زارني على بُعد داري أتيتَه يوم القيامة» هل هذه خاصة فقط بأخص الخواص، وبقيّة الناس لا يحصلون على شيء؟! هناك مئات الروايات في شفاعتهم لمن زارهم، «من زارني كنت أنا وآبائي شفعاء يوم القيامة»، فهل إن عشرات من الناس مشمولين بها فقط؟

هذا غير ممكن لأن الروايات فيها تعميم وفيها إطلاق يشمل كل هؤلاء الزوار، الجيد أو غير الجيد، لا بد أن يكون له هدية الزيارة وثوابها، هذه الروايات في الحقيقة تشمل زيارة العوام وليس فقط زيارة الخواص وخواص الخواص فهؤلاء جميعاً زيارتهم مقبولة والشفاعة من وراءهم أن شاء الله.

هل يمكن أن يقول قائل: إن هذه الروايات مذكورة على سبيل التشويق والمبالغة؟

الجواب: لا يمكن، هذه الروايات لا يمكن حملها على سبيل التشويق والمبالغة والمجاملة وإلا سوف تكون خداعاً للناس، ان مئات الروايات تؤكد على سبيل اليقين نجاة الزائر وحضور أهل البيت عند مماته.

روايات مضادة:

هذه الروايات يقينية تشمل الجميع، لكن تبقى عندنا مشكلة أخرى وهي ان هذه الروايات معارضة بنوع آخر من الروايات نذكر منها نموذجين:

النموذج الأول: الروايات التي تقول: «لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة»^(١) هذه أيضاً روايات يقينية ثابتة، إذن أصبحت تلك الروايات مشروطة بشروط أحدها أداء الصلاة.

النموذج الثاني: الرواية التي تقول: «ما شيعتنا إلا من اتقى الله»^(٢) فبعض الناس يفقدون التقوى وهم غير ملتزمين بالأحكام الشرعية مئة بالمئة، إذن هذه الروايات تعارض تلك الروايات.

كيف نحل مشكلة التعارض؟

من ناحية فإن الروايات تبشر الزائر بالشفاعة وحضور أهل البيت عند قبره وحشره ونشره، ومن ناحية أخرى الروايات تقول لا تنال شفاعتنا مستخفاً بالصلاة.

يوجد حلّ واحد ذكرته بعض الروايات تقول: «إنني لا أتخوف عليكم النار وإنما أتخوف عليكم البرزخ»^(٣) أي ان الإمام عليه السلام يقول أنتم بالتأكيد معنا يوم القيامة لكن المشكلة هي فيما قبل يوم القيامة، أما يوم القيامة فالروايات تقول: «والله لا يدخل النار منكم عشرة رجال _ ثم تقول _ والله لا يدخل النار منكم واحد»^(٤) هذا عند العرض على الله تعالى لكن «إنما أتخوف عليكم من البرزخ».

(١) الكافي ٣: ٢٧٠ / ١٥.

(٢) الكافي ٢: ٧٤ / ٣.

(٣) منازل الآخرة: ١٦١.

(٤) أمالي الطوسي: ٢٩٦ / ٥٨١ - ٢٨.

ما هو البرزخ؟

البرزخ: مرحلة ما بين الدنيا والآخرة، ما بعد الموت إلى يوم القيامة، يمكن أن تطول ألف سنة أو آلاف السنين أو ملايين السنين وعلم ذلك عند الله وحده، فالخطر هنا، فشاعة أهل البيت يوم القيامة محفوظة لكن ما قبل أن نصل إليهم ماذا نعمل؟ هل عندنا ضمان أن شفاعتهم تصل إلينا في اللحظة الأولى؟

لا يوجد لدينا ضمان، صحيح لدينا ضمان بشفاعة رسول الله لكن الخطر في فترة البرزخ وقبل يوم القيامة هذه الشدائد والمخاطر في القبر. في الحقيقة فأني اذكر لكم هذه الروايات كبشارة يقينية بالنجاة يوم القيامة، لكن أئمتنا يطلبون منا ان نحتاط للبرزخ.

* * *

نموذج صبر الامام الحسين في يوم عاشوراء.

لاحظوا هناك صبر على الطاعة وصبر على المعصية وصبر على المصيبة، الإمام الحسين عليه السلام كل هذه الأنواع جسدها في عاشوراء، صبرٌ على الطاعة فالإمام الحسين يوم عاشوراء اجتمع لحربه ثلاثون ألفاً لكن مع هذا عندما حان وقت الصلاة قام يصلي، إن هذه طاعة في أشد الظروف وهذا هو الصبر على الطاعة.

وصبر على المعصية فحينما أغراه ابن زياد بالأمان والتسليم ليزيد سقطت كل تلك الاغراءات أمام الإمام الحسين، فالإمام غير مستعد أن يتنازل للأعداء. وصبرٌ على المصيبة فإن أشد ما يكون الصبر هو صبر الإمام الحسين، من أعظم الصبر الصبر على فقدان الأحبة. الامام الحسين يجلس عند ولده علي الأكبر يقول: «على الدنيا بعدك العفى».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثانية والثلاثون:

القضاء الإلهي

«وصرتم في ذلك منه إلى الرضا وسلّمتم له
القضاء وصدقتم من رسله من مضى».

حديثنا هذه الليلة في سلسلة الأحاديث في شرح الزيارة الجامعة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام عن هذا المقطع من الزيارة «وسلّمتم له القضاء» التسليم للقضاء الإلهي، هذا هو وصف لأهل البيت عليهم السلام، حينئذ يجب أن نعرف معنى القضاء، لغةً وقراناً وفقهاً، ثمّ فلسفة التسليم لله تبارك وتعالى ومنزلة ذلك في الإسلام، ثمّ كيف كان أهل البيت قد سلّموا الأمر، إضافة إلى نقاط تأتي في طيات البحث.

هذه مجموعة أبحاث.

البحث الأول: معنى القضاء:

القضاء في الفقه له معنى، وفي القرآن له معاني أخرى.

الفقه حينما يتحدث عن القضاء فهو يعني القضاء في مقابل الأداء، تقول قضاء الصلاة في مقابل أداء الصلاة، بمعنى الإتيان بشيء في خارج مواعده هذا يسمى بالقضاء في الفقه مقابل الأداء وهو الإتيان بالشيء في مواعده الزماني. كما تستعمل كلمة (القضاء) في الفقه في مجال الحكم وحل المنازعات.

معاني القضاء في القرآن:

لكن القرآن يتحدث عن معاني أخرى وهنا الزيارة أيضاً نتحدث عن معاني أخرى.

القضاء في القرآن الكريم يأتي بمعان ثلاثة:

المعنى الأول: القضاء التشريعي:

وهو يعني حكم الله تعالى في الشريعة، القرآن الكريم يقول: ﴿وَقَضَى

رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^(١) يعني ان الله تعالى شرّع ذلك، إصدار الحكم التشريعي يسمى قضاء.

مثلاً قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(٢) أي أن الله تعالى إذا قضى بشيء أو رسول الله أمر بشيء فإنه لا يجوز للمؤمنين أن يكون لهم رأي آخر، هذا هو القضاء التشريعي.

المعنى الثاني: القضاء التكويني:

يعني أن الله تعالى يقدّر الأمور تقديراً ويكونها تكويناً، هكذا يقول سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) هنا القضاء ليس بمعنى تشريع وجوب الصلاة والصوم، وإنما بمعنى التقدير التكويني، قضى أن يعيش هذا الإنسان وقضى أن يموت هذا الإنسان أو أن يكون غنياً أو فقيراً. القرآن الكريم أيضاً يقول عن خلق السموات والأرض ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾^(٤) المقصود هنا ليس القضاء التشريعي أي حَكَمَهُنَّ سبعة، كلاً، وإنما أوجدَهُنَّ سبعة، فقضاهن بمعنى خَلَقَهُنَّ، وبمعنى القرار التكويني والقضاء الخَلْقِي.

المعنى الثالث: الانتهاء:

انتهى الشيء، يقول القرآن الكريم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾^(٥) هذا ليست بمعنى الحكم التشريعي ولا بالمعنى التكويني، لكن بمعنى انتهى، وكذا قوله في سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَاتَّسِرُوا فِي

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) البقرة: ١١٧؛ آل عمران: ٤٧؛ غافر: ٦٨.

(٤) فصلت: ١٢.

(٥) الأحزاب: ٢٣.

الأرض^(١)، قُضِيَت الصلاة ليس معناها أنكم صليتموها قضاءً كما في الاستعمال الفقهي، هنا قُضِيَت الصلاة بمعنى أدَّيتموها وانتهت. هذه معاني القضاء في القرآن الكريم.

تسليم أهل البيت عليه السلام:

والآن نصل إلى معنى «وسلِّمتم له القضاء» ما معنى أن أهل البيت سلِّموا له القضاء؟

يعني التسليم لله تعالى في الأحكام التشريعية والأحكام التكوينية، الله تعالى إذا قرَّر شيئاً تشريعياً فإن المؤمن يجب أن يسلم تسليماً، والله تعالى إذا قرَّر شيئاً تكوينياً فإن المؤمن أيضاً يجب أن يستقبل ذلك ولا يعترض عليه. «ولا راد لقضائك» هذا المعنى هو المقصود بقوله: «سلِّمتم له القضاء» يعني الرضا والتسليم بما يصدر من الله تعالى، صدر من الله تعالى أن نصوم شهر رمضان نقول لبيك اللهم، أو صدر من الله تعالى قرار أن يكون هذا الإنسان غنياً وهذا فقيراً يجب أن تقبل نقول التسليم لقضاء الله تبارك وتعالى لا راداً لقضائه ولا معترض لصنعه، ولا تقول لماذا هذا حدث هذا فتكون معترضاً على الله تعالى.

كلما ازداد الإنسان إيماناً كلما كان رضاه بقضاء الله أكثر، حتى لو كان القضاء مرأً وصعباً، هو يقول الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، إن لغة الاستفهام والاعتراض على الله تعالى غير موجودة لدى الإنسان المؤمن.

الإسلام والتسليم:

في الرواية عن أمير المؤمنين في فضل التسليم لله تعالى أنه عليه السلام قال:

«لأنَّسِنَ الإسلامَ نسبةً لم ينسبه أحدٌ قبلي ولا ينسبها أحدٌ بعدي، الإسلام هو التسليم» لاحظوا هذا التآلف بين معنى الإسلام ومعنى التسليم، يعني ذلك إن الذي يعترض على الله ويسخط على الله تعالى فإن لديه درجة من درجات الشرك والكفر، «الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح»^(١).

أنظر للربط «إسلام وتسليم» لكن هذا يعطينا نتائج بعكس ما يتصوره بعض الناس أن التسليم يعني الاستسلام.

أمير المؤمنين يقول التسليم هو اليقين يعني الثقة بالله، أنظر كيف تحول التسليم إلى عمل، وهذا ما سوف نتحدث عنه في الربط بين التسليم والتوكل، والتضاد بين التسليم والاستسلام.

التسليم له منزلة عظيمة في الإسلام، التسليم بما يصدر من الله تعالى تشريعاً أو تكويناً ولهذا القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾^(٢) لاحظوا الربط بين التسليم والإحسان ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التسليم له مثل هذه الفضيلة في الإسلام.

قيل للإمام الصادق عليه السلام: بأي شيء عِلِمَ المؤمن أنه مؤمن؟

فقال عليه السلام: «بالتسليم لله، والرضا بما ورد عليه من سرور أو سخط»^(٣).

قصة العابد في زمن موسى عليه السلام:

أنقل لكم قصة ذلك العابد.

تقول القصة إن موسى عليه السلام أراد أن يتفقد الناس فهبط عليه جبرائيل

(١) نهج البلاغة: قسم الكلمات القصار/ رقم ١٢٥.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) الكافي ٢: ١٢/٦٣.

وأخذ بيده ليدله على أفضل العباد، وأخذه إلى قرية من القرى وإذا رجل أعمى ومزمن (أي مقعد) جالس في الباب ويسبح قائلاً: يا بار يا وصول.
جبرائيل قال لموسى: هذا أفضل العباد، تعجب موسى فقال له جبرائيل إصغ له، أصغى له موسى فسمعه يقول: (يا بار يا وصول).

موسى قال له: أيها الشيخ أنت تقول: (يا بار يا وصول) ماذا أعطاك الله تعالى؟ قال له: اسمع يا هذا وهو لا يعرف أن هذا هو نبي الله موسى: إن الله تعالى كان قد وهبني عينين، لكن رآني وأنا شاب أعصي بهذه العينين فبدل أن أعذب بجهنم أخذ الله تعالى عيني، وكان عندي رجلين فرأى الله تعالى أنني لا أعمل بهما عملاً صالحاً، فأخذهما مني، ثم أزيدك يا هذا أعلم أن هذه القرية التي أنا بها لا يوجد بها واحد مؤمن بالله غيري لقد منّ الله عليّ ورزقني الإيمان، إذن لماذا لا أقول: (يا بار يا وصول)^(١)؟ لاحظوا كيف أن المؤمن ينظر إلى الأشياء نظرة حقيقية، هذا الإنسان نفسه لو كان ضعيف الإيمان لكان يكفر بالله، لكن هو حولها إلى نعم وألطف.

وفي حديث آخر قال الصادق عليه السلام: «إذا قال العبد ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله ﷻ ملائكتي استسلم عبدي اقضوا حاجته»^(٢).

دعاء الصباح والمساء:

هناك دعاء يستحب أن نقرؤه يومياً عشر مرات صباحاً وعشر مرات مساءً وهو أن تقول:

«أعددت لكل هولٍ لا إله إلا الله، ولكل همٍّ وغمٍّ ما شاء الله، ولكل نعمة الحمد لله، ولكل رخاءٍ الشكر لله، ولكل أعجوبة سبحان الله، ولكل ذنبٍ

(١) أنظر: مستدرک سفينة البحار ٤: ١٥١.

(٢) المحاسن ١: ٤٢ / ٥٣.

أستغفر الله، ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، ولكل ضيق حسبي الله، ولكل قضاءٍ وقَدَرٍ توكلت على الله ولكل عدو اعتصمت بالله، ولكل طاعة ومعصية لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكل عدو اعتصمت بالله»^(١).

هذه إحدى عشر حالة وإحدى عشر كلمة، كل حالة لها لباس مخصوص، الدعاء يقول: أيها الإنسان إن أحد عشر حالة تمر عليك إما مصيبة أو نعمة أو رخاء أو غيرها ولكل واحدة لها علاج معين ووقاية معينة وموقف معين.

محل الشاهد في هذا الدعاء هو قوله: «ولكل قضاء وقدر توكلت على الله». التسليم إلى الله تعالى بالقضاء يجب أن يكون إلى جانبه توكل على الله وعمل وجدية وملاحقة وإنجاز، وليس تسليم الهارين، ولهذا يقول الدعاء: «لكل قضاء وقدر توكلت على الله»، يعني سوف أقاوم وأعمل حتى أغير هذا القضاء لصالح الإرادة الحقّة لله تبارك وتعالى، هذا بحث سوف أتناوله في الربط بين القضاء والتوكل على الله تعالى.

جواب لكل سؤال:

هنا يوجد حديث مهم تطرحه المدينة الحديثة، تقول الحادثة إنها تُبنى على أساس رفض التسليم المطلق والمطالبة بجواب لكل موقف ولكل تشريع، حين تقول الصلاة واجبة يجب أن تسأل لماذا واجبة؟ وحين تقول لحم الخنزير حرام كذلك لماذا حرام؟ كما هو الموقف مع حوادث الطبيعة، حين يحدث فيضان أو زلزال تسأل لماذا حدث؟ ومن غير الممكن في الحادثة ترك الأمور للتعبّد، وأن نقول هكذا أراد الله، الربا حرام لأن الله قال حرام، لماذا؟ ابحثوا عن العلل، الحادثة تقول ابحثوا عن علل التشريعات وعلل الظاهرة الطبيعية ولا نقبل بالتسليم.

هذا الموضوع يطرح الآن لإيجاد تضاد بين الدين والحداثة، وبالتالي يقال: إما أن يكون الإنسان متديناً وبذلك يكون متخلفاً أو يكون متقدماً إذن يجب ترك الدين، هذا أيضاً في الحقيقة أطره بشكل مبسط.

هذا في الحقيقة مغالطة وجوابه هناك تسليمان:

التسليم العلمي والجهلي:

تسليم مقبول هو التسليم العلمي، وتسليم مرفوض وهو التسليم الجهلي.

الآن في المدنية الحديثة يمارسون هذا الأمر، يوجد تسليم مرفوض مثل أن تسلم للخرافات وللكتشافين والأساطير والمنجمين، التسليم بهذا المعنى مرفوض من قبل الإسلام، بل يعتبره حراماً أن تسلم الأمور للمنجمين والسحرة والأساطير، التسليم للجهل حرام والتسليم للخرافة حرام، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، المدنية أيضاً تقول: إن التسليم بالخرافة والجهل حرام.

لكن التسليم المقبول في الإسلام وفي المدنية الحديثة، هو التسليم للعلم ولذوي الاختصاص الذين تثق بهم، في الطب والفلسفة وفي علم الفلك وفي البيئية.

اليوم العالم المتقدم كله يدعو للتسليم لذوي الاختصاص، لا يوجد شيء بدون اختصاص، لا بد من وجود خبير، العالم اليوم هو عالم التسليم للخبراء، في علم النفس، في الاقتصاد، وهكذا، هذا يعني التسليم لذوي الخبرة.

هذا التسليم مقبول بل هذا علامة التقدم.

الإسلام يرفض التسليم للأساطير والخرافة، ويريد التسليم للعلم وذوي الخبرة.

من هم أصحاب الخبرة؟ إذا كان التشريع منطلقاً من البرلمان نرجع للبرلمان، وإذا كان التشريع من الله تعالى نرجع إلى الله، فالتشريع مرة يكون من الإنسان وحينئذ يجب أن نرى المجالس القضائية ماذا شرعت؟ والبرلمانات ماذا شرعت؟ أما إذا كان التشريع إلهياً فيجب أن نرجع إلى

الوحي، وماذا ينقل من الساحة الإلهية؟ هنا يأتي دور التعقل والرجوع لذوي الخبرة، وهذا هو أساس المدنية الحديثة، أن نرجع لذوي الاختصاص، أنا ليس من ذوي الاختصاص حتى تسألني، ممكن أجيبك وممكن أن تقتنع أو لا، حتى النبي ليس لديه جواب أحياناً ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) يجب أن تقبلوا فالقضية إلهية، ولهذا القرآن يعتبر علامة المؤمن التسليم للقضاء الإلهي، ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ إِذَا قُضِيَ إِلَيْهِ أَمْرٌ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٢).

نرجع إلى موضوعنا ونعبر مسألة الحادثة.

التسليم مقبول والاستسلام غير مقبول، أن تقول إن الله تعالى خلقني فقيراً فماذا أفعل؟ الإسلام لا يقبل بهذا بل يقول اعمل.

من سألنا أعطيناه:

اذكر لكم قصة رجل تزوج وهو فقير وضعيف الحال، فقالت له زوجته اذهب واسأل رسول الله.

جاء إلى النبي ﷺ وأراد أن يسأله فمنعه الخجل، ولكن النبي قال له مباشراً «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله»^(٣) فرجع إلى زوجته فأخبرها بما قاله النبي، وسألها ماذا تقولين قالت فلننتظر، انتظروا يوماً واثنين وثلاثة ثم قالت له اذهب مرة ثانية فذهب وبمجرد أن وصل إلى النبي ﷺ التفت النبي له وقال: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله». رجع إلى زوجته وحكى لها القصة، وصبر يوماً ويومين، ثم رجع إلى النبي فأعاد النبي عليه نفس القول،

(١) الإسراء: ٨٥

(٢) الأحزاب: ٣٦

(٣) فقه الرضا عليه السلام: ٣٦٥.

فرجع إلى زوجته وقال سوف لن أعود وأسأل النبي أبداً، وذهب واستقرض معولاً وخطب به وجاء الظهر وباع الحطب بدرهم وذهب اليوم الثاني أيضاً وباعه بدرهمين وسدد القرض، وتحسن وضعه المعاشي، وبعد أسبوع رجع إلى النبي ليروي له القصة، فقال له النبي قبل أن يتكلم ألم أقل لك من سألتنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله؟

التسليم يعني الرضا بنتيجة المعركة، والتعريف النهائي للتسليم هو أنك تدخل المعركة لكن ترضى بالنتيجة وتقول إلهي لك الحمد. لا تنهزم من المعركة، الأنبياء والأئمة دخلوا المعركة، لمّا قتلوا سلّموا تسليماً، ولمّا سجنوا سلّموا تسليماً لكن لم ينهزموا من المعركة، التسليم معناه الخوض في المعركة والقبول بنتائجها وعدم الاعتراض على الله تعالى.

تسليم الأئمة عليهم السلام:

أختم الحديث بنموذج أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول: «فطفقت ارتشي بين أن أصول بيد جذى _ أي يدي مقطوعة ليس لدي أنصار _ أو أصبر على طخية عمية _ أي على فتنه شديدة عمية _ فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى» رأيت أن أصبر، لكن مع هذا الصبر فإن أمير المؤمنين قد عمل وجاهد «اشهد انك جاهدت في الله حق جهاده».

أمير المؤمنين عمل عملاً شديداً لكن رضي بنتيجة المعركة.

كان يأخذ الزهراء عليها السلام _ وهذه أيام شهادتها _ على حمار ويطوف بها بيوت الأنصار، يحدثهم بحقه والزهراء تحدثهم، فكلّ يقول لها يا بنت رسول الله قد سبقت منا البيعة لهذا الرجل، لاحظوا في المعركة السياسية كانت الزهراء كسيرة الضلع وهي امرأة لكن لم يمنعها ذلك من الدخول في المعركة السياسية، كانت تطلب النصرة لعلي وهم يقولون لها يا بنت رسول

الله قد سبقت منا البيعة لها الرجل،^(١) يوجد نص روائي يُحرق القلب ألماً لظلامه أمير المؤمنين.

الرواية تقول: إن أمير المؤمنين عندما كان يأخذ الزهراء إلى بيوت الأنصار كان يتخفى ورائها ويقدمها أمامه لأن الأنصار لا يستجيبون لعلي، لكن ربّما لأجل رسول الله ﷺ يستجيبون للزهراء حياءاً، علي الذي قام الإسلام بسيفه، علي أخو رسول الله، الرسول الذي قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وقال: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، لكن بعد أيام من وفاة رسول الله ﷺ ها هو يقود الزهراء ويتخفى وراء الزهراء، هذه ظلامه أهل البيت في التاريخ الذي ظلم رسول الله ﷺ وأهل البيت عليه السلام.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثالثة والثلاثون:

القضاء والقدر

الثابت والمتغير

«وسلّمت له القضاء وصدقت من رسله من مضى».

حول هذا المقطع من الزيارة «وسلّمت له القضاء» لدينا حديثان:
حديث فلسفي، وحديث تاريخي.
الحديث الفلسفي: في فلسفة القضاء والقدر في الإسلام.
والحديث التاريخي: في فترة سليمان.

بحث في القضاء والقدر:

هذا كله استمرار عن حديثنا في المحاضرة السابقة من الزيارة الجامعة «وسلّمت له القضاء»، حديثنا الأوّل وهو الفلسفي وهو عن القضاء والقدر في الإسلام.
القضاء والقدر مفهومان يشكّلان معتقداً إسلامياً مهماً ويوجد خمس نقاط تكوّن الصورة التفصيلية عن مفهوم القضاء والقدر في الإسلام.

المفهوم الإجمالي للقضاء والقدر:

المعنى الإجمالي للقضاء والقدر يعني أن هذا الوجود يخضع لأمرين:

أولاً: يخضع لإرادة إلهية.

ثانياً: يخضع لقانون.

هذه خلاصة الفكرة، أن هذا الوجود بدءاً من خلق الإنسان إلى خلق الكائنات الأخرى إلى سائر ما يجري على البشر ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكُورُ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾^(١) كل التقديرات التي تجري على البشر ﴿يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ هذه كلها إنما هي أولاً: من خلال إرادة إلهية وثانياً: من خلال قانون وضوابط.

يعني الإسلام يقول في فلسفة القضاء والقدر إن الكون والوجود ليس فوضى، وإنما مثاله مثال الجامعة التي يدخل فيها الطالب فمنهم من ينجح ومنهم من يرسب ويتخلف وذلك كله وفق قوانين وإرادة لكن هذه الإرادة تجري وفق قوانين وليس القضية فوضوية.

لماذا أعطى الله لهذا ذرية ولم يعط لآخر؟

هل هذه القضية فوضوية وعَبَثِيَّة؟ أم أن هناك إرادة إلهية وتصميماً هندسياً، وفق معادلات هندسية ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١) هذه هي فكرة القضاء والقدر، هي فكرة جميلة وأساسية.

نحن حين نعتقد بالله خالق الكون، الله العادل السميع البصير العليم الخبير، هل نعتقد أن هذا الكون فوضى مثل كومة رمل ألقاها الله تعالى وأهملها. هذا لا يناسب إيماننا بالتوحيد وبالله البارئ الخالق المصور المَلِك القدوس، إن من غير الممكن أن يعيش هذا الكون في حالة فوضى وبدون إرادة وبدون هندسة، ستجدون أن هذه الفكرة هي من أجمل الأفكار وستجدون أن التوحيد بدون الإيمان بالقضاء والقدر يعني إساءة إلى الله تعالى، يعني أن الله غير مدبر الأمور تدبيراً صحيحاً جميلاً. مثلاً إذا دخلت إلى مزرعة وصاحب المزرعة رجل خبير وصاحب ذوق فهل هذا أفضل وأجمل أم حين تدخل إلى مزرعة فوضى ومجموعة أشواك؟

الله تعالى يقول أنا مدبر، أنا أسيرك، وهذا الوجود كله وفق إرادة وقانون.

القضاء يعني إرادة الله، والقَدَر يعني الهندسة وتقدير الأشياء.

إذن القضاء والقدر يعني الإرادة الهندسية في صنع الأشياء.

هذه هي الصورة الاجمالية عن القضاء والقدر.

لكن بصورة تفصيلية يوجد لدينا خمسة أمور تكمل الصورة التفصيلية لها.

الصورة التفصيلية للقضاء والقدر:

الأمر الأول: لا يكون شيء في الوجود إلا بقضاء وقدر إلهي، أي لا المخلوق يُخلق ولا الميت يموت ولا الغني يكون غنياً ولا غير ذلك، إلا بإرادة وقانون إلهي، بقضاء وقدر إلهي ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِتَ الَّذِينَ * وَالَّذِي يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾^(١).

علماؤنا مثل العلامة الكليني في كتاب أصول الكافي وهو من الكتب المهمة جداً يخصص باباً في أنه لا يكون شيء في الوجود إلا بسبعة أمور إذا تهيأت هذه الأمور السبعة يتحقق ذلك الشيء، لا ينزل المطر ولا تشرق الشمس ولا غير ذلك إلا إذا تهيأت الشروط، هذه الشروط السبعة عبارة عن المشيئة الإلهية وإرادة وقضاء وقدر وإذن من الله تبارك وتعالى وأجل وكتاب^(٢).

القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣) كل شيء حتى ورقة الشجر التي تسقط.

أيضاً يقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٤) كل شيء في الوجود أصله وخزائنه عند الله ومن هناك ينزل تنزيلاً، كما نقول أن كل قطرات المطر هي بالأصل موجودة في السحاب ثم تنزل وتقطر تقطيراً، الله تعالى يقول كل هذا الوجود خزائنه موجودة عندي، ومن تلك الخزائن ننزلها إلى الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَا تَحْمِلُ مِنْ أَمْرٍ وَلَا تَنْصَحُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا

(١) الشعراء: ٨٠ و ٨١

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام: لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبع: بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل، فمن يزعم أنه يقدر على نقض واحده فقد كفره الكافي ١: ١٤٩/ ح ١.

(٣) القمر: ٤٩.

(٤) الحجر: ٢١.

يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ»^(١) هذه هي المادة الأولى أن كل شيء لا يكون إلا بقضاء وقدر.

الأمر الثاني: في المعتقد الإسلامي أنه لا يكون شيء إلا ذاك الذي قدره الله وما لم يقدره الله لا يكون وذلك قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) وكما نقرأ في الأدعية «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

الأمر الثالث: أن القضاء والقدر الإلهي يقبل التغيير، وليس قضايا ثابتة لا تتغير، أيضاً كما أن المهندس يهندس بيتاً لكن الخريطة قابلة للتغيير.

الله تعالى يقول أنا عندي هندسة للكون لكن إذا وفّرتم شروطه يكون هذا الذي أنا أرسمه أما إذا لم تتوفروا شروطه فاني أرسم لكم شيئاً آخر. وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

الأمر الرابع: العدالة الإلهية في القضاء.

من حقكم أن تسألوا لماذا قضى الله تعالى على هذا الإنسان أن يكون قبيحاً أو مريضاً أو عاصياً، مشركاً، إذن أين العدالة الإلهية؟ الإسلام يقول القضاء الإلهي عادل ﴿لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤) صحيح أن هذا جميل أو هذا مريض أو لهذا ذرية وذاك لا ذرية له، لكن هذا كله وفق عدالة إلهية.

العدالة الإلهية على سبيلين:

السبيل الأول: أن هذا استحقاق، أي إن حق الشوك أن يكون في الصحراء، واستحقاق الحنظل أن يكون مُرّاً، ذاتيات الأشياء، الله يعطي كل شيء ما يستحقه حسب ذاته، هذا استحقاقه التكويني.

(١) فاطر: ١١.

(٢) يس: ٨٣.

(٣) الرعد: ٣٩.

(٤) الكهف: ٤٩.

السبيل الثاني: إن هناك تعويضاً أي إن الله تعالى هذا الذي جعله مريضاً في الدنيا سوف يجعله صحيحاً في الآخرة أي سوف يعوّضه. إذن العدالة محفوظة.

قصة ذي النمرة:

في قصة ذي النمرة أنه رجل كان قبيح المنظر جداً بحيث لا تقبل به امرأة، هذا الرجل في زمن رسول الله ﷺ وعندما جاء الإسلام أصبح مسلماً.

قال لرسول الله: علّمني الإسلام.

علّمه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

قال: ماذا بعد يا رسول الله؟

قال: تصلي خمس فرائض في اليوم وتصوم شهر رمضان.

فولّى مدبراً وتشهد الشهادتين وقال: والله لأصلي الصلوات الخمس ولا أزيد ركعة واحدة، لماذا خلقتني قبيحاً بهذا الشكل، فهبط جبرائيل على

الرسول ﷺ قال: يا رسول الله قل لذي النمرة ألا ترضى أن يجعلك الله يوم القيامة على جمال جبرائيل؟

رسول الله فرح بذلك وقال له: إن جبرائيل يقول: إن الله يجعلك على جمال جبرئيل يوم القيامة فهل ترضى؟ قال: رضيت، لأصلين له حتى يرضى.

هذه هي فكرة عدالة القضاء الإلهي.^(١)

الأمر الخامس: القضاء خير للمؤمن، كلما يقضيه الله للمؤمن هو خير له، مثل مرض، أو سجن أو تشريد فكل هذا خير للمؤمن.

يوماً ما رسول الله ﷺ ضحك حتى بانّت نواجذه (أسنانه) والمسلمون خجلوا أن يسألوا الرسول ﷺ لماذا ضحكت؟ ثم سألهم: ألا تسألوني لماذا

ضحكت؟

قالوا: بلى يا رسول الله لماذا ضحكت؟

قال: «عجبت للمسلم ليس له من قضاء يقضي الله ﷻ إلا كان خيراً له في عاقبة أمره»^(١).

يعني رسول الله ﷺ يرى المسلم المؤمن فقيراً مريضاً لكن رسول الله ﷺ يضحك يقول هذا له خير يوم القيامة، ويكون له أجر كبير بحيث يتمنى هذا المسلم أن يرجع إلى الدنيا ليكون مرة أخرى فقيراً ومريضاً حتى ينال أجراً كبيراً.

عوامل تغيير القضاء الإلهي:

ذكرنا أن القضاء الإلهي قابل للتغيير.

لكن ما هي العوامل لتغيير القضاء الإلهي؟

كيف يتغير القضاء الإلهي؟

الجواب: هناك عدة عوامل في تغيير القضاء الإلهي.

العامل الأول: الدعاء يغير القضاء الإلهي كما جاء في الدعاء المعروف بدعاء السمات: «وبقضائك المبرم الذي تردّه بأيسر الدعاء» حيث جاء في الروايات أن الدعاء يرد القضاء الإلهي المبرم.

وهناك رواية تقول إن الله أوحى إلى نبي من الأنبياء أن أخبر الملك (ويبدو أنه كان ملكاً عادلاً) أن الله تعالى مقدّر له من العمر كذا عاماً وسوف يأخذ عمره بعد ذلك.

قصة التمديد في عمر الملك:

النبي أخبر الملك، ولما سمع الملك ذلك تضرّع إلى الله تعالى بالدعاء حتى سقط من السرير من كثرة البكاء، قال: إلهي أمدد في عمري وفي ملكي حتى يشب ولدي ويكون وريثي في الملك.

الله تبارك وتعالى أهبط جبرائيل على نبيه قائلاً إذهب إلى الملك وقل له إن الله تعالى مدّ في عمرك خمسة عشر عاماً حتّى يكبر ابنك ويكون بمكانك.
النبي قال: إلهي أنا لم أكذب بعمرى ولا مرة واحدة وقد قلت له قبل يوم أنه سيموت، فكيف أذهب وأقول له ما زال لديك خمسة عشر سنة.
فأوحى الله إلى ذلك النبي إنما أنت عبد مأمور.^(١)
الله تعالى غيّر القضاء الإلهي استجابة للدعاء.
لهذا نجد أن الأنبياء سنّوا لنا سنّة الدعاء.

الأنبياء يدركون أن القضاء يتغير بالدعاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.^(٢)

دعاء زكريا:

أقرأ لكم دعاء نبي من الأنبياء لأنّ له معنى ومدلول كبير، هذا النبي هو زكريا الذي وصل إلى حدّ اليأس من الذريّة، وزوجته أصبحت أيضاً كبيرة وعاقراً لا تلد، والمفروض وفق السنن الطبيعية أن رجلاً عمره سبعون سنة وامرأة عمرها ستون سنة كما تقول الروايات التاريخية لا يوجد مجال لأن يكون لهما ولد.

لكن أنظروا إلى زكريا ماذا يقول القرآن الكريم عنه، ﴿كَيْمِصٌ * ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكِيًّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِنُ مِنِّي الْيَغُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ

(١) أنظر: عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥٩/ضمن ح ١.

(٢) الرعد: ١١.

رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا^(١) نفس هذا الدعاء يأتي في سورة أخرى وهي سورة الأنبياء ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢) لاحظوا زكريا يقول اشتعل الرأس شيباً ويقول امرأتي عاقرة ومقتضى الحال أنه لا يكون عندهم ولد، لكن عندما دعا استجاب الله له ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾^(٣) ما هو السبب في إن الله تعالى أعطى لزكريا يحيى وأصلح له زوجته؟

القرآن يذكر ثلاثة أشياء:

أولاً: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

ثانياً: ﴿وَيَذْعُونَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ (أي في السراء والضراء).

ثالثاً: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

نتيجة هذه العوامل الثلاثة قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾.

دعاء سليمان وقصته:

نتقل إلى البحث الثاني وهو البحث التاريخي.

النبي سليمان سأل الله تعالى أن يرزقه الملك، وقصة سليمان هي قصة نادرة يذكرها القرآن الكريم بشكل مفصل لأن فيها عبر ودلالات نتناول منها جانباً واحداً وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٤).

(١) مريم: ١ - ٧.

(٢) الأنبياء: ٨٩.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

(٤) ص: ٢٤ - ٣٥.

ما هي فتنة سليمان؟

ما معنى ولقد فتنا سليمان؟ ما هي هذه الفتنة؟

توجد هنا عدة بحوث تاريخية:

البحث الأول: ما هو هذا الجسد الذي وقع على كرسي سليمان والذي

تركه القرآن الكريم بدون إيضاح.

القرآن يقول: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾^(١) هذا التنوين للتذكير، تنوين

التذكير. يعني جسداً غير معلوم ما هو؟

السؤال الأول: ما هو هذا الجسد؟ وما هي هذه الفتنة؟

السؤال الثاني: أن سليمان كيف يقول: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾^(٢)

هل يصح لنبي أن يدعو بالملك؟ أليس عندنا في ثقافتنا الدينية النهي عن

طلب الرئاسة والملك والنهي عن حب الجاه والمقام؟

السؤال الثالث: أن هذا النبي لم يدع لنفسه فقط وإنما قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾^(٣) عجباً هل كان سليمان بخيلاً بحيث لا

يقبل لغيره أن يكون له مثل ملوكه؟

العلماء في تفسير الجسد الذي ألقاه الله تعالى على كرسي سليمان

يذكرون مجموعة روايات ثم يقولون: إن هذه الروايات ليس ثابتة الصحة بل

هي روايات غير صحيحة وهي إسرائيليات، لكن ولأجل لتوضيح الصورة

أذكر ما يوجد هنا من تفاسير.

يوجد مجموعة تفاسير بعضها خرافات موجودة في كتب اليهود

والنصارى وانتقلت إلى كتبنا بالترجمة، لكن علمائنا يقولون هي غير صحيحة.

(١) ص: ٢٤.

(٢) ص: ٢٥.

(٣) السابق.

من جعلتها تلك التي تقول: إن الله تبارك وتعالى رزق سليمان ولداً وكان يحبه حباً جماً وخاف عليه من ملك الموت فوضعه في السحاب، لكن لأن الله تعالى كان قد قضى قضاءً بموت هذا الطفل ولا راد لقضائه، فإن ملك الموت أخذ روح هذا الصبي وهو في السحاب وألقاه من السحاب ووضعه على كرسي سليمان جثة هامدة.^(١)

وفق هذه الروايات فإن الله تعالى يريد أن يقول لسليمان قدرتي لا يبلغها أحد ولا أحد يستطيع الفرار من إرادتي.

هذه الرواية يراها علماؤنا خرافة غير صحيحة.

التفسير ثاني أن سليمان أصبح مريضاً وأن الله تعالى قد افتتنه وامتنحه في جسمه بدرجة أنه أصبح غير قادر على الحركة، يعني أصبح جسداً ليس به روح ولا قدرة حركة، وهو جالس على الكرسي، (ثم أناب) يعني تعافى وعادت له العافية.^(٢)

هناك تفسير ثالث وهو من الإسرائيليات والطرائف التي تُذكر ونحن نذكرها لتلطيف الأجواء وإلا فهي من الخرافات والأساطير الموجودة في كتب بني إسرائيل.

خلاصتها أن إبليس جاء إلى سليمان وقال له، ألا تريني هذا الخاتم الذي تلبسه، حيث تقول الأسطورة أن مُلك سليمان كان قائماً بالخاتم، فأعطاه سليمان الخاتم، فأخذ إبليس الخاتم ورماه في البحر، وبقي سليمان بلا مُلك وجلس إبليس على عرش سليمان وأصبح يباشر الملك بنفسه، والناس لا يعلمون، واضطر سليمان إلى أن يصبح سمّاكاً يصيد ويبيع السمك. وبعد

(١) بحار الأنوار ١٤: ٩٩.

(٢) بحار الأنوار ١٤: ١٠٧.

أربعين يوماً صاد سمكة فلما فتح السمكة وجد فيها الخاتم، فلبس الخاتم وعاد له الملك وهذا هو معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾، خلال هذه الأربعين يوماً كان الشيطان جالساً على كرسيه، والشيطان جسد ليس له روح، أي ليس له دين ووجدان وضمير ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾^(١) لمدة أربعين يوم ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾.^(٢) ومن الواضح ان هذا التفسير لا يمكن قبوله عقلياً بشأن الأنبياء.

سوف أذكر لكم تفسيراً آخر يحل المعضلة كلها لكن دعونا نقف عند المعضلة الثانية في دعاء سليمان سوف أشرح لكم المعضلات حتى نحلها بتفسير واحد.

سليمان هل يطلب الملك؟

المعضلة الثانية: كيف ان نبي الله يطل الملك ويقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾؟

الجواب: علماؤنا قالوا كان ذاك بأمر الله تعالى وإذا كان بأمره فلا يوجد إشكال، لكننا لسنا بحاجة لهذا التفسير، وإنما التفسير الطبيعي اننا في ثقافتنا الدينية لا نجد مشكلة في أن يكون النبي ملكاً أو يكون المرجع الديني رئيساً، أو أن يكون أمير المؤمنين خليفة، المشكلة أنه إذا كان الملك للملك وللدينا فهو أمر مرفوض، أما إذا كان الملك للدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل فلا توجد ثمة مشكلة.

الأنبياء والأئمة قاتلوا من أجل الملك وليس من أجل الكرسي وإنما لأجل إحقاق الحق، لقد دخل رسول الله في غزوات وحروب فهل كان هذا من طلب الجاه والدنيا أو من أجل إحقاق الحق؟ كان من أجل إحقاق الحق؛ إذن لا توجد مشكلة في أن سليمان يسأل الله تعالى ويقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾.

(١) ص: ١٠٤.

(٢) الإيضاح: ٣٦.

المعضلة الثالثة: حينئذٍ نصل إلى المشكلة الثالثة وهي قوله: ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾^(١).

كيف يسأل سليمان ربّه ان يتفرد هو بالملك ولا يكون لأحد مثله، فهل كان سليمان بخيلاً؟

الجواب: في تفسير واضح ربما توحى به الآية رغم أن العلماء لم يشيروا لهذا التفسير لكن إذا قلبنا هذه الآية ظهراً لبطن فسوف نجد أنها تنسجم جداً مع هذا التفسير، وخلاصته:

إن الله تبارك وتعالى كان قدّر إنهاء ملك سليمان حيث لم يجعل له ذرية، وأراد سليمان ولداً لكي يكون وريثاً له في الملك لكن الله تعالى امتحنه وقال: لا يكون لك ولد يرثك، ورغم انه أصبح لديه ولد لكن الله تعالى أماته وألقاه على كرسيه جسداً ميتاً وكان سليمان يأمل بالملك بعده كما ورث هو ملك أبيه داود. لقد كان من حق سليمان أن يطمع في ديمومة هذه الإمبراطورية الدينية واستمرارها ليس حباً بالملك وإنما حباً باستمرار الحكم الديني.

لكن الله تعالى قال له: سوف لن تستمر هذه الإمبراطورية وسوف لن يكون لك ذرية ولا خليفة، إذن أنت ذو ملك عظيم وهذا الملك لا يكون لذريتك ولا لأحد من بعدك، ولما علم سليمان ذلك من الله تعالى سأل الله تعالى بلسان التقدير والرضى بالتقدير الإلهي قائلاً: إلهي إذا كنت قدّرت أن لا يكون لي ذرية يرثني فهب لي ملكاً ينقطع بموتي ولا يستمر ولا يكون لأحد من بعدي كما قدّرت ذلك لي في علمك. وحينئذٍ ترون أن الآية أصبحت جداً واضحة، قال: إلهي إذا كنت مقدراً أن لا يكون عندي ولد يرث ملكي إذن أعطني ملكاً كما قدّرت لا يستمر ولا ينتقل لأحد من بعدي ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي»^(١) لأنك لم تقدر لي ذرية، وسوف يتضح معنى قوله: «وَلَقَدْ قَتْنَا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا»^(٢) وهو ابنه لما مات، فأدرك سليمان الفتنة وأناب واستغفر وكأنه قال: إلهي كان تقديري وتصوري أن يكون عندي مُلك يستمر وأنت تقديرك أنه ينتهي، ربي اغفر لي تقديري، وتقديرك هو الأصح.

بهذا التفسير تنتهي كل المعضلة في تفسير هذه الآية الكريمة التي وقف العلماء عندها والمفسرون في حيرة بالغة، الله تعالى قال له الملك الديني لا يستمر بعدك، وحكومتك هي مرحلة استثنائية، واستجاب الله دعاءه وأعطاه هذا المُلك الذي لم يستمر بعده ولا ينبغي لأحد بعده حسب التقدير الإلهي.

هناك تفسير آخر ذكره المفسرون لقوله: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» يعني إلهي هب لي ملكاً فيه من المعجزات العجيبة النادرة التي لا تتكرر لأحد من الملوك والأنبياء بعدي.

هذا أيضاً تفسير من التفاسير ولا يوجد في الآية ما يشير أو يدل عليه، ولنعد إلى أصل الموضوع وهو استجابة الدعاء. سليمان دعا الله فاستجاب الله دعاءه وزكريا أيضاً استجاب الله له.

القرآن يقول: «قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»^(٣).

الملك في الإسلام:

نعود إلى مسألة الملك.

الملك في الإسلام هل له قيمة؟

(١) ص: ٢٥.

(٢) ص: ٢٤.

(٣) الفرقان: ٧٧.

الجواب: إن كان مُلكاً لتطبيق حكم الله فهو مهم وإذا كان الملك للدنيا فليس له قيمة.

أمير المؤمنين عليه السلام مرةً كان جالساً يخصف نعلًا وكان ذلك معروفاً في صفة أمير المؤمنين حتى قال: «لقد رقعته حتى استحيت من راقعها» التفت إلى ابن عباس وقال. يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل؟ قال ابن عباس: لا قيمة لها.

قال: «يا ابن عباس إن امرتكم هذه أهون عندي من هذا النعل إلا أن أقيم حقاً أو أبطل باطلاً»^(١) ولكن مع ذلك فإن أمير المؤمنين كان يقاتل من أجل الخلافة ودافع عن حقه، وهذا ليس دفاعاً عن دنيا.

اليوم حينما ندافع عن الحكم للأصلح في العراق في الحقيقة نحن ندافع عن الناس والشعب والدين ولا ندافع عن مصالح شخصية.

أمير المؤمنين دافع عن حقه ولكن ليس عن حقه الشخصي وإنما عن حقه الديني وحقه لخدمة البشر.

الزهاء عليه السلام ما كانت تبحث عن ملك قطعة أرض اسمها فدكاً وإنما كانت تبحث عن إعادة الحق لأهله، والانتصار للحق حتى لا تقع البشرية في ظلمات على مدى مئات السنين من يوم السقيفة وإلى يومنا هذا.

الزهاء لما قادوا أمير المؤمنين مكثوفاً، وكسروا ضلعها وأسقطوا جبينها، لما قامت من غشيتها سألت فضة، أين علي، فضة أخبرتها بأنهم قاده أسيراً فقامت فاطمة الزهراء من غشيتها وخرجت تعدو خلفه تقوم مرة وتقع أخرى.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الرابعة والثلاثون:

أهل البيت عليهم السلام محور الحق

«فالراغب عنكم مارق، واللازم لكم لاحق،
والمُقصر في حقكم زاهق».

حدثنا في هذه المحاضرة من شرح الزيارة الجامعة الكبيرة عن هذا المقطع «فالراغب عنكم مارق واللازم لكم لاحق، والمُقَصِّر في حقكم زاهق» وهذا البحث يرتبط ببحث المحاضرة اللاحقة حول (نظرية وحدة الحق وتعدد الاجتهاد).

المعنى اللغوي:

معنى قوله: «الراغب عنكم مارق» المروق يعني الخروج عن دائرة الحق، الإمام عليّ عليه السلام هو قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمقصود بالمارقين هم الخوارج الذين مرقوا وخرجوا عن دائرة الحق، هنا الزيارة تقول: «الراغب عنكم مارق» لاحظوا في اللغة العربية يوجد الراغب فيكم، ويوجد الراغب عنكم، نقول: أرغب في هذه المعاملة يعني تريدها، ومرة نقول: أرغب عن هذه المعاملة يعني لا تريدها. هنا هكذا يقول: الراغب عنكم مارق يعني المعرض عنكم مارق.

«واللازم لكم لاحق» الملتزم بكم لاحق بطريق الحق وبطريق الدين، ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام: «من لاحق بنا _ أي التحق بركبنا _ استشهد».

«والمُقَصِّر في حقكم زاهق»، زاهق: بمعنى مضمحل فإن لا بقاء له، ومنه قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾^(١) أي انتفى الباطل، لاحظوا إذن أصبح أهل البيت عليهم السلام هم محور الحق والذي يرتبط بهم ينجو والذي يتخلف عنهم يهلك، هذه هي نظرية «وحدة الحق» وإن الحق له محور وله مقياس.

هذا الأمر وهو أن أهل البيت هم محور الحق نحن الآن في غنى عن الاستدلال عليه لوضوحه وثبوته في الفكر الإسلامي ثبوتاً بديهياً. لما جاء في عشرات الروايات عن رسول الله ﷺ قوله: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ (هذا الحديث يسمّى حديث السفينة)، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى»^(١) وهذا ثابت بإجماع الفريقين.

وأيضاً حديث الثقلين وهو قوله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»^(٢).

هذه مجموعة أحاديث تجعلنا في غنى عن الاستدلال على أن أهل البيت هم محور الحق، هذه قضية ثابتة، وتحدثنا عنها في مواقع أخرى من هذه المحاضرات.

حاجة الحق إلى محور:

لكن حديثنا اليوم عن هذا السؤال لماذا يحتاج الحق إلى محور؟
الحق يحتاج إلى قطب، وإلى مقياس، لأن كل شخص قد يدّعي الحق «وكلّ يدّعي وصلاً بليلى» عجباً هل يمكن أن نقبل كل الأشخاص أو لا بدّ أن يوجد مقياس؟

حديثنا عن مقياس الحق.

الأمر المادية لها مقياس، مقياسها التجربة والواقع ولا تحتاج إلى شيء آخر، أنت تريد أن تثبت أن نهار الصيف حار لا يحتاج إلى أدلة عقلية ونقلية، تقف قليلاً تحت الشمس تعرف أن الصيف حار، تريد أن تثبت أن الأرض لها جاذبية، أيضاً لا يحتاج الأمر إلى استدلال عقلي كثير، اقذف شيئاً من مكان عالٍ فسوف تجد أن

(١) مناقب الكوفي ٢: ١٤٧.

(٢) المسترشد: ٥٥٩.

الأرض تجذب ذلك الشيء، في القضايا التجريبية لا توجد مشكلة (فإن التجربة أكبر برهان) ولهذا في القضايا المادية نجد أن الناس سرعان ما تنتهي خلافاتهم ويتفقون على الواقع الذي يثبت لهم بالدليل التجريبي المادي.

وإنما الخلاف والجدل في القضايا غير التجريبية مثل قضايا القيم الأخلاقية، هذا ينبغي أو لا ينبغي، هذا جيد أو غير جيد. هذه القضايا لا تلمس باليد، يعني لا تستطيع أن تلمس باليد إن الكذب أمر سيء والصدق أمر حسن، نحتاج إلى مقياس حينما تقول إن الكذب قبيح والصدق حسن، هذا في القضايا القيمة الأخلاقية، وكذلك في قضايا التشريع، الحلال والحرام تقول إن الربا حرام والبيع حلال، إن الفحشاء حرام ما هو المقياس؟ من الذي جعل هذا حراماً ومن الذي جعله حلالاً؟ لاحظوا هذه قضايا لا تلمس باليد نحتاج فيها إلى مقياس آخر.

هنا توجد لدينا أربعة فروض في المقياس، في مقياس الحق، أنت في العلاقة الاجتماعية مثلاً علاقة الابن مع الأب، العلاقة بين التلميذ والأستاذ، العلاقة القومية والوطنية في كل هذه القضايا ما المقياس الذي يقول إن هذا حق وهذا باطل؟

فروض في مقياس الحق:

هنا أربعة فروض لما هو المقياس بين الحق والباطل:

الفرض الأول: إن المقياس لمعرفة الحق هو المنفعة، أي أن الشيء الذي يحقق لي منفعة فهو حق، كما هو مثلاً في نظام السوق الحرة فهو نظام حق وصحيح إذا حقق للمجتمع نفعاً اقتصادياً فذاك هو المقياس في حقانية هذا النظام الاقتصادي أو عدم حقانيته.

أي أن المنفعة هي الميزان التي توزن الحق والباطل، والمنفعة التي نتحدث عنها مرة تكون منفعة شخصية ومرة منفعة فئوية أو قبلية أو منفعة عامة لدائرة أوسع من دائرة الشخص والفئة والقبيلة.

العالم المادي اليوم ومع الأسف ذهب كثيراً وراء هذا المقياس. اليوم العالم رغم توافقه على قوانين الأمم المتحدة لكنه يمارس قوانين أخرى نفعية فيتحدث عن مصالح إستراتيجية في الخليج مثلاً ويرى هذه المنطقة هي مجال حيوي له إذن لا بد أن يغزوها وسيطر عليها، هنا أصبح المقياس هو المنفعة لكنها موضوعة بقوالب مدّنية، الحقيقة أنها مصالح وأنانيات لكنها تطرح بقوالب قانونية.

الفرض الثاني: أن يكون المقياس هو الوجدان البشري والفطرة التي تقول إن الكذب سيء والصدق جيد، السرقة سيئة والصدقة حسنة يوجد وجدان عند البشر، إن فرق البشر عن الحيوان، أن الحيوان ليس لديه قيم وجدانية، بالفعل الحيوان مقياسه أن يأكل حتى يشبع، لكن الإنسان عنده وجدان هذا موجود عند المؤمن والكافر، يوجد صوت للفطرة أن هذا العمل قبيح وهذا عمل حسن، والمؤشر هو الوجدان البشري.

قد يقول قائل فلنجعل الوجدان البشري هو مقياس الحق والباطل.

هذا الأمر أيضاً غير ممكن رغم أن الوجدان حقيقة موجودة، لكن من غير الممكن أن نجعله هو المقياس لأن الناس يختلفون في مصاديق الوجدان البشري، الوجدان البشري يعطينا الخطوط العريضة فيقول الصدق أمر صحيح والكذب أمر غير صحيح، لكن في التفاصيل نجد أن الوجدان البشري تختلط عليه القضايا.

مثلاً صاحب البضاعة التجارية يرفع السعر ويبيعها بثمن غال، هنا الوجدان ماذا يقول؟ قد يقول هذا البائع أنا محتاج، إذن من حقي أن أرفع الأسعار، ولكن من جهة أخرى قد يقول الوجدان البشري إن الناس ليس لديهم قدرة للشراء بهذا السعر فعملية رفع الأسعار هي عملية غير صحيحة. إذن هي قضية قابلة لأن تختلط فيها الصورة لدى الوجدان ولهذا نحتاج إلى مقياس آخر رغم اعتقادنا بالوجدان وهو الذي يُسمى بـ (العقل العملي).

العقل النظري والعقل العملي:

الفلاسفة يقسمون العقل إلى قسمين: العقل النظري والعقل العملي:
العقل النظري هو دراسة ما هو كائن، فلسفة الوجود والخالق والمعاد وما شاكل ذلك.

العقل العملي: دراسة ما ينبغي أن يكون، أي ان هذا الشيء ينبغي أن يكون أو لا ينبغي، مثلاً الزواج الشرعي أمر صحيح أو غير صحيح، أن يكون للأب بنات شيء جيد أو غير جيد.

قرأت في تقرير خبري أن ٩١٪ من المصريين لا يريدون الانجاب بالبنات. إذن أين الوجدان؟ لماذا أنت لا تقبل أو تتأذى ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١) مع أن الإسلام يقول إن الفضل والثواب في البنت أكثر مما هو في الولد، لا أحد يستطيع أن يتنبأ أن سعادته في الدنيا والآخرة تأتيه من الابن أو من البنت. لا أحد يدري فرسول الله بركاته أصبحت من البنت وهي (فاطمة الزهراء) لكن مقاييسنا الدنيوية الخاطئة هي التي تجعل هذا ينبغي وهذا لا ينبغي، أنظروا إلى الوجدان البشري كيف يختلط عليه الأمر بسرعة.

الفرض الثالث:

المقياس هو الوحي الإلهي: فإذا كنّا لا نستطيع أن نجعل المصلحة هي مقياس الحق، ولا نعتمد الوجدان البشري ونجعله مقياس الحق دائماً، إذن لنعتمد الوحي الإلهي. (الآيات القرآنية) وهذا مقياس لا يخطأ، لكن المشكلة في الوحي الإلهي هي أولاً إن الوحي الإلهي قد انقطع، وأنت اليوم لا يوجد لديك وحي إلهي، في زمان الوحي كان رسول الله ﷺ حينما يُسأل مسألة

يقول انتظر الوحي الإلهي، لكن اليوم قد انقطع الوحي الإلهي إذن نحتاج إلى مقياس آخر، والمشكلة ثانياً إن الوحي الإلهي قابل للاختلاف في التفسير، القرآن وحي إلهي لكن لماذا اختلف المسلمون كل منهم يفسره بشيء.

لاحظوا مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١) الشيعة يقولون هذه نازلة في النبي ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين، وأبناء العامة يقولون نازلة في هؤلاء ومعهم نساء النبي كلهن، وهذا تفسيران، إذن الوحي يقبل بالتفسيرات المتعددة ومعنى هذا أنا لا نستطيع أن نجعل الوحي هو وحده المقياس، لأننا سوف نخلف في هذا المقياس إذن نحتاج إلى مقياس رابع لتحديد الحق.

النظرية الإسلامية تقول إن الوجدان البشري صحيح، والوحي الإلهي صحيح لكنها كلها ليست كافية، بل لا بد من مقياس آخر، كما أن المنفعة لا يمكن أن تكون هي وحدها المقياس.

ما هو المقياس إذن؟ النظرية الإسلامية تذهب إلى الفرض الرابع.

الفرض الرابع:

أن يكون المقياس هو الحجّة الشرعية، وهذه الحجّة الشرعية هي الأنبياء والأولياء المعصومون، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(٢) وهكذا نقرأ في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام عليك يا أمين الله في أرضه وحجته على عباده».

معنى الحجّة ما هو؟

الحجّة يعني الدليل الدامغ الذي لا يقبل المناقشة، يوم كان رسول الله

ﷺ كان هو الحجّة، وبعده كان الإمام علي عليه السلام حيث قال رسول الله ﷺ:

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الرعد: ٧.

«عليّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار»^(١) معناه أنه أصبح حجة شرعية وكذلك: «فاطمة بضعة مني يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها»^(٢) يعني أصبحت مقياساً شاخصاً يحدد ما هو الحق وبالمقابل ما هو الباطل، هذه هي النظرية الإسلامية أن الحق يحتاج إلى شاخص وإلى مقياس، والمقياس هو عبارة عن الأنبياء والأولياء وهذا هو معنى قول رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ عليه السلام» هذا هو قارب النجاة فإن الذي يركب السفينة ينجو والذي لا يركب لا ينجو.

الإسلام هكذا يقول الحق هو محور حركة الإنسان نحو التكامل، ومقياس الحق هو الأنبياء وبعد الأنبياء هم الأولياء وبعد الأولياء هم الفقهاء والعدول.

أنتم تسألون ما هو الحق الذي يريده الله في المواقف السياسية والمواقف الاجتماعية هل المنافع الشخصية هي المقياس؟

هل الوجدان وحده هو المقياس؟

هل الوحي الإلهي هو المقياس؟

الأنبياء ثم الأولياء ثم الفقهاء فهم «حجتي عليكم وأنا حجة الله» كما جاء في الرواية المعروفة عن الإمام الصادق عليه السلام: «الراد عليهم كالراد علينا والراد علينا كالراد على الله وهو على حدّ الشرك بالله»^(٣) إذن أصبح المقياس في فترة الغيبة وفي الوقت الذي لا يوجد معصوم أن نرجع إلى الفقهاء العدول.

التعددية الدينية والمذهبية:

على هذا الأساس نفسّر قوله في الزيارة: «فالراغب عنكم مارق واللازم

(١) الفصول المختارة: ٩٧.

(٢) الرعد: ٧.

(٣) بحار الأنوار ١٠١: ٢٦٢ / ١.

لكم لاحقاً والمقصر في حقكم زاهق» محور الحق هم أهل البيت، إذن الذي يخرج عن هذا المحور يكون مارقاً والذي يقصر عنهم يكون زاهقاً، هذا الأمر يربطنا إلى حديث مهم اسمه التعددية المذهبية والدينية ويوجد حديث آخر أيضاً هو حديث التعددية السياسية وقد سبق أن تناولناه في حديث سابق.

لكن حديثنا اليوم عن التعددية الدينية والمذهبية.

نحن نعتقد أن الإسلام هو الحق، ماذا نقول في اليهودية؟، وماذا نقول في النصرانية هل هي حق أم لا؟

التعددية الدينية هل تعني أن الجميع على حق، أي اليهودي على حق والنصراني على حق، هل هذا هو المقصود بالتعددية الدينية والمذهبية، نحن نعتقد أن التشيع حق، عجباً هل المذاهب الأخرى على حق؟ التعددية المذهبية هل تعني أن الجميع على حق؟

مستويات التعددية:

الحديث في التعددية الدينية والمذهبية على مستويين وهذا البحث أنا مضطر لتبسيطه جداً.

المستوى الأول: مستوى التعايش الديني.

المستوى الثاني: مستوى الجزاء الأخروي.

الإسلام ماذا يقول في التعددية الدينية والمذهبية؟

الإسلام يقول على مستوى التعايش الديني أنا أقبل بالتعددية الدينية والمذهبية.

وعلى مستوى الجزاء الأخروي لا يؤمن الإسلام بالتعددية الدينية والمذهبية.

هذا يعني أننا الآن في الدنيا نتعامل مع المسلم على ديانتهم ومع النصراني كذلك واليهودي كذلك، ولهذا عاش الإسلام وهناك في المجتمع الإسلامي

يهود ونصارى ومسلمون وبينهم علاقات اجتماعية قائمة، في العراق وفي غير العراق، الآن وفي زمن النبي ﷺ، هذا هو التعايش على مستوى الدنيا. هنا الإسلام يقبل التعددية الدينية والتعددية المذهبية شيعة وسنة يعيشون في دولة واحدة ومدينة وقرية واحدة بينهم صلة وعلاقات عشائرية بل أبناء عشيرة واحدة أو بيت واحد، على مستوى الدنيا ليس هناك إشكال.

القرآن الكريم يوصي بالآخرين حتى من غير المسلمين يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١). هذا على مستوى التعايش الدنيوي فإن الإسلام يؤمن بالتعددية الدينية والمذهبية، أما الجزاء الأخروي فالقرآن يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) ومعنى ذلك أنه لا تعددية دينية على مستوى الجزاء الأخروي والقبول الإلهي ومثل ذلك في مجال التعددية المذهبية.

روايات في وحدانية الحق:

رواياتنا تقول أنكم يا شيعة أهل البيت على حق والبقية على باطل حتى لو صاموا وصلوا دون أن يدخلوا البيوت من أبوابها.

أليس القرآن يقول: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٣) أقرأ لكم بعض الروايات الجميلة:

الرواية الأولى: تقول: إن موسى بن عمران مرَّ برجل رافعاً يديه للسماء يدعو فانطلق موسى في حاجته وغاب عنه سبعة أيام ثم رحل إليه وهو رافع يديه يدعو ويتضرع ويسأل حاجته فأوحى الله ﷻ إليه:

(١) الممتحنة: ٨

(٢) آل عمران: ٨٥

(٣) البقرة: ١٨٩.

يا موسى لو دعاني حتى يسقط لسانه ما استجبت له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته به.^(١)

الرواية الثانية: عن أبي حمزة الثمالي قال:

قال لنا علي بن الحسين زين العابدين: «أي البقاع أفضل؟».

قلت: الله ورسول وابن رسوله أعلم.

قال: «إن أفضل البقاع ما بين الركن والمقام (الركن هو ركن الحجر الأسود، والمقام هو مقام إبراهيم عليه السلام) ولو أن رجلاً عمّر ما عمّر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل ثم لقي الله بغير ولايتنا لم ينفعه ذلك شيئاً».^(٢)

إن لدينا أكثر من سبعين رواية وكثير منها صحيحة السند تقول ان الأعمال لا تُقبل على مستوى الجزاء الأخروي إلا بولاية أهل البيت عليه السلام.

الرواية الثالثة:

قال رسول الله ﷺ: «إلزموا مودّتنا أهل البيت فإنه من لقي الله يوم القيامة وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبد عمله إلا بمعرفة حقنا».^(٣)

الرواية الرابعة:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن أول ما يُسأل عنه العبد إذا وقف بين يدي الله ﷻ عن الصلوات المفروضة وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج المفروض وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقرّ بولايتنا ثم

(١) قصص الأنبياء: ٣٤٧.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٤٥ / ٢٣١٣.

(٣) أمالي الطوسي: ١٨٧ / ٣١٤ - ١٦.

مات عليها قُبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه وإن لم يُقر بولايتنا بين يدي الله تعالى لم يقبل الله تعالى منه شيئاً من أعماله»^(١).

هذه الروايات يرويهما العلامة المجلسي في كتاب الإمامة من كتاب بحار الأنوار في باب «لا يقبل عمل الأعمال إلا بالولاية»^(٢) وهناك عشرات الروايات الصحيحة المعتبرة.

وهذا في الحقيقة يعطينا فكرة أننا لا نقبل بالتعددية المذهبية على مستوى الحق رغم أننا نقبل بها على مستوى التعايش حتى مع باقي الأديان، ولذلك فإن باقي الأديان هي حرة في المجتمع الإسلامي.

آيات قرآنية في التعددية:

هناك آيات قرآنية قد يتصور البعض دلالتها على التعددية الدينية حتى على مستوى القبول والجزاء في الآخرة، بمعنى أن المسلم يدخل الجنة واليهودي والنصراني أيضاً يدخل للجنة.

الآية الثانية والستون من سورة البقرة قد يستشهد بها البعض على قبول الإسلام بالتعددية الدينية على مستوى الجزاء الأخروي أي لا يوجد فرق بين مسلم أو نصراني كلهم على حق، أنظروا للآية تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

قد يقول قائل إنها تدل على أن اليهودي حينما يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً يدخل الجنة، والنصراني كذلك، هذه الآية وقف عندها

(١) بحار الأنوار ٢٧: ١٦٧ ح

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٦٩.

(٣) البقرة: ٦٢.

المفسرون لأن من الثابت عندنا في الشريعة الإسلامية أنه يوم القيامة لا يقبل إلا الإسلام لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(١) هذا ثابت في البديهة والضرورة الإسلامية إذن ما نصنع بهذه الآية؟

هناك عدة تفاسير ذكرها المفسرون للتخلص من ظهور الآية في التعددية.

التفسير الأول لابن عباس كان يقول هذه الآية منسوخة بآية أخرى وهي قوله ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢).

التفسير الثاني لهذه الآية الكريمة ان المقصود منها هو الإيمان الحقيقي الذي يعني الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وهنا توجد جملة مقدرة هي (الإيمان برسوله) فالإيمان الحقيقي بالله يستبطن الإيمان برسول الله ﷺ ومن غير الممكن أن يكون الإنسان مؤمناً بالله إيماناً حقيقياً ثم لا يؤمن برسوله. لكن هذا التفسير هو تأويل للآية وخلاف الظاهر منها ونحن غير مضطرين لهذا التأويل.

التفسير الثالث: ربما يكون هو أقرب التفاسير وهو البقاء على ظهور الآية في قبول الأديان كلها حينما لم يثبت لديهم بالحجة الشرعية رسالة النبي ﷺ وحقانية الإسلام.

هؤلاء حينما يكونون موضوعين صادقين فإن الله يقبل منهم دينهم مهما كان، وهذا هو قانون القاصر والمقصر الذي يشير إليه الفقهاء، بمعنى أن ذلك الذي لم يثبت عنده حقانية الإسلام أو التشيع من دون أن يكون لديه تقصير أو إهمال أو عناد فإن الله تبارك وتعالى يعفو عنه يوم القيامة.

(١) آل عمران: ٨٥

(٢) السابق.

هذا هو قانون الفرق بين القاصر والمقصر، فقهاؤنا يذكرون أننا نؤمن بقانون أن القاصر معذور، والمقصر غير معذور، فقهاؤنا يقولون هناك فرق بين القاصر والمقصر، وكأن الآية تقول إن الذين هادوا والنصارى والصائين من كان منهم إنساناً صالحاً وليس لديه تقصير في طلب الحقيقة ومعرفتها فإن الله تعالى يقبل منه صلاحه ويؤجره على إيمانه بالله وعمله الصالح.

كرامة الزهراء ءلله:

ونختم الحديث ونحن في أجواء ولادة الزهراء ءلله. ^(١) عن كرامة للزهراء ءلله في نشأتها وتكوّنها.

وهي أن رسول الله ﷺ كما ثبت بروايات متواترة من الفريقين وبعض هذه الروايات ترويها عائشة. أن رسول الله ﷺ كان يُكثّر من تقبيل فاطمة وكان يقبل يديها أحياناً وكان يقبل صدرها أحياناً. بحيث أن عائشة استغربت.

وقالت: يا رسول الله تفعل بفاطمة ما لا تفعله بغيرها! ما هذا الإعجاب بفاطمة؟ قال: «يا عائشة إني أشم فيها رائحة الجنة كلما اشتقت إلى الجنة شممتها وقبلتها وذلك إني يوم عُرِج بي إلى السماء ناولني جبرائيل من تفاح الجنة فأكلتها فكانت ماءً في صلبتي فلما هبطت إلى الدنيا وقاربت خديجة كانت منها فاطمة» ^(٢).

فهذه الرواية مُتفق عليها، يعني هناك عشرات المصادر لهذه الرواية (إن

(١) بتاريخ عشرين من شهر جمادي الثاني.

(٢) أنظر كذلك: ذخائر العقبى: ٣٦؛ علل الشرائع ١: ١٨٤؛ نوادر المعجزات: ٩٩؛ دلائل الإمامة: ١٤٨؛ عيون المعجزات: ٥٠؛ الطرائف: ١١١؛ المحتضر: ١٣٦؛ مدينة المعاجز ٢: ٤١٥؛ البحار ٨: ١٥١، ١٨٩، ج ١٨: ٣٥١، ج ٣٧: ٦٥، ج ٤٣: ٦؛ تفسير فرات: ٢١١، ٢١٦؛ مجمع البيان: ٣٧؛ أعلام الوري ١: ٢٩٦؛ ينابيع المودة ٢: ١٣٢.

الزهراء هي تفاحة من تفاحات الجنة حيث أصبحت ماءً في صُلب رسول الله ثم في رحم خديجة ثم كانت فاطمة.

قد يقول قائل: إن هذا أقرب للأسطورة وإلى الخرافة منه إلى الحقيقة، ما معنى أن الزهراء تفاحة الجنة؟

الجواب: هذا حقيقة وليس أسطورة وليس فيه أية مشكلة علمية، ألسنا نعتقد أن مريم كانت تأكل من طعام الجنة؟ ﴿كَلِمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) أليس هذا من طعام الجنة؟ لا توجد مشكلة أن ينزل طعام إلى الأرض من الجنة، أو يصعد رسول الله ﷺ إلى الجنة ويأكل من طعامها. فضلاً عما إذا كان الإنسان هو الذي قد عرج إلى عالم الآخرة فالمسألة تكون أيسر، إلا أن يُنكر أحد معراج رسول الله إلى السماء ولا أعتقد أن أحداً من المسلمين يُنكر المعراج ولا توجد فيه مشكلة علمية.

ما هي المشكلة العلمية في أن الزهراء عليها السلام تشكّلت نطفتها من هذه التفاحة سوى أن القضية غير مألوفة؟ لكن القرآن الكريم يتحدث عن خلق عيسى ويقول: ﴿وَكَلَّمْنَاهُ آفَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾^(٢) وإذا كانت كلمته ألقاها إلى مريم فكان عيسى فما هي المشكلة أن تفاحة الجنة تصير فاطمة؟

القرآن يتحدث عن عيسى ومريم يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾^(٣) هل يقول قائل هذه أسطورة؟

هذا هو القرآن الكريم ونحن نؤمن به، وكل الأديان تؤمن أن عيسى بن مريم هو نفخة من روح الله، المشكلة أن هناك قضايا علمية مألوفة وقضايا علمية غير مألوفة، اليوم العلم يتطور ويصنع الإنسان في أنبوبة بدلاً من رحم

(١) آل عمران: ٣٩.

(٢) النساء: ١٧١.

(٣) الأنبياء: ٩١.

الأم، اليوم تطور العلم بحيث يأخذون النطفة والبويضة في أنبوبة وبعد ثمانية أشهر تصبح ولداً، وحيث أصبح هذا الأمر شيئاً عادياً محسوساً إذن لا توجد فيه مشكلة رغم أنه كان غريباً في الحقيقة وغير مألوفاً، لكن عندما رأيناه على أرض الواقع أصبح مقبولاً، كذلك عملية الاستنساخ الحيواني حينما كان يقال أنه يأتي يوم يكون هناك استنساخ للحيوان وللإنسان لم يكن أحد يقبل ذلك لكنه اليوم أضحي حقيقة مقبولة ومشهودة.

هذه هي قصة تكوّن فاطمة من تفاحة الجنة، لا توجد فيها مشكلة علمية سوى أنها غير مألوفة.

* * *

المحاضرة الخامسة والثلاثون:

النظرية الإسلامية في الحق

الوحدة والتعددية

«والحق معكم وفيكم وإليكُم وأنتم أهله ومعدنه».

اليوم لدينا حديثان: حديث فلسفي وحديث سياسي، كل ذلك في سياق البحث عن قوله في الزيارة: «والحق معكم وفيكم وإليكم...».

اليوم في الساحة الثقافية والحضارية المعاصرة يوجد بحثان مهمان:

البحث الأول: الحق هل هو واحد أو متعدّد؟

البحث الثاني: التعددية الدينية أم الاحادية الدينية.

والإسلام له رأي في كلا المحورين من البحث، وهذا يحتاج إلى عرض وتبسيط واستدلال بمقدار ما يتضمن من بحوث علمية، لكن نحن في هذا المجلس نعطي خلاصة الأفكار بشواهد وتبسيط للموضوع.

البحث الأول: الحق واحد أو متعدّد؟

نطلق من الفقرة التي قرأناها «والحق معكم وفيكم وإليكم وأنتم أهله ومعدنه» ما هي النظرية الإسلامية في الحق؟

مفهوم الحق:

الحق مفهوم قد نقول أنه واضح بديهي، الحق في مقابل الباطل، قد نعبّر عنه بلون آخر فنقول الصحيح في مقابل الخطأ، دون أن ندخل في تعريفه الفلسفي، الحق هو مفهوم مركّز وفطري ينطلق إليه الإنسان ويبحث عنه، وكل الناس يبحثون عن الحق في أصالة فطرتهم.

لاحظوا يوجد مصالح ومفاسد وكل شخص يبحث عن مصلحته لكن الفطرة الإنسانية مطبوعة ذاتياً للبحث عمّا هو حق.

أحياناً قد ترى شيئاً أو عملاً فيه مصلحتك الشخصية لكنك قد لا تقدم

عليه لأنه خلاف الحق وضميرك لا يقبل منك هذا العمل، لاحظوا هذه مسألة أخرى غير المصلحة والمنفعة، لا يوجد أحد في العالم سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، كافر أو غير كافر حينما يقيم السرقة فطرياً يعتبرها عملاً جديراً وجيداً، نعم قد يقدم عليها لكنه يرى في عمق وجدانه انها ليست حقّه ولا شريفة وربما يحاول أن يبررها ولكنه يدري في وجدانه أنها قضية قذرة.

الغضب والعدوان وظلم الآخرين لا أحد يقبله عالمياً، العالم كله يسمي ذلك باطلاً.

إذن الحق مفهوم مرتكز في فطرة الإنسان وهو يبحث عنه ذاتياً، قبل أن تأتي قضية الدين.

الإنسان ذاتياً يبحث عن الحق، ليس يبحث عنه فقط في مجال القيم الأخلاقية بل يبحث عن الحق علمياً أيضاً.

العلماء في الطب والهندسة وغيره لا يبحثون فقط عما يحقق لهم مصالح بل يبحثون عما هي الحقيقة الكونية، سواءاً في مجال القيم الأخلاقية أو في مجال الحقائق العلمية أو في مجال المبادئ الفلسفية.

الإنسان يبحث عن الحق، كل الناس حينما يتساءلون أن هذا الكون له خالق أم ليس له خالق؟ عالم الآخرة والملائكة وعالم ما بعد الموت هل هو حق؟ هذه القضايا نجد أن الإنسان مدفوع نحوها، وقد تشغله مشاغل تبعده عن الخوض فيها لكن الإنسان دائماً مدفوع فطرياً للبحث عنها.

الإنسان مدفوع لأن يبحث عما هو حق في القضايا المبدئية الفلسفية الكونية، وهكذا الإنسان يبحث عما هو الحق والشرعية، حيث في كل العالم يوجد قانون والعالم كله ينادي بضرورة تحكيم القانون في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، إن فكرة تطبيق القانون هي فكرة تطبيق أحكام تشريعية حقة، نعم انك قد تبحث عن مصلحتك الشخصية لكنك دائماً تحاول أن تسبغ عليها

ثوب القانون والشرعية. ولهذا فقد أصبح القانون له قدسية خاصة في كل العالم.

كل العالم يدعو إلى تطبيق القانون وكل الشعوب لديها قانون باستثناء الدكتاتوريات والفراعنة وسلاطين الاستبداد هؤلاء ليس لديهم قانون أمثال صدام والإرهابيين والبعثيين فهؤلاء ليس لديهم قانون.

كل العالم يخضع إلى قانون حتى العالم الكافر أيضاً يقدس القانون لكن الدول التي عاشت تحت ظل الاستبداد عرفوا أن هؤلاء المستبدين لا يلتزمون بأي قانون، القانون هو مصلحتهم الشخصية، شعوبنا اعتادت على سلاطين ليس لديهم أي قانون، لكن القانون في العالم هو شيء مقدس.

مجالات الحق:

هناك عدة مجالات يجب تحكيم المقياس فيها لتشخيص ما هو الحق في مقابل ما هو الباطل.

١ _ المبادئ الفلسفية.

٢ _ القيم الأخلاقية.

٣ _ الأحكام التشريعية.

٤ _ المواقف السياسية والاجتماعية.

هذه أربعة مجالات يختلف فيها اتجاه الحق عن اتجاه الباطل الأمر الذي يجعلنا بحاجة إلى مقياس للتعرف على ما هو الاتجاه الصحيح.

يوجد هناك مجال آخر للاختلاف لكنه ليس مجالاً للحق والباطل بل هو مجال الذوقيات والأمور النسبية التي لا يوجد فيها حق وباطل، مثلاً هناك شخص يحب اللون الأصفر وآخر يحب اللون الأخضر هذه قضايا نسميها ذوقيات وكلاهما حق، فأنت لا تستطيع أن تقول على أحدهما حق والآخر باطل.

مجالات الحق والباطل أربعة، الأفكار، والقيم الأخلاقية، والأحكام التشريعية، والمواقف السياسية والاجتماعية أما ما عدا ذلك مثل القضايا الذوقية أو النسبية فهي خارجة عن دائرة الحق والباطل.

النظرية الإسلامية في الحق:

النظرية الإسلامية تؤمن بـ (وحدة الحق) وتعددية الاجتهاد وتوجد اليوم نظرية معاصرة تؤمن بها الليبرالية الغربية اسمها (تعددية الحق) يعني لا يوجد هناك حق واحد بل ان كل ما يعجبك هو حق فكل المجالات هي مثل القضايا النسبية كلها حق، اليوم الليبرالية الحديثة هكذا تقول.

وحدة الحق:

الإسلام والأديان الأخرى وفلسفات الحق تقول أن هناك وحدة حق وتعددية اجتهاد.

مثلاً في القضايا الفلكية فإن الواقع الخارجي لا يخلو أما ان الأرض تدور حول الشمس أو الشمس تدور حول الأرض هذه قضايا خارجية والحق فيها لا يمكن أن يتعدد ويصبح اثنين، وهكذا مثلاً الشمس هي مركز المجموعة الشمسية وهذه الكواكب تابعة لها أو أن مركز المجموعة الشمسية هو الأرض، على أرض الواقع فإن الحق واحد، إذا ثبت أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية إذن تكون نظرية مركزية الأرض باطلة وإذا ثبت أن الأرض ثابتة والشمس تدور حولها إذن فإن النظرية الأخرى باطلة، هكذا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء وفي الجغرافية وحركة الرياح وفي الحقائق الكونية الكبرى مثل وجود الخالق أو عدم وجود الخالق فإن الحق واحد في الجميع لا يتعدد، النظرية الدينية تؤمن أن الحق واحد لا يتعدد وما عداه باطل، الهدى في معرفة الحقيقة وفي مقابله ضلال وجهل، فهناك هدى وهناك

ضلال ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾^(١) أما أن يكون الجميع على هدى رغم اختلاف اعتقادهم فهذا مرفوض.

تعددية الاجتهاد:

لكن إلى جانب وحدة الحق يوجد شيء آخر يكمل النظرية هو (تعددية الاجتهاد) مثلاً في الفقه يوجد لدينا مراجع دين وكل شخص يقلد أحد المراجع، الحكم الشرعي واحد وهو ما عند الله وذلك هو الذي يمثل الحق، لكن يوجد عدة مجتهدين أنت حر في أن تقلد أحد هؤلاء المجتهدين بحسب المقاييس الشرعية، هذا نسميه تعددية الاجتهاد، وهكذا في القضايا الطبية والفلسفية والجغرافية والهندسية، وهذه نقطة هي من روائع مدرسة الإسلام ومدرسة أهل البيت ان لا يغلق الطريق على الحركة العلمية للإنسان، بل يقول أيها الإنسان ابحث عن الحق وقد تختلفون في النظريات لكن طالما كان العمل كله في اتجاه اكتشاف الحق فهو مقبول حتى إذا كان خطأ. ولهذا فإن أهل البيت عليهم السلام لم يُغلقوا باب الاجتهاد في معرفة الحقيقة الفقهية وغيرها، وقد أصبح هذا أحد نقاط الفرق بين الشيعة وبين أهل السنة.

أهل السنة قالوا هناك أربعة مذاهب ولا يوجد بعدها مذهب شرعي وهي المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي وهي مذاهب ولدت منذ القرن الثالث والرابع الهجري ولا يوجد عندهم مجتهد آخر ومرجع تقليد جديد، أما أهل البيت فقد قالوا رغم أن الحق واحد لكن أيها الناس أنتم اذهبوا واجتهدوا وإقرأوا القرآن وابحثوا وادرسوا واعملوا على اكتشاف الحقيقة، الحقيقة ليست حكراً على مجتهد واحد، وهكذا في كل المجالات العلمية الأخرى لكن طبعاً بشرطها وشروطها، ليس الاجتهاد على أساس قضايا

مزاجية وإنما الاجتهاد بحثاً عن الحق، الطيب من حقه أن يجتهد لكنك غير مستعد للاعتماد على طيب يعتمد على مزاجياته الخاصة وهكذا في المجالات الأخرى، الاجتهاد مطلوب ولكن باتجاه اكتشاف الحق وعلى اساس موازين علمية.

ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«يا كميل الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة _ يعني يبحث عن الحق حتى ينجو _ وهمج رعا». ^(١) هؤلاء الهمج لا يبحثون عن الحق بل يبحثون عن المكاسب والمنافع وتحت تأثير الرأي الجمعي والانفعال النفسي.

توجد كلمة رائعة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها: «قوام الدين بأربعة عالم مستعمل لعلمه، وجاهل لا يستتكف ان يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياء» ^(٢) المجتمع السعيد يحتاج إلى غني لا يبخل بماله، وكذلك إلى فقير لا يبيع آخرته بدنياء وجاهل لكن يبحث عن الحقيقة، وعالم يبذل علمه للآخرين.

إذن النظرية الإسلامية تقول وحدة الحق وتعددية الاجتهاد ليس على أساس ذوقي ولكن على أساس علمي.

نموذج الاجتهاد النضعي:

بنو إسرائيل لما عبروا البحر رأوا في ذلك الجانب قوماً يعبدون الأصنام فانقلبوا على نبيهم، ليس لديهم موضوعية في الطرح ولا أسس علمية وإنما أمزجة، قالوا اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، هم آمنوا بالله تعالى لكن لما عبروا البحر ورأوا القوم وأصبحت عندهم تعددية سياسية وفكرية، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا

(١) الخصال: ٢٥٧/١٨٦.

(٢) وفي الرواية نسخة أخرى تقول: «قوام الدنيا بأربع»، نهج البلاغة: الكلمات القصار/ رقم ٣٧٢.

إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ»^(١) لكن القضية هنا لم تكن من منطلقات علمية بل أصبحت ذوقية وليست قضية علمية موضوعية ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّمًا هُمْ فِيهِ (يعني هالك) وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

ولهذا فإن الإمام أمير المؤمنين بعد معارك صفين والجمل حين قال له رأس الجالوت (وهو المرجع الديني عند اليهود): أنتم ما مضى على وفاة نبيكم ثلاثين سنة حتى أصبح بعضكم يضرب وجه الآخر بالسيف. فأجابه أمير المؤمنين وهو قوي البديهة وواضح الرؤية قال: «وأما أنتم فلم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلمت اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة»^(٣).

البحث الثاني: التعددية الدينية:

أنتقل إلى بحث معاصر هو (التعددية الدينية).

هناك عدة معاني للتعددية الدينية.

المعنى الأول: أن الديانات كلها صحيحة وكلها حق رغم الاختلاف بينها. هذه النظرية من وجهة نظر الإسلام باطلة، فقد قلنا أنه توجد وحدة حق ولا يمكن اعتبار كل الأفكار والمعتقدات الدينية المتضادة حق.

المعنى الثاني: أن الناس أحرار في اختيار الدين، رغم انه يوجد حق وباطل، لكن الناس أحرار ولا يوجد تكليف من الله عليهم، كل واحد يعمل بما يريد ويختار ما يريد كما هي القضايا الذوقية. هذه النظرية أيضاً خطأ من وجهة نظر الإسلام.

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الأعراف: ١٢٨ و ١٢٩.

(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٢٤.

النظرية الإسلامية تقول رغم ان الناس أحرار في اختيار دينهم ومعتقداتهم ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١) لكن هم مكلفون باختيار ما هو الحق. مثلاً أنت حر في أن تذهب إلى هذا الطبيب أو أن تذهب إلى ذاك الطبيب، لكن علمياً أنت مكلف أن تذهب للطبيب العالم ولا تذهب إلى الطبيب الخرافي، هذا هو تكليفك، رغم انك حرٌ لكن العقل يقول لك: اذهب إلى ذاك الطبيب الصادق المخلص ولا تذهب إلى الطبيب الكذاب المخادع. الإسلام يقول الناس أحرار في أن يختاروا ما يريدون، ولكن إذا تركوا الحق فذلك هو الضلال والخطأ والخسران.

القرآن الكريم يقول: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾.^(٢)

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.^(٣)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.^(٤)
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.^(٥)

صحيح أن هناك حرية دينية لكن الإسلام يقول إلى جانب الحرية في المعتقد هناك إلزام عقلي باختيار ما هو الحق والصواب عبر الأدلة العلمية. هذه هي خلاصة النظرية الإسلامية في مسألة التعددية الدينية والمذهبية.

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) يونس: ١٠٨.

(٤) البينة: ٦ و ٧.

(٥) البلد: ١٧ - ١٩.

نحن في داخل الإطار الإسلامي.

أولاً: يوجد فينا شيعة وسنة، فيوجد حق وباطل، الحق هو التشيع وهو مذهب أهل البيت وما عداه باطل.

ثانياً هل توجد حرية مذهبية؟

نعم، مذهب أهل البيت يقول هناك فرصة للبحث، دعوا هذا الشاب يبحث ليكتشف الحقيقة هو مكلف بأن يبحث عن الحقيقة، ونظرية أهل البيت تقول إن الحقيقة واحدة وهذه الحقيقة الواحدة من ربحها فقد ربح الجنة ومن لم يؤمن بها فقد خسر الجنة.

الشيخ المجلسي في كتابه بحار الأنوار يذكر روايات صحيحة السند تقول إن من مات على غير ولاية أمير المؤمنين فمصيره بشس المصير، حيث لا تقبل أعماله ولا يدخل الجنة.

أذكر أنني مع أستاذنا الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه كان يستعرض هذه الروايات التي يذكرها الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة في باب العبادات وشرط قبول العادة، حيث تذكر مجموعة من الروايات أن الولاية هي أحد شروط قبول العادة.

الشهيد الصدر كان يستعرض هذه الروايات ويقول هذه روايات صحيحة في أن من لم يؤمن بولاية أهل البيت هو بمثابة من لم يؤمن برسول الله وهو بمثابة من لا يؤمن بالقرآن الكريم.

نحن نقول عن الذي لا يؤمن بالقرآن الكريم أن أعماله غير مقبولة.

لدينا مجموعة روايات في شروط قبول الأعمال وأن الولاية هي أهم تلك الشروط.

لكن علماءنا يذكرون الفرق بين القاصر والمقصر، فلعل شباباً في

أندونسيا أو في الصين لا يعرفون علياً والحسن والحسين وربما لا يكون لهم ذنب لأن ظروفهم لا تسمح لهم باكتشاف الحقيقة.

يذكر أحد مشايخنا المبلغين انه ذهب إلى قرية في الصين تُسمى صن صان يقول عندما بحثت في تاريخ هذه القرية وسبب تسميتها بهذا الاسم رأيت أن هذه القرية اسمها بالأصل مأخوذ من حسين حسين، حيث كان يوجد شيعة في هذه المدينة وهؤلاء كانت لهم مراسم حسينية يرددون فيها اسم حسين حسين، وبمرور السنين أصبحت هذه القرية اسمها صن صان.

إن موضع الشاهد هنا أنه من ممكن في قرية من القرى في أفريقيا أو في الهند لا يعرفون من هو جعفر بن محمد الصادق ولا موسى الكاظم ولكن ذلك بدون تقصير حيث لم يذهب لهم عالم ديني يشرح لهم الحقيقة، هؤلاء يسمّون قاصرين وليسوا مقصّرين أي غير متعمدين، إذن يوجد فرق بين القاصر والمقصر وفقهاؤنا يرون أن المقصّر هو الذي يعاقب ويحاسب أما ذاك القاصر الذي لم يجحد بحقيقة عرفها، وإنما ضاعت عليه الحقيقة فإن الله تعالى يرحم هؤلاء.

ولهذا فإن الروايات التي قرأت بعضها عليكم تقول عن الإمام عليّ عليه السلام: «إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا...، وباب يدخل منه سائر المسلمين»^(١) إذن سائر المسلمين يدخلون الجنة لكن بشرط أن يكونوا غير معاندين ولا معادين للحقيقة كما هم أعداء أهل البيت وأعداء الشيعة «والباب الثامن يدخل منها سائر المسلمين ممن لم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت».

أهل البيت يقولون أن الحق الذي هو واحد يحتاج إلى مقياس.

هل تستطيع أن تقول ان كل الناس هم مقياس الحق؟ وإذا كان الناس مختلفين فهل يعني ذلك تعدد الحق؟

كلا، القرآن الكريم يقول إن الأنبياء والأولياء المعصومين هم مقياس الحق.
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأُنْزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾^(١)

وكذلك «عليّ مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث ما دار» هذا هو مقياس الحق، إذا أردت الحق يجب أن تمشي وراء المقياس، أي يوجد هناك مصباح يجب أن تمشي وراءه، صحيح أن العرف الاجتماعي يقول، أنت حرّ في أن تدخل هذه الغابة لكن يجب أن تدخلها مع مصباح الأنبياء دورهم دور المصباح الذي يضيء الطريق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) هذه هي نظرية الدين في مسألة الحق والتعددية الدينية والمذهبية.
رواياتنا هكذا تقول إن أهل البيت هم الصراط المستقيم.

أهل البيت عليهم السلام هم صراط الحق:

المفضل يقول سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الصراط فقال: «هو الطريق إلى معرفة الله وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة أما الصراط في الدنيا هو الإمام المفترض الطاعة»^(٣) هذا هو الصراط وكل من يتبع هذا الصراط ينجو والذي لا يتبعه يهلك.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(٣) معاني الأخبار: ١/٣٢.

المحاضرة السادسة والثلاثون:

ميراث النبوة

«وميراث النبوة عندكم».

حديثنا اليوم عن هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة وهو قوله: «وميراث النبوة عندكم» هذا المعنى يتكرر في موردٍين من الزيارة الجامعة الكبيرة هنا يقول «وميراث النبوة عندكم» وقبل ذلك في مقطع آخر هكذا قال «وورثة الأنبياء» حديثنا عن الميراث أن النبوة هل هي ميراث أم هي استحقاق؟

وما معنى الميراث؟ وما هي أصول التوارث؟

حديثنا عن هذا الاتجاه وكيف كان أهل البيت هم أصحاب ميراث الأنبياء؟ الإرث: معناه في اللغة التركة التي يتركها الإنسان بعد أن يموت.

الوراثة: تعني عملية الانتقال من الشخص الميت إلى الوارث هذا يسمى وراثة.

أنواع التركة:

التركة وهي الشيء الذي يورث على عدة أنحاء وصور وأنواع.

مرة تكون تركة مالية، وأحياناً تركة أخلاقية كما تنتقل صفات الأب إلى الابن وأحياناً في الصفات البدنية، ولهذا يقول العلماء في الجانب الأخلاقي إن الصفات الوراثية هي أكثر تأثيراً في الطفل من الفعاليات التربوية، أي أن الإنسان يخضع في أخلاقته وسلوكه إلى عاملين، أما عامل وراثي وأما عامل تربوي، كالمدرسة والأم والأب والمحيط الاجتماعي والكتب فهذه تضيف عليه أخلاقية خاصة، لكن بالحقيقة فإن الصفات الوراثية التي يأخذها من الأب والجد والخال هذه أكثر أثراً في سلوكيات الولد.

ولهذا عندنا حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الخُلُق

خُلُقَان أحدهما نية والآخر سجية».

قيل: فأيهما أفضل؟

قال عليه السلام: «خُلِقَ النَّبِيُّ»^(١) أي ان هناك نوعين من الأخلاق أحدهما الأخلاق الوراثية، كما إذا كان أبوه شجاعاً وهو أيضاً ورث الشجاعة منه، أو كان أبوه كريماً هو أيضاً ورث الكرم منه، هذه قضية أخذها بالوراثة وبدون جهد، هذه يسميها الإمام عليه السلام أخلاق سجيّة أي ان طبيعته النفسية مبنية على ذلك، لكن يوجد نوع ثان من الأخلاق وهي أخلاق رويّة، أي ان الإنسان هو يخلق نفسه ويربّي نفسه عليها، هو لم يرث هذه الأخلاق لكن يحاول أن يتعلّم ويتأقلم ويهذب نفسه، يعاشر الصالحين والكرماء حتى يكون من الصالحين والكرماء، هذه يسميها الإمام أخلاق رويّة، أي يتروى ويتربى عليها، فلما سُئِلَ الإمام عليه السلام أيهما أفضل الأخلاق السجيّة أو الأخلاق الرويّة؟ قال عليه السلام: الأخلاق الرويّة لأن هذه الأخلاق فيها جهد وتعب.

وعلى كل حال ولنعد إلى أصل البحث فنقول إن التركة التي تنتقل من الأب إلى الابن، مرة تكون تركة مالية كما في قوله تعالى: ﴿وَأُورَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾،^(٢) ومرة تكون تركة أخلاقية معنوية.

وأحياناً تكون التركة التي تنتقل بالتوارث هي عبارة عن موقع سياسي مثلاً مَلِك يموت فيكون ابنه مكانه، هذا هو التوارث على أساس القوة والغلبة أو الأسرة والقبيلة، وليس على أساس الانتخابات ولا على أساس لياقة وأهلية.

وهناك توارث في المقامات والمواقع الدينية أي (ب) يأخذ من (أ) لكن لا يأخذ أموالاً ولا مَلِكاً وإنما يأخذ العلم والكمال والمقامات الإنسانية العالية، هنا القرآن الكريم يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٣) الكتاب هو عبارة عن العلوم الإلهية التي يتوارثها الأنبياء.

(١) تحف العقول: ٣٧٣.

(٢) الأحزاب: ٢٧.

(٣) فاطر: ٣٢.

لدينا ميراث آخر وهو ميراث الآخرة والجنة، هذا ميراث ليس بمعنى أن (أ) مات وورثه (ب)، بل ميراث بمعنى الأخذ والاستحقاق ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾^(١) هنا ﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ليس بمعنى أن الجنة يأخذها الابن من أبيه، بل إن الله تبارك وتعالى أعطاهم هذه العطية وهي تسمى ميراث باعتبار أنها تكون في عاقبة أمرهم انتقال من مالك حقيقي هو الله إلى مالك مجازي هو الإنسان.

والسؤال الآن أن هذا الانتقال الوراثي سواء في الأموال والأخلاق والصفات أو في المقامات الإنسانية أو مقامات الملك أو في الآخرة والجنة، هذا الانتقال الوراثي بكل معانيه ومجالاته السابقة ما هي أسبابه وعوامله؟ وما هي واسطة الانتقال؟

وسائط التوارث:

توجد مجموعة وسائط لانتقال التركة.

الواسطة الأولى: هي الجينات الوراثية، فالعلم اكتشف أن صفات النخلة والشجرة تنتقل إلى باقي الأشجار والنخيل وصفات الأب تنتقل إلى أبنائه عبر الجينات الوراثية، هناك كائنات مجهرية لا ترى بالعين تنتقل من أصلاب الرجال إلى أرحام الأمهات، في تلك الكائنات المجهرية، مكتوب فيها الشكل والأخلاق واللون في تلك الخلية المجهرية التي لا ترى بالعين، كل وجودك الآن كان موجوداً في مخلوق صغير يحتاج مليون مرة أن تكبره بالمكروسكوب حتى نراه.

الواسطة الثانية: هي عبارة عن القوة والغلبة، مثلاً الحكم العباسي أخذ المُلْك من الحكم الأموي بالقوة وليس عن طريق الوراثة، هؤلاء يتوارثون

الحكم والمُلْك، من خلال الانقلاب العسكري والغلبة العسكرية إذن فالقوة والغلبة هي أحد الوسائط في وراثة الملك.

الواسطة الثالثة: التقدير والاصطفاء الإلهي، يعني أن الله تعالى يجعل (ب) وريثاً لـ (أ) ليس على أساس الغلبة وإنما على أساس التقدير الإلهي الشرعي، يقول القرآن: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي هذه وراثة على أساس التقدير والاستحقاق والاصطفاء الإلهي ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾^(١).

وهكذا يقول القرآن إن المقامات الكمالية في الإنسان تنتقل عبر إرادة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾^(٢) هذا اصطفاء إلهي ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٣).

ميراث النبوة:

من المناسب أن أقف عند قوله: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾^(٤) حيث توجد وراثة مُلْك لكن عبر الاصطفاء الإلهي.

هذا الأمر فيه بحث تاريخي وسياسي مهم جداً نتناوله اليوم بشكل موجز، وهو عبارة عن ظاهرة تاريخية ورؤية دينية.

وخلاصة هذه الرؤية الدينية للتاريخ أن النبوات مما قبل داود وسليمان كما تقول الروايات كان المُلْك السياسي في بيت والنبوة الإلهية في بيت آخر، ودور النبي هو عبارة عن الارشاد والوعظ وليس عبارة عن الحاكمية السياسية.

(١) النمل: ١٦.

(٢) آل عمران: ٣٣ و ٣٤.

(٣) فاطر: ٣٢.

(٤) النمل: ١٦.

لكن حينما جاءت مرحلة سليمان وداود شهدنا تقدماً آخر، وهو عبارة عن اتحاد المرجعية الدينية والمرجعية السياسية لأول مرة في بيت واحد وشخص واحد فأصبح الحاكم هو النبي والنبي هو الحاكم.

أما ما قبل ذلك فنجد يوسف مثلاً قال للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾^(١) أي اجعلني وزيراً لك، فيما يبقى الحاكم السياسي وهو الملك شخص آخر غير النبي. وكذلك موسى وهارون حيث قال الله تعالى لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٢) فإن كل ما طلبه موسى وهارون من فرعون هو التسامح مع بني إسرائيل وعدم استرقاقهم. لم يقلوا له تنح عن الملك والحكم، وإنما قالوا: ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾^(٣) أي ارشده إلى أن يمارس ممارسة تعتمد الحرية والكرامة الإنسانية فيما يبقى هو الملك، فكان الملك في بيت والنبوة في بيت آخر، هذا كان في عهد بني اسرائيل، ولكن نتيجة التكامل الاجتماعي تغيرت الإرادة الإلهية حيث أن الله تعالى شاء منذ مرحلة سليمان وداود أن تتوحد المرجعية الدينية والسياسية حتى وصلنا إلى نبينا محمد ﷺ حيث كان هو النبي وهو القائد العسكري السياسي.

وحدة النبوة والملك:

القرآن الكريم يشير إلى هذا الموضوع في آيات عديدة نقرأ منها

قوله:

﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا

(١) يوسف: ٥٥.

(٢) طه: ٤٣ و ٤٤.

(٣) طه: ٤٧.

مَلَكًا^(١) لم يقولوا له أنتَ كن ملكاً علينا، لكن نريد ان يكون علينا قائداً ﴿تَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) هذا النبي أشار لهم ان واقعكم الأخلاقي لا يسمح لكم أن تؤسسوا دولة ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾^(٣) فأنتم تحملون ادعاءات عريضة بدون تطبيق، وإذا جدَّ الجد فليس لديكم قدرة ان تمسكوا بالحكم الديني.

على كل حال فإن الله تبارك وتعالى قد استجاب لهم، فيسر لبني اسرائيل ملكاً من بعد موسى اسمه طالوت، النبي موجود لكن القائد العسكري أيضاً موجود، وكان النبي داوود هو جندي في جيش طالوت في أرض مصر وبلاد الشامات، لكن داوود الذي هو الآن جندي لَمَعَ نَجْمُهُ وبرز اسمه بسرعة، ويبدو أنه كان مقاتلاً من الطراز الأول، ويجيد القنص بشكل كبير، لقد كان المعسكر الآخر بقيادة جالوت.

طالوت قال لجنوده مَنْ الذي يقوى على جالوت؟

فقال له داوود: أيها الملك أنا أقتل جالوت، فأخذ داوود خمس أحجار وضعهن في مخلاته _ أي مخزن الأحجار _ ثم تقدم إلى الخطوط العسكرية المتقدمة، وقال: أريد منكم فقط أن تروني أين جالوت؟

فلما أرشدوه عليه اقترب منه جداً، فسدّد له حصاةً وقعت في جبينه فخرّ صريعاً، وانهزم عسكره وبرز يومئذ داوود وأصبح يُشار إليه بالبنان باعتباره هو القائد الحقيقي وليس طالوت، ولما توفي طالوت أصبح القائد العسكري داوود، فاجتمعت القيادة العسكرية والقيادة الدينية لأول مرة في تاريخ الأنبياء وبذلك انتقلنا إلى مرحلة جديدة على خلاف المرحلة السابقة.

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

هذا بحث في غاية الأهمية، اليوم نحن نحتك به احتكاكاً حقيقياً. هناك ادعاء يقول إن الدين يتضاد مع السياسة وأن المرجع الديني يجب أن يتعد عن السياسة، لكن نحن نعتقد أن هذا ادعاء كاذب، الأنبياء أتحدث فيهم المرجعية الدينية والمرجعية السياسية، داوود وسليمان هم الذين بدءوا هذه المرحلة.

خصائص حكومة داود:

لقد كانت مجموعة خصائص لحكومة داوود وسليمان.

الخصوصية الأولى: إقامة الحكومة الدينية:

إن أول من أقام الحكومة الدينية هو النبي داوود عليه السلام وبعده سليمان عليه السلام، وهذا يدل على أن الدين قادر على أن يؤسس مجتمعاً مدنياً، وأنه قادر على أن يدير العملية السياسية فلقد اثبتت حكومة داوود وسليمان قدرة الدين على إدارة العملية السياسية في قمة مستوياتها، لقد ضرب الله تعالى لنا مثلاً على أن الأنبياء والعلماء ومراجع الدين يملكون القدرة على إدارة العملية السياسية، بل لديهم القدرة على إقامة أعظم حكم في العالم ولعل ذلك هو أجمل تفسير لقول سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾^(١) أي أن الملك الذي كان عند داوود وسليمان لا يوجد مثله في العالم إلى يوم يعثون.

الخصوصية الثانية: مكافحة الفساد الإداري:

نصل إلى الخصوصية الثانية في حكومة داود وسليمان وهي مكافحة الفساد الإداري حيث أن القرآن الكريم فيه إلفات جميل إلى ذلك.

هناك سؤال حقيقي في أن الأنبياء والعلماء ومراجع الدين هل لديهم قدرة على مكافحة الفساد الإداري أم ليس لديهم قدرة لطبيعة روح التسامح والمحبة والحنان الذي يحملوه؟

مكافحة الفساد الإداري:

القرآن الكريم يضرب لنا نموذجاً من سليمان في مكافحة الفساد الإداري. في القرآن الكريم يوجد قصتان عن سليمان واحدة مع الهدهد وأخرى مع شياطين الجن، فكما تعرفون إن الله تعالى سخر الطير لسليمان بحيث أن جنود سليمان كانوا من الإنس والجن والشياطين والطيور والجمال والرياح، وكان الهدهد يعمل كمخابرات عند سليمان، وقد أرسله في مهمة معينة فتأخر الهدهد، فقال سليمان: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(١)، لم يقل سليمان «العفو أقرب للتقوى» فالمهمة هنا هي مهمة قانونية، وعمل إداري وحقوق الناس، وحين يتخلف أحد عن ذلك فإنه يحتاج إلى عقوبة، هنا ليس موطن الرحمة وإنما هو موطن العقاب.

هناك سجون كانت لدى سليمان، يقول الله تبارك وتعالى في قصة سليمان: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٢) هم مقيدون بالسلاسل والحديد في سجون سليمان، هذا هو مكافحة الفساد الإداري مما يدل على أن الحكم الديني قادر على بناء المجتمع المتحرك والنشط والفاعل، الذي يستبطن القانون والعقوبات وليس مجرد مواعظ وأخلاقيات.

الخصوصية الأولى في حكومة داوود وسليمان هي تأسيس الحكومة الدينية، والخصوصية الثانية هي تسخير الجبال والطير والرياح والقدرة الإدارية والحزم والانضباط القانوني لدى داود وسليمان، يقول تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ

(١) النمل: ٢٠ و ٢١.

(٢) ص: ٣٦ - ٣٨.

دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ^(١) وأيضاً يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ^(٢)﴾.

أسطورة بساط الريح:

هذا الحديث تناولناه في محاضرات سابقة، لكن توجد هناك أسطورة

اسمها بساط الريح وربما يكون مصدر هذه الأسطورة هو بساط سليمان.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي

أن الرياح كان سليمان يقول لها أمض يميناً وامطري في تلك البلاد، فهي تسير مسافة شهر وتسقي الناس، وهكذا يقول لها امضي يساراً، لقد كانت ميزة سليمان ان الريح تجري بأمر الله أولاً وثانياً تجري بأمر سليمان بإذن الله تعالى.

هنا جاءت أساطير واسرائيليات تقول إن سليمان كان عنده بساط وهذا

البساط له ألف ركن وعلى كل ركن ألف بيت، أي ان هذا البساط كان يتسع إلى مليون بيت، بعض الباحثين^(٣) جاء وناقش ذلك وقال إن هذا البساط بهذا الوصف المذكور يجب أن تزيد سعته على مائة كيلومتراً وهذا خيال وأسطورة، وإذا افترضنا أن كل بيت في هذا البساط متكون من شخصين إذن هذه المدينة القائمة على هذا البساط تتكون من مليونين شخص، وإذا كان عدد جنود سليمان على هذا البساط فقط مليونين، إذن فإن عدد الناس الذين حكمهم سليمان ما بين أطفال ونساء وما شاكل ذلك تقريباً سيزيد على عشر ملايين، ويومئذ أرض فلسطين لا تكفيهم، ويومئذ أين ينزل هذا البساط فإن فلسطين لا يوجد بها مساحة كيلومتر واحد مسطح فكلها مرتفعات وتلال

(١) الأنبياء: ٧٩.

(٢) سبأ: ١٢.

(٣) أنظر قصص الأنبياء/ النجار: قصة سليمان.

وهضاب، ولذا فإن القصة لا تعدو أن تكون خيالاً وأسطورة. لذا فإن القرآن الكريم لا يذكرها، وإنما القرآن يقول الرياح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. هذه واحدة من خصوصيات حكم سليمان وداوود.

الخصوصية الثالثة: معرفة منطق الطير:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا^(١)﴾ لقد كان يفهم لغة الحيوانات.

اليوم يحاول العلم وبجهود كبيرة وتجارب طائلة تطول عشرات السنين لمعرفة لغة الحيتان والطيور والذئاب، وبالفعل فهذه الحيوانات في كل حالة لديها صوت معين، فعند الخوف تستخدم نبرات معينة وكذلك عند الفرح والهجوم وفي كل حالة لها نبرة خاصة، اليوم العلم يثبت ذلك، لكن القرآن الكريم بشكل مفصل يقول إن الحيوانات لديها حديث ومنطق وسليمان كان يعرف منطق الطير والنمل.

دعاء للشباب:

وبهذا الصدد أريد أن أذكر لكم هذا الدعاء لكي يحفظه الشباب والشابات وهو إن سليمان لما سمع هذه النملة وفهم ما تقول قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ^(٢)﴾ هذه الآية وبنفس هذا المضمون ومع اختلاف يسير في العبارات جاءت في موضع آخر من القرآن الكريم، فهذه الآية على لسان سليمان جاءت في سورة النمل وجاءت على لسان الصالحين في موضع آخر من القرآن الكريم حيث تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِلَادِهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ

(١) النمل: ١٨ و ١٩.

(٢) النمل: ١٩.

كُرْهَا وَوَضَعَتْهُ كُرْهَا وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ^(١) اني آمل من الشباب أن يحفظوا هذا الدعاء ويقرؤوه في قنوتهم في الصلوات.

نتيجة البر بالوالدين:

الشباب حينما يكون بهذا الشكل من الدعاء لوالديه ولذريته يقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾^(٢) حيث يتحدث القرآن عن ثلاث نتائج يعطيها الله تعالى للإنسان البار بوالديه.

إن البر بالوالدين هو قضية أخلاقية لكن انظروا نتيجتها العظيمة.

النتيجة الأولى: ﴿تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

أي نتقبل العمل الجيد فقط وأما والرديء فإن الله تعالى يتركه ويحذفه من سجل أعمالهم.

النتيجة الثانية: ﴿وَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

النتيجة الثالثة: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَغَدَ الصَّدَقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

هذا الدعاء القرآني عظيم وله مثل هذه النتائج والمفروض أن أولادنا

يحفظون هذا الدعاء ويقرؤوه في القنوت والسجود ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

نطوي هذه الخصائص في حكومة داود وسليمان ونرجع إلى أهل

البيت ﷺ.

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) الأحقاف: ١٦.

(٣) الأحقاف: ١٥.

النبوة هل هي وراثية؟

نحن ذكرنا أن أهل البيت عليهم السلام عندهم ميراث النبوة، «وميراث النبوة عندهم»، يوجد هنا سؤال هل أن النبوة وراثية؟
الجواب كلاً، فالنبوة عبارة عن استحقاق ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١).

فليس كل ابن أصبح نبياً والدليل نفس قصة داوود وسليمان فإن داوود قام ابنه آبشالوم بانقلاب عسكري عليه، حيث كان لديه ولدان أحدهم اسمه سليمان والآخر آبشالوم.

قصة آبشالوم:

آبشالوم كان ولداً فاسداً لداوود قام بانقلاب عسكري على داوود، وبالفعل سحب السلطان من داوود، ولكن سليمان وهو الابن الصالح جمع قوات عسكرية وأسقط آبشالوم وقتله، وأصبح سليمان وريث داوود، إذن فهذه الوراثة تجري وفق استحقاق وإلا فإن آبشالوم هو أيضاً ابن داوود.

هكذا أيضاً موسى وهارون فإنهم أخوة والمفروض أن لا يوجد توارث بين الاخوة لأن التوارث هو بين الأب والأولاد لكن الله تبارك وتعالى هو الذي يصطفي لرسالاته من يشاء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٢).

مع الأسف الشديد فقد قرأت في بعض الكتابات أن هناك من يقول: ما معنى «وميراث النبوة عندهم»؟! عجباً هل أن النبوة توارثية؟ إذن هذه النصوص كاذبة ومفتعلة من وجهة نظر هؤلاء البسطاء الغافلين.

نعم، النبوة ليست توارثية بل هي على أساس استحقاق والله تبارك

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

وتعالى يورثها من يشاء من عباده، حسب الاستحقاق وليس حسب التناسل الجسمي. فإذا قلنا «ميراث النبوة عندكم» فإن هذا ينسجم مع القرآن الكريم الذي يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾^(١).

ومن ناحية ثانية فإن النص هكذا يقول: «وميراث النبوة عندكم» ولم يقل النبوة عندكم، فالعلوم والخصال النبوية هي الموجودة عند أهل البيت عليه السلام.

فعلي عليه السلام ليس نبياً والحسن والحسين ليسوا أنبياء بل أخلاق النبي وعلم النبي عند أهل البيت عليهم السلام، فالميراث إنما هو بهذا المعنى وليس بمعنى النبوة حتى يقول قائل أنتم تدعون النبوة للأئمة الأطهار، العبارة تقول: «وميراث النبوة عندكم» أين ميراث النبوة؟ هل هو عند يزيد بن معاوية الذي يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل؟

أو عند الحسين عليه السلام الذي يقرأ القرآن ورأسه على رأس رمح طويل يطاف به في البلدان؟

لقد كان رأس الحسين وهو قطيع على الرمح يقرأ قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾،^(٢) الروايات تقول إن العقيلة زينب التفتت إلى الرأس وخاطبته قائلة:

يا هلالاً لما استتمّ كمالاً غاله خسفه فأبدى غروباً
ما توهمت يا شقيق كان هذا مقدراً مكتوباً

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) الكهف: ٩.

المحاضرة السابعة والثلاثون:

عودة الخالق يوم القيامة

«وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

حديثنا في هذه الليلة عن هذا المقطع «واياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم». المعنى اللغوي إن عودة الناس إلى أهل البيت وحساب الناس على أهل البيت.

مسيرة البدء والعودة:

الإياب بمعنى العودة ومعنى هذا أن لدينا مسيرتين مسيرة بدء، ومسيرة عودة. القرآن يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إذن يوجد بدء وعودة. القرآن الكريم يذكر هذا المعنى ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(١) وهي تؤكد ان عودة الخلائق إلى الله وحسابهم على الله تعالى، وحينئذ سيرز ههنا اشكال وهو ان القرآن الكريم يذكر أن عودة الخلق إلى الله وحساب الخلق على الله تعالى، بينما هنا في الزيارة الجامعة تذكر أن عودة وحساب الخلق إلى أهل البيت، هكذا يقول تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾^(٢)، بينما الزيارة الجامعة تقول: «واياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» فهل هذا يتناقض مع ما جاء في القرآن الكريم؟

لدينا مسيرة بدء ومسيرة عودة.

نحن الآن في هذه الحياة الدنيا، في مسيرة العودة إلى الله تعالى يعني منذ أن يُخلق الإنسان في هذه الدنيا هو في الحقيقة لا يبدأ رحلة البدء وإنما يبدأ رحلة العودة، أي حينما يُخلق في الدنيا يبدأ بالعودة إلى الله تعالى ولهذا

(١) الغاشية: ٢٥ و٢٦.

(٢) الغاشية: ٢١ - ٢٦.

فإن القرآن الكريم هكذا يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(١) كل شخص منكم حينما يكبر يوماً يكون قد قطع يوماً في مسيرة العودة واقترب من الله تعالى بمقدار ما قطع من هذه المسافة الزمنية.

العودة إلى أهل البيت عليهم السلام:

ما معنى إياب الخلق إلى أهل البيت وحساب الخلق على أهل البيت وكيف ينسجم هذا مع القرآن الكريم؟ هناك معنيان وكلا المعنيين صحيح:

المعنى الأول: إن إياب الخلق إلى أهل البيت يعني في الدنيا حينما تشتد الخطوب بالناس، الخطوب الثقافية والمحن السياسية والمشاكل الاجتماعية الفردية أو الجماعية، يلوذون بأهل البيت عليهم السلام.

ولهذا فإن عمر بن الخطاب كان كلما تشتد عليه المشاكل يأتي إلى أمير المؤمنين ثم يقول: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن)، كذلك كان أبو بكر، كانت هناك صراعات ثقافية، اليهود والنصارى والروم كان عندهم هجوم ثقافي، المسلمون كانوا يلوذون بعلي عليه السلام من الهجمات الثقافية التي يقوم بها الروم عبر رُسُلهم من النصارى واليهود، وهكذا في زمن الإمام الصادق عليه السلام حينما انتشر مذهب الدهريين أي الملحدين، كان الناس يلوذون بالإمام الصادق والإمام الباقر، وحينئذ كان الإمام يجد لهم الحل.

فالمعنى الأول لإياب الخلق إليكم، أي في الدنيا يلوذون بأهل البيت وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لَئِنْ دَهَتْكَ الرِّزَايَا وَالْدَهْرُ عَيْشَكَ نَكَّدَ

بكاظم الغيظ موسى وبـالجواد محمـد

والآخر يقول مخاطباً أمير المؤمنين:

بقبرك لذنا والقبور كثيرة ولكن من يحمي الجوار قليل

المعنى الثاني: إن إياب الخلق وحسابهم في يوم القيامة على أهل البيت أي يوم يقف رسول الله ﷺ وأهل البيت ويعرض الناس للحساب، فإن الذي يقف على الصراط والحوض وعلى باب الجنة وعلى باب النار هم أهل البيت، هذا هو معنى أن إياب الخلق بعد الموت إلى أهل البيت، هذا المعنى أيضاً معنى صحيح، والقرآن والنصوص الدينية كثيرة في هذا الشأن بما لا يقبل الشك.

منها النص المتفق عليه لدى الشيعة والسنة: «عليّ قسيم النار والجنة»^(١) هذا الحديث لا يوجد شيعي ولا سني ولا ناصبي لا يؤمن به فهو متفق عليه بقول رسول الله ﷺ، وقسيم الجنة والنار هو ترجمة أخرى لـ «أن إياب الخلق إليكم» فإذا كان عليّ عليه السلام قسيم النار والجنة فمعناه أن المحاسب الذي يميز بين أهل الجنة والنار هو الإمام عليّ عليه السلام.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢) الرسول يكون شاهداً على الناس، الرسول يعني سيد أهل بيت النبوة، له موقع الشهادة على الناس في الدنيا وموقع الشفاعة في يوم القيامة.

قال رسول الله ﷺ أيضاً في الحديث المتفق عليه لدى الشيعة والسنة: «أدخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»^(٣) إذن يوم القيامة يكون الفيصل

(١) أنظر: أمالي الصدوق: ٨٣ / مجلس ٨ / ح ٤/٤٩.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) توحيد / الصدوق: ٤٠٧.

بين الجنة والنار هو رسول الله، من يشفع له يذهب إلى الجنة ومن لا يشفع له يذهب إلى النار، فهذا ترجمة أخرى لـ «أن إياب الخلق إليكم».

الحديث الشريف للإمام الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة وجمع الأولين والآخرين لفصل الخطاب ودُعي رسول الله ﷺ ودُعي أمير المؤمنين عليه السلام فيكسي رسول الله حلة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ويكسي عليّ مثلها، ثم يُدعى بنا فيدع إلينا حساب الناس، فنحن والله نُدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار»^(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى في سورة الغاشية: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» «إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا ما كان الله سألناه ان يهبه لنا فهو لهم، وما كان لنا فهو لهم»^(٢). يعني ان الإمام الباقر يقول ذنوب الشيعة ما كان بين الله وبينه نطلب من الله ان يغفرها لهم، وما كان بينهم وبيننا نحن أيضاً نغفره لهم.

الإمام الصادق عليه السلام يقول: «كل أمة يحاسبها إمام زمانها ويعرف الأئمة أوليائهم وأعدائهم بسماهم»^(٣) أي يعرفون أوليائهم وأعدائهم من وجوههم وهو قوله تعالى: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ»^(٤) حيث توجد يوم القيامة منطقة مرتفعة مشرفة على الجنة والنار تسمى الأعراف وهناك رجال وهم الأئمة يعرفون كلًّا بسماهم فيعطون أوليائهم كتابهم يمينهم فيؤمر بهم إلى الجنة بغير حساب، ويعطون أعدائهم كتابهم بشمالهم فيؤمر بهم إلى جهنم بغير حساب.

هذه هي الفكرة ان حساب الخلائق يوم القيامة على رسول الله ﷺ وأهل البيت.

(١) أنظر: بحار الأنوار ٧: ٣٣٧.

(٢) البحار ٢٤: ٢٦٧.

(٣) البحار ٨: ٣٣٩.

(٤) الأعراف: ٤٦.

ما هو الجواب على التضاد بين هذه الفكرة وبين التصريح القرآني الذي يقول ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أي ان حسابهم على الله تعالى؟

نظرية الوسائط:

الجواب واضح من خلال نظرية تُسمى نظرية الوسائط، والتي تعني أن الله تعالى هو خالق البشر، لكن من خلال وسائط، أنت أليس خلقتك الله تعالى بواسطة أمك وأبيك؟ فلو قال قائل أن أُمِّي وأبِي هما اللذان أولداني فإن هذا صحيح، وأيضاً لو قال إن الله تعالى هو الذي خلقتني فهذا أيضاً صحيح. الله تعالى في الخلق يعتمد الوسائط والأسباب.

الموت كذلك أيضاً، القرآن الكريم يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١) لكن إلى جانب ذلك توجد آية أخرى تقول: ﴿الَّذِينَ تَوْفَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢) فهنا يقول الملائكة تتوفى الناس وتلك الآية تقول ان الله هو الذي يتوفى الأنفس فهل هذا تناقض؟

هذا في الحقيقة ليس تناقضاً قرآنياً إنما هو نظرية الوسائط بمعنى أن الله تعالى هو السبب الأكبر وسبب الأسباب وهؤلاء وسائط.

وهكذا مثلاً نظرية الحساب فإن القرآن يقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أي على الله تعالى، لكن هناك آية أخرى تقول: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٣) فهنا لا يوجد تناقض الحساب على الله تعالى لكن الله تعالى جعل وسائط للحساب أيضاً وهم منكر ونكير في القبر، أو نفس الإنسان يحاسب نفسه يوم القيامة فنظرية الوسائط تحل هذه المشكلة، فالخلائق يوم القيامة الله تعالى يحاسبهم من خلال وبواسطة رسول الله ﷺ أو الأئمة الأطهار عليهم السلام.

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) النحل: ٢٨.

(٣) الإسراء: ١٤.

مشاهد القيامة:

هذا الموضوع يفتح لنا باباً قرآنياً جميلاً عن بعض مشاهد يوم القيامة، فلنتقل إلى مشاهد يوم القيامة ونرى القرآن ينقل مجموعة مشاهد من يوم القيامة.

المشهد الأول:

القرآن الكريم يسمي يوم القيامة بيوم الجمع أي الاجتماع الأعظم البشري الكوني هو أضخم اجتماع، في هذا الاجتماع، يوجد اجتماع في جهنم واجتماع في الجنة القرآن يقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾^(١) أي يقال لكل شخص: من هو إمامك اذهب معه، الناس يوم القيامة كل منهم يمشي وراء أمامه.

المشهد الثاني:

لقاءات أهل جهنم رغم شدة العذاب يقول القرآن: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ﴾^(٢)

المشهد الثالث:

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾^(٣) أهل جهنم يقولون كان معنا في الدنيا ناس كنا نحسبهم من الأشرار لكنهم الآن غير موجودين معنا في جهنم ﴿أَتَخَذْنَاكُمْ سِخْرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾^(٤) أي هل كنا على باطل حينما كنا نسخر منهم، أم هم اليوم معنا في جهنم لكننا لا نراهم. ﴿لَإِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾^(٥) القرآن يقول هكذا يتخاصم أهل النار بين

(١) الإسراء: ٧١.

(٢) سبأ: ٣١ و ٣٢.

(٣) ص: ٦٢.

(٤) ص: ٦٣.

(٥) ص: ٦٤.

المؤمنون في الجنة يتفرجون عليهم، يقول هؤلاء الظلمة لأهل الجنة: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(١) يقولون انظروا إلينا حتى نأخذ من نوركم، المؤمنون يقولون: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾^(٢) هذه بعض مشاهد يوم القيامة.

المشهد الرابع:

من جملة تلك المشاهد مشهد في الجنة، المؤمن حينما يدخل الجنة يقول: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ * إِذَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَتَمُّ مُطْلَعُونَ * فَاطْلَعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

هذا مشهد من مشاهد أهل الجنة ﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ * إِذَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَتَمُّ مُطْلَعُونَ * فَاطْلَعْ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ لَتُرْدِينَ﴾^(٣) أي أوشكت أن تجرني معك ﴿وَكُلُوا نِعْمَةً رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٤) أي لكنت في جهنم مُحَضَرًا.

إذن يوم القيامة هو يوم الجمع وكل أناس يدعون بآمامهم وإذا كان كذلك، فسوف يُدعى شيعة أهل البيت بآمامهم وهم الأئمة الأطهار عليهم السلام وحينئذ من الطبيعي ان يكون «إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» هذا ثابت بالبرهان والتصديق القرآني.

ضمان الجنة:

رسول الله ﷺ يقول: «من يضمن لي خمسا أضمن له على الله الجنة».

قيل: يا رسول الله ما هي؟

(١) الحديد: ١٣.

(٢) السابق.

(٣) الصافات: ٥١ - ٥٦.

(٤) الصافات: ٥٧.

قال ﷺ: «النصيحة لله، والنصيحة لرسوله، والنصيحة لكتاب الله، والنصيحة لدين الله، والنصيحة لجماعة المسلمين».^(١)

فالدين هو النصيحة، وإذا كان الإنسان ناصحاً في حياته فإن رسول الله يضمن له الجنة، ربما لا يكون كثير الأعمال العبادية لكن يكون مخلصاً ونصوحاً لشعبه ولدينه ووطنه ولقرآنه.

اذكر لكم قصة:

موسى كان مرة واقفاً على ساحل البحر ربما هو البحر الأحمر وربما هو النيل، لأن موسى كان في مصر وهي مطلّة على البحر الأحمر، كما ان نهر النيل يمر من وسطها. فجاء صياد كافر بالله، فرمى شبكة الصيد وسحبها فإذا هي مملوءة أسماك، فلم يشكر الله تعالى وأخذ السمك وذهب، وهنا تعجب موسى! هذا ملحد مشرك وهو بأول رمية أخرج الشبكة مملوءة بالسمك، ثم جاء مؤمن فقير رمى شبكة الصيد لم يحصل على شيء، رماها ثانية لم يحصل على شيء، رماها مرة ثالثة فخرجت له سمكة صغيرة فأخذها وقال الحمد لله.

موسى قال: إلهي ذاك المشرك الملحد اصطاد بأول رمية مجموعة أسماك، وهذا المؤمن المصلي الشكور كلما يرميها لا يخرج له شيء ثم حصل على سمكة صغيرة وقال: الحمد لله، إلهي هل هذه هي العدالة؟

هذا سؤال على سبيل الاستفهام وليس على سبيل الاستنكار، ما هي فلسفتك وحكمتك في هذا الأمر؟

فقال الله تعالى: يا موسى انظر عن يمينك ماذا ترى؟ فنظر وإذا جنّات تجري من تحتها الأنهار، قال الله: يا موسى هذا أعدده لذك المؤمن الفقير، أنظر عن شمالك ماذا ترى؟ وإذا جهنم والنيران، قال: يا موسى هذا أعدده

للكافر، واعلم انه لا تلك الأسماك التي حصل عليها الكافر تفيده وتخلصه من جهنم، ولا تلك السمكة الصغيرة والفقر في الدنيا يضر هذا المؤمن وهذه الجنة هي عاقبته ونتيجته.

فقال موسى: يا ربي حق لمن عرفك ان يرضى بما صنعت!^(١)

أهمية الغضب لله تعالى:

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ان الله اهبط ملكين من الملائكة إلى أهل قرية ليهلكهم، فإذا رجل قائم في الليل يتعبد، فرجع أحدهما إلى ربه يعاوده، فأوحى الله إليهما ان أهلكوه معهم، ان هذا لم يتمر وجهه غضباً لي».^(٢)

نصيحة الشيعة:

الآن انتقل معكم إلى تقييم وضع شيعة أهل البيت عليه السلام في العراق، ان شيعة العراق نصحوا الله ولكتاب الله ولدين الله وهذه هي مواقفهم في بناء العراق وحقيق بهم ان ينالوا الجنة بشفاعه رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار عليه السلام.

شبهتان:

هناك شبهتان، كنت في زيارة لأحد الشخصيات المحترمة من العلماء الأجلاء الكبار، فذكر شبهتين على لسان الناس في تقييم الواقع المعاصر.

الشبهة الأولى: شبهة اليأس من الانتصار:

كما قال هذا الرجل: (ان عمر لا يعطيها لعلّي) فأنتم لا تصدقوا ان الجماعة يعطوها لكم، فهذا تعبكم ليس به فائدة والعراق يبقى بيد السنة ولا يعطوه للشيعة أبداً.

(١) أنظر كتاب المؤمن: ١٩.

(٢) أنظر: الكافي ٥: ٨/٥٨.

الشبهة الثانية: فقد الثقة بالناس:

يقول هذا الرجل: ان شيعة العراق لا تثقوا به كثيراً فإنهم في يوم من الأيام سوف يتركوكم وحدكم وتكونوا مثل مسلم بن عقيل.

واقع الشيعة في العراق:

جواب هاتين الشبهتين:

أولاً: اننا نعمل بالتكليف الإلهي.

الإمام عليّ كان يعرف الواقع السياسي والإمام الحسن والحسين كانا يعرفان كل الواقع السياسي. الواقع غير خفي عليهم وهم ليسوا أضعف من غيرهم في التقييم، لكن رأوا أن تكليفهم نصره دين الله والانتصار للشعوب المظلومة، الانتصار لشيعة العراق الذين كتبوا للحسين رسائل، الحسين يقول يجب ان انتصر لهم وإلا فإنهم يوم القيامة يحتجون عليّ، هؤلاء الناس الآن في العراق إذا لم نقف معهم فإنهم يوم القيامة يحتجون علينا، وأما مقولة ان عمر لا يعطيها إلى عليّ فهذا أولاً ليس تكليفنا فهو بيد الله تعالى، الحسين يُقتل أو لا يقتل، والإمام علي ينجح أو لا ينجح أصلاً هذا ليس تكليف الأنبياء والأئمة ولا واحد من الأنبياء عمل على هذا الأساس. الواجب بالنسبة لنا هو أداء التكليف، رحمة الله على السيد الحكيم كان يقول: ثقّفوا الناس على قضية أداء التكليف.

ثانياً: الثقة بالله تعالى.

الله تعالى هو الذي وعد عباده بالنصر ﴿إِنْ تَصَرُّوْا لِلّٰهٖ يَنْصُرْكُمْ﴾^(١) ليس اعتماداً على قوانا الشخصية والشعبية والمالية، وإنما بالاعتماد على الثقة بالله تعالى، وإذا كان الله هو ثقتنا وهو ناصرنا إذن علينا ان نتقدم، الفهم السياسي

في الإسلام لا يسمح باليأس ولا بالقراءة السياسية المتشائمة، الفهم السياسي واقعي، الإسلام يريد عمل ورجال وشعوب.

أما الشعب العراقي فإذا كنا نحمل نظرة سوداء عن الشعب العراقي، إذن أهل البيت لماذا أتوا إلى العراق، وكان عليهم ان يذهبوا إلى مكان آخر؟ لماذا أهل البيت لم يجدوا ملجأ إلا العراق؟ ولم يجدوا شيعة إلا العراق؟ لقد كان هذا الشعب هو المفضل عند أهل البيت عليه السلام على شعوب الأخرى لا نصرة لها ولا ولاء لها.

عندما نقرأ التاريخ نجد مع الأسف ان القراءة الموجودة الآن هي القراءة الأموية التي تكرس وتثقف على ان الشعب العراقي هو شعب متمرّد وفوضوي وشعب خائن، هذه هي القراءة الأموية، بينما قراءة أهل البيت عليه السلام على عكس ذلك، عندما يكون الحديث عن أهل العراق فإنه يعني الحديث عن شيعة أمير المؤمنين في كل الروايات ولعلنا سنعود إلى هذا الموضوع في محاضرات أخرى بإذن الله تعالى.

لقد مثّل أصحاب الحسين في كربلاء نموذجاً رائعاً للوفاء لأهل البيت عليه السلام حتّى قال فيهم الحسين: «اني لا أعلم أصحاباً خير من أصحابي».

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثامنة والثلاثون:

بحث في الإرادة الإلهية

«وعزائمه فيكم».

حديثنا اليوم عن الإرادة الإلهية ولكن هذا الحديث يجب أن يرتبط أيضاً بالإمام الجواد عليه السلام حيث نعيش في هذا اليوم بين مولدين بين ولادة الإمام الجواد عليه السلام وولادة الإمام علي عليه السلام ولهذا رأيت أن أتحدث عن الإمام الجواد وأوجّل الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام.

محور الحديث اليوم قوله: «وعزائمه فيكم» نحن فسّرنا وشرحنا جُمْلَ سابقة من الزيارة الجامعة «وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم، وأمره إليكم» اليوم حديثنا عن هذا المقطع «وعزائمه فيكم» يعني عزائم الله موجودة في أهل البيت عليهم السلام.

ما معنى عزائم الله؟

وكيف هي موجودة في أهل البيت؟

هذا ما نريد الحديث عنه اليوم.

المعنى اللغوي لكلمة عزائم:

العزائم: جمع عزيمة وعزم.

العزم: بمعنَى الإرادة الراسخة، تقول هذا الأمر يحتاج إلى عزم يعني

إلى إرادة ثابتة قوية لا تتغير.

ومنه قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١).

يوجد أنبياء يصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل عزم أي عندهم إرادة

عليها قوية وهم خمسة من الأنبياء (نبينا محمد ﷺ ثم عيسى ثم موسى ثم

إبراهيم ثم نوح عليهما السلام هؤلاء أولوا العزم حيث أن نبوتهم أصبحت نبوة عالمية لأنهم يمتلكون مثل هذا العزم، وفي نفس الوقت فإن القرآن الكريم يقول عن آدم عليه السلام: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسْيٍ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً»^(١) آدم نبي من الأنبياء وإنسان كامل لكن قدرة هذا الإنسان الكامل أقل من قدرة الأنبياء أولي العزم، إن الأنبياء يتفاضلون «وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ»^(٢) كلهم معصومون لكن ليس جميعهم في رتبة واحدة.

آدم بما أنه أول هؤلاء الأنبياء كانت قدرته في الإمساك بالقرارات الإلهية أضعف من بعض الأنبياء فالآية «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسْيٍ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً» تواجه سؤالاً عريضاً كيف يجتمع ذلك مع قولنا بعصمة الأنبياء؟ كيف يقول القرآن: «فَتَسْيٍ»؟ وكيف يقول: «لَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً»؟ هل هذا يتقاطع مع العصمة أم لا؟ هل ارتكب آدم معصية أم قام بعملية نسيان تكويني حسب قدراته البشرية؟

هذا بحث نؤجله وقد مضى بعضه في محاضرات سابقة، إن محل الشاهد في الآية هو العزم والعزيمة حيث بعض الأنبياء هم أولوا العزم.

لاحظوا نبينا ﷺ فإن أول ما نقرأ في السلام عليه: «السلام على رسول الله، السلام على محمد بن عبد الله، أمين الله على وحيه، وعزائم أمره» إن رسول الله ﷺ يتحمل الأمانة على الوحي، والوحي عبارة عن القرارات التشريعية.

وكذلك الأمانة على عزائم أمر الله تعالى وهي عبارة عن القرارات الإلهية التكوينية الكبرى.

رسول الله ﷺ هو أمين الله على القرارات التشريعية كما هو أمين الله على العزائم الإلهية التكوينية ولهذا نقرأ في الدعاء في تعقيبات الصلاة: «اللهم إنني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك» نحن نريد الرحمة الإلهية

ونريد التطابق مع القرارات الإلهية الراسخة، نريد تلك القرارات أن تكون لنا وبنفعنا ونحن متطابقون معها.

بحث في الإرادة الإلهية:

الإرادة الإلهية على مستويين:

عندنا إرادة إلهية ثابتة لا تتغير.

وإرادة إلهية متغيرة.

وبعبارة أخرى عندنا قرارات إلهية كونية ثابتة لا تتغير، وعندنا قرارات

إلهية قابلة للتغيير حسب تغيير شروطها الموضوعية.

قرارات ثابتة:

مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١) هذا قرار إلهي لا

يتغير، هنا القرآن الكريم والأئمة يقولون إن هذه قرارات ثابتة لا تتغير يعني أن الله تعالى أخبر بها وإذا تغيرت يكون ذلك كذباً تعالى الله عنه.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٢)

فهل من الممكن أن الله تعالى يخذل رُسُلَه ويطردهم؟ لا يمكن لأن نصرهم هو قرار ثابت.

وهكذا قرار تقسيم الناس إلى الجنة والنار كما في قوله تعالى: ﴿امْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا

الْمُجْرِمُونَ﴾^(٣) ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّعِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٤) هذه الجنة أما النار ففي قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ

(١) الحجر: ٤٣.

(٢) غافر: ٥١.

(٣) يس: ٥٩.

(٤) ق: ٣١.

كَانَتْ مُرْصَاداً^(١) فهل ممكن أن يقول قائل إن هذا القرار اتخذه الله تعالى لكن لعله بعد ألف سنة أو ألفين سنة فإن الله تعالى يبدل هذا القرار هل هذا يصح؟ هذا لا يصح لأن هذه حسب النص القرآني قرارات ثابتة غير قابلة للتغيير تنبثق من إرادة ثابتة إلهية.

قرارات متحركة:

يوجد نموذج ثاني نسميه قرارات إلهية متغيرة تنبثق عن إرادة متغيرة.
مثلاً أنت بالأمس فقير ولكن الله تعالى رزقك فأصبحت غنياً، أو كنت مريضاً واليوم عافاك الله تعالى، هذا بقرار إلهي لكن هذا القرار متغير حسب إرادة الإنسان مثل ﴿إِنْ تَشْرَوْا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^(٢) ﴿اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.
هذا القرار متحرك حسب فعلك أنت ﴿قُلْ مَا يَعْبَهُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٣) الرزق قرار إلهي متحرك والأجل كذلك والعافية كذلك والنصر كذلك وهكذا غيرها.

صلة الرحم تطيل العمر، إذن الأجل هو قرار متغير.
نعرف من ذلك أن الإرادة الإلهية ليست ثابتة دائماً، أحياناً هي ثابتة نسميها عزائم أمره وهي الإرادات الراسخة الثابتة.
يوجد لدينا في القرآن سِوَر العزائم وهي أربع سور وهي عبارة عن السِوَر التي يجب فيها السجود ولهذا سميت عزائم إشارة إلى أن السجود فيها واجب وعزيمة. وتلك السور هي: (العلق، فصلت، السجدة، النجم).
كل هذا الحديث كان في الحقيقة مقدمة حتى تصل إلى كيف أن الأئمة الأطهار كانت عزائم الله تعالى موجودة فيهم.

(١) النبأ: ٢١.

(٢) محمد: ٧.

(٣) الفرقان: ٧٧.

دلالات «وعزائمه فيكم»:

هناك مجموعة تفاسير لكن الشيء الواضح والمقبول والذي يتسق مع هذا النص، هو أن الإرادة الإلهية الراسخة موجودة في أهل البيت عليهم السلام. الله تعالى خلق هذا الكون لأهداف ولغايات، هذه الغايات والأهداف تجسدت في أهل البيت.

مثلاً كلية الفقه في النجف الأشرف أنشئت لتخريج طلاب العلوم الدينية الذي يجمعون بين العلوم الحديثة والقديمة، هذه الكلية خرجت أول طبقة من تلاميذها مثل الشيخ أحمد الوائلي رحمة الله عليه. تستطيع أن تقول إن أهداف كلية الفقه تلخصت وتبلورت في الشيخ أحمد الوائلي، أي أن تلك العزائم أي الأهداف الراسخة التي أسس المؤسسون كلية الفقه لأجلها موجودة في الطبقة الأولى من خريجي كلية الفقه. وهكذا تقول إن عزائم الحوزة العلمية وأهداف الحوزة متجسدة ومتبلورة ومتلخصة في المرجعية الدينية، في المرجع الأعلى يعني أنه يجسد كل الأهداف.

الأهداف الإلهية من خلق هذا الكون الذي لم يخلقه الله تعالى عبثاً، ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) هذا الهدف تجده قد تلخص وتبلور في الأئمة والأنبياء، هذا هو التفسير المقبول والواضح جداً الذي يمكن أن نقدمه لهذا النص في الزيارة الجامعة، مثال ذلك الإمام الجواد عليه السلام.

وقفه مع الإمام الجواد عليه السلام:

عُمَر بن الفرج وهو أحد المتعصين ضد أهل البيت وقد جعله المتوكل العباسي والياً على مكة والمدينة وقام بحصار كبير على أهل البيت عليهم السلام وعلى العلويين، ومنع الناس من أن يصلوهم ومنعهم من أن يسألوا الناس

ومنعهم من الكسب والعمل والتجارة، بحيث تقول الرواية إن العلويات أصبحن لا يملكن إلا قميصاً واحداً يتناقلنه في الصلاة ثم يجلسون بدون قميص، نتيجة هذا الحصار الشديد، وهذه صورة من صورة الاستبداد الذي نال أهل البيت عليهم السلام أيام الحكم العباسي.^(١)

يذكر المؤرخون أن عمر بن الفرج قبل أن يصبح والياً على مكة والمدينة وحين كان في بغداد وكان الإمام الجواد صغير السن وعمره أقل من عشر سنوات. قال للإمام الجواد: يا أبا جعفر الشيعة يقولون أنك تعلم وزن هذا الماء (ماء دجلة)؟! فقال له الإمام: أترى إن الله تعالى لو أراد أن يجعل علم هذا الماء عند بعوضه، أترى أن الله قادر على ذلك أو عاجز؟ قال له: بل هو قادر.

فقال له الإمام عليه السلام: إذا كان الله تعالى قادراً أن يعطي علم وزن هذا الماء لبعوضة، فأنا أكرم على الله من بعوضة.^(٢)
أنظروا كم هو جواب رائع.

في قصة أخرى للإمام الجواد عليه السلام على عهد المأمون العباسي وكما تعرفون فإن المأمون العباسي كان لديه خياران في مواجهة أهل البيت، خيار الاحتواء وخيار الاستئصال والقمع، المتوكل العباسي قام بعملية القمع والقتل، ولكن المأمون قام بسياسة الاحتواء وتطويق أهل البيت عليهم السلام دون عداء ظاهر.

جمع المأمون الوزراء والعلماء عندما أراد أن يزوج الإمام الجواد من ابنته (أم الفضل) وهو صغير السن. لكن شخصيته قد ذاع صيتها في البلاد، بحيث أن المأمون كان يفخر أن يعطي ابنته للإمام.

(١) مقاتل الطالبين: ٣٩٦.

(٢) عيون المعجزات: ١١٣.

وحينما جمع العلماء والحكماء ومن ضمّهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم حتّى يضعوا مجموعة مسائل للإمام الجواد لعله يُفهم ولا يعرف الجواب.

الإمام الجواد انتصر عليهم في هذه المعركة الثقافية، وبعد أن أجاب على أسئلة يحيى بن أكثم قال له: يا يحيى بن أكثم سألتني مسائل وأنا أجبتك عليها، والآن تسمح لي أن أسألك؟

قال: سل يا بن رسول الله فإن علمت أجبتك وإن لم أعلم تعلّمت منك.
قال: فقال له أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا محمّد ما تقول في رجل حرمت عليه امرأة بالفداء وحلت له ارتفاع النهار وحرمت عليه نصف النهار، ثمّ حلت له الظهر، ثمّ حرمت عليه العصر، ثمّ حلت له المغرب، ثمّ حرمت عليه نصف الليل، ثمّ حلت له الفجر، ثمّ حرمت عليه ارتفاع النهار، ثمّ حلت له نصف النهار؟» فبقي يحيى والفقهاء بلسا خرساً.^(١)

ثمان حالات خلال أربع وعشرين ساعة، يحيى بن أكثم عندما سمع السؤال المعقد بهذا الشكل قال: لا والله لا أهتدي إلى جواب ذلك سبيلاً أبداً، لاحظوا قدرة الإمام واستيعابه للفكر الديني والفقّه بأي مستوى، قال له: يا بن رسول أنت أوضح لي هذا المشكل.

قال الإمام عليه السلام: «رجل نظر إلى مملوكة لا تحل له، اشتراها فحلت له، ثمّ اعتقها فحرمت عليه، ثمّ تزوجها فحلت له، فظاهر منها فحرمت عليه، فكفر الظهار فحلت له، ثمّ طلقها تطليقة فحرمت عليه ثمّ راجعها فحلت له، فارتد عن الإسلام فحرمت عليه، فتاب ورجع إلى الإسلام فحلت له بالنكاح الأوّل».^(٢)

ان محلّ الشاهد في هذه القصة ان المأمون والجماعة حين رأوا هذا التسطير الفقهي العجيب وهذا الإبداع العلمي والروعة في هضم الفكر الإسلامي، قال: ويحكم

(١) تحف العقول: ٤٥٤.

(٢) تحف العقول: ٤٥٤.

أما علمتم أن أهل هذا البيت ليسوا خلقاً من هذا الخلق أما علمتم أن رسول الله ﷺ بايع الحسن والحسين عليهما وهما صبيين...^(١)

هذا هو معنى «وعزائمه فيكم»، أن الله تعالى قراراته الكبرى موجودة فيهم.

لماذا تكون النبوة والإمامة في صبي؟

هنا يوجد سؤال:

لماذا يجعل الله تعالى النبوة عند صبي في المهد أحياناً والإمامة عند صبي عمره أقل من عشر سنوات؟
هناك ثلاثة أجوبة:

الجواب الأول: الله تعالى يريد أن يمتحن الناس، ليرى من منهم يصدق ومن يكذب، فهو امتحان عسير. وهذه سنة الله تعالى أن يمتحن العباد.

الجواب الثاني: أن هذا زيادة لقوة الحجة، أي قوة الاستدلال وليس لامتحان العباد بل للمزيد من تقديم البرهان القوة لإرشاد الناس إلى إرادة الله تعالى.

مثال ذلك إن الله تعالى لم يعط بلاغة القرآن إلى المتنبّي أو أبي العلاء المعري وإنما أعطى بلاغة القرآن إلى رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا هو بشاعر، فكيف جاءكم بالقرآن، هذا دليل على الإعجاز، هذا يسمى قوة البرهان.

وهكذا عيسى عليه السلام حينما تكلم مع الناس وهو في المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾^(٢). هذا إعجاز وقوة برهان يكشف عن الارتباط بقوة غير عادية ولهذا فقد أذعنوا له.

(١) تحف العقول: ٤٥٣.

(٢) مريم: ٣٠ - ٣٢.

الإمام الجواد عندما يكون بهذا العمر لكن يمتلك هذه القوة من المعلومات، هذا في الحقيقة تعبير عن أن الله تعالى يريد أن يعطينا دليلاً قوياً.

الجواب الثالث: إن المسألة مسألة لياقات، بمعنى إن النبوة والإمامة وهكذا المرجعية الدينية وسائر المقامات الدينية هي في الحقيقة لياقات وليست توزيعاً اعتبارياً من قبل الله تعالى.

الأنبياء أصبحوا أنبياء للياقات وكفاءات خاصة كانت موجودة لديهم وغير موجودة في غيرهم وكذلك الأئمة، إذا كان هذا الصبي عنده مثل هذه اللياقة وإذا كان عيسى ويحيى عندهم مثل هذا اللياقة وحسب الخلقة الإلهية وغير موجودة عند غيرهم، هذه اللياقة هي التي تسحب النبوة والإمامة لها، فإنما يجعل الله تعالى النبوة والإمامة في طفل صغير على أساس اللياقات.

ولهذا لاحظوا عليّ بن جعفر وهم عم الإمام الرضا أي يكون عم الإمام الجواد _ عم الأب _ كان شيخاً كبيراً يوماً ما وفي جمع من الناس وهم جلوس وهذا الشيخ الكبير جالس دخل الإمام الجواد إلى المجلس تقول الرواية فقام إليه هذا الشيخ الكبير بدون نعل يركض نحوه وقبل يده وبقي واقفاً.

فقال له الإمام الجواد: اجلس يا عمّ.

قال الشيخ: كيف أجلس وأنت قائم؟

فلما رجع عليّ بن جعفر إلى البيت، قال له أصحابه: يا عليّ بن جعفر يا شيخنا ماذا صنعت بنفسك وأنت رجل كبير تتعامل مع صبي مثل هذا العمل؟

فقال: اسكتوا إذا كان الله لم يؤهل هذه الشبية وأهل هذا الطفل أنكر فضله؟ نعوذ بالله مما تقولون بل أنا عبد له!^(١)

لاحظوا أن المسألة هي مسألة لياقات أن الله أهل هذا الفتى ولم يؤهل هذا الشيخ الكبير.

تقول رواية أخرى إن الإمام الجواد أجاب عن ثلاثين ألف سؤال في مجلس واحد^(١) وهنا يأتي علماؤنا ويعطون عدة تفاسير لكيفية الاجابة على ثلاثين ألف مسألة في مجلس واحد.

التفسير الأول: إن القضية على سبيل المبالغة فهي ليست ثلاثين ألف بل ربما مائة مسألة.

التفسير الثاني: أنه أجاب على كبريات المسائل التي تنحل منها فروع فتكون ثلاثين ألف مسألة.

ومهما يكن فإنه يمثل هذا الشكل كانت منزلة الإمام الجواد عليه السلام، وكانت سياسة المأمون احتواء الإمام الجواد.

لاحظوا كيف أعطى ولاية العهد للإمام الرضا حتى يحتويه، والإمام الرضا بعد أن استشهد بالسم، أراد المأمون مرة أخرى احتواء الإمام الجواد، فزوّج ابنته أم الفضل للإمام الجواد لكن جاء بعد المأمون المعتصم ثم المتوكل وهؤلاء قاموا بسياسة القمع وبخاصة المتوكل العباسي، فبعد أن مات المأمون وأصبحت الخلافة للمعتصم العباسي كلف أم الفضل زوجة الإمام الجواد أن تدس السم، فدسته له واستشهد الإمام ودفن في مقابر قريش، وهو المكان المدفون فيه الإمام الكاظم والجواد عليهما السلام، هي مقابر قريش في الحقيقة لكن برز فيها نور الإمامين الجوادين عليهما السلام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة التاسعة والثلاثون:

الحساب الإلهي

مفهومه وحقيقته وعلاقته بأهل البيت عليهم السلام

«وإن إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم».

اليوم حديثنا عن الحساب الإلهي ومفهومه.

لماذا الحساب الإلهي؟

صور من الحساب الإلهي.

وأخيراً كيف يكون أهل البيت عليه السلام هم أصحاب الحساب يوم

القيامة؟

النص من الزيارة يقول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» بما

يعني أن حساب الخلائق يوم القيامة بعهد الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام.

إذن اليوم عندنا أربعة بحوث:

البحث الأول: مفهوم الحساب وحقيقته:

الحساب مفهوم قرآني ومعتقد إسلامي وضرورة من ضرورات الدين

أي كما نعتقد بيوم القيامة والجنة والنار كذلك من جملة الأشياء والمعاني

والحقائق التي نعتقد بها أنه يوجد يوم القيامة حساب بالإضافة إلى الميزان

والصراط والشفاعة وتطابير الكتب، أي من جملة الحقائق في يوم المعاد

حقيقة الحساب، والقرآن الكريم يفترض هذا المفهوم من البديهيّات الدينية

التي لا تقبل الجدل والمناقشة ولهذا سمي يوم القيامة بيوم الحساب.

القرآن الكريم يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(١).

القرآن يصف الناس يوم القيامة أولئك الذين يدخلون الجنة، وأولئك

الذين يدخلون النار أن هؤلاء كانوا في الدنيا بعضهم يصدق بيوم الحساب

وبعضهم يكذب بيوم الحساب. قال: ﴿ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾^(١) هذا الذي يؤمر به إلى الجنة يقول: الحمد لله اني كنت أعتقد بيوم الحساب واستعد له: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(٢).

وهكذا نجد القرآن الكريم يؤكد في عشرات بل مئات الآيات على حقيقة الحساب حيث يقول مثلاً: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٣)، وهكذا نجد أن أحد صفات الله تبارك وتعالى أنه سريع الحساب.

إذن هذه حقيقة قرآنية ولهذا نقرأ في الدعاء على لسان الأنبياء ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٤).

أيضاً القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَبْذُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهَا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٥) لا حظوا إذن أن يوم القيامة ليس فقط هو يوم الجزاء، فهناك جزاء وهناك حساب، مفهوم الجزاء هو أن الإنسان يأخذ نتيجة أعماله لكن القرآن يصعد بنا إلى مفهوم ثان هو عبارة عن حساب، أي يوجد هناك سؤال وجواب ﴿وَقَفُّهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٦).

حقيقة الحساب:

ما هو دافع الحساب وحقيقته؟ أي كيف يكون الحساب؟

هناك تفسيران للحساب:

التفسير الأول: التفسير الحقيقي.

(١) الحاقة: ٢٠.

(٢) الحاقة: ٢٠ و ٢١.

(٣) الإسراء: ١٣ و ١٤.

(٤) إبراهيم: ٤١.

(٥) البقرة: ٢٨٤.

(٦) الصافات: ٢٤.

التفسير الثاني: التفسير المجازي.

في القرآن الكريم مجموعة مفاهيم وكلمات إما نحملها على معناها الحقيقي أو نحملها على التأويل والمعنى المجازي ومن جملة تلك المفاهيم هو مفهوم الحساب، الحساب في معناه الحقيقي هو سؤال وجواب ومحاسبة، وهذا المعنى الحقيقي للحساب هو الذي يجب أن نحمل الآيات القرآنية عليه.

هناك آيات في القرآن الكريم تدعم المعنى الحقيقي للحساب مثل قوله تعالى: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ سُؤْلُونَ﴾ وهكذا قوله ﷺ في الرواية الثابتة: «إذا كان يوم القيامة لم تنزل قدماً عبد حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعما اكتسبه من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن حبنا أهل البيت»^(١) والروايات تقول: «ان أول ما يسأل عنه العبد حبنا أهل البيت»^(٢) أي عن الارتباط بالنبوة والرسالات الإلهية قبل أن تسأل عن الأعمال التفصيلية كالصلاة والصيام.

التفسير الحقيقي للحساب يقول: أن هناك سؤال وجواب بالنحو الذي نفهم ونمارسه اليوم في عالم الدنيا، بقطع النظر عن الأشغال التطبيقية له.

التفسير المجازي يقول: أن القضية هي حساب لكن ليس بالضرورة أن يكون بمعنى وجود سؤال وجواب وإنما الحساب هنا يعني النتيجة الطبيعية لأعمال الإنسان والتي هي عبارة عن عملية محاسبة طبيعية أي كمن يستعمل دواء لرفع الحمى فترفع عنه الحمى، يوم القيامة قسم يدخلون الجنة وقسم يدخلون النار وهذا الأمر على أساس حساب وموازين كما يقول القرآن أي ليس هناك فوضى وإنما هي محاسبة علمية، طبعاً هذا التفسير ليس بالضرورة أن يكون مقبولاً لكن ذكرته كتفسير من التفسيرات ويمكن أن تكون بعض الآيات القرآنية تشير إليه مثلاً قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي أن هناك عملية التحاق طبيعي للأعمال

(١) تحف العقول: ٥٦.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٦٧.

بالإنسان فكل شخص أعماله مربوطة في عنقه، «الصوم جنة من النار»^(١) و«الصلاة قربان كل تقي»^(٢) أي أن كل عمل نتيجة ملتصقة بالإنسان يوم القيامة «وكل إنسان الرزق طائفة في عنقه ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً»^(٣) وكذلك قوله تعالى: «كل نفس بما كسبت رهينة»^(٤) وهكذا من جملة الآيات التي تشير إلى هذا النمط من الحساب حينما يقول القرآن الكريم: «اليوم نحسم على أفواههم ونكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم»^(٥) أي هي عملية أو نتيجة طبيعية بدون الحاجة إلى أن تتكلم فالأيدي والأرجل ستشهد يوم القيامة، وهكذا قوله: «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء»^(٦) كذلك قوله تعالى: «والذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكبرون»^(٧) حيث كانت العملة النقدية يومئذ عبارة عن مسكوكات ذهبية أو فضية فيحمى عليها وتذاب في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم، أما الآن فهل ان هذه الآية بالضبط تقصد هذا المعنى أن هناك دراهم ودنانير تذاب يوم القيامة؟

ربما الإنسان ليس لديه ذهب وفضة، بل لديه دينار أو دولار أو أملاك عينية، فكيف نفهم الآية وما هو المقصود منها؟

يقول التفسير المجازي للحاسب أن المقصود منها هو أن ما تجمعه أيها

(١) فقه الرضا: ٢٠٤.

(٢) نهج البلاغة ٤: ١٣٦/٣٤.

(٣) الإسراء: ١٣.

(٤) مدثر: ٣٨.

(٥) يس: ٦٥.

(٦) فصلت: ٢١.

(٧) توبة: ٣٥.

الإنسان ثم لا تنفقه في سبيل الله سوف يتحول إلى وبال عليك يوم القيامة وسوف تعذب به في نار جهنم.

كنت أقرأ في التقارير الخيرية ان هناك مليوني إنسان سنوياً يموت عند الولادة في الشعوب النامية وذلك نتيجة سوء التغذية و(١٠) مليون إنسان سنوياً يموت عند عمر خمس سنين نتيجة سوء التغذية هذا في جانب، في جانب آخر لدينا في العراق كما تقول التقارير أن هناك خمسة ملايين إنسان هم تحت خط الفقر، إلى جانب ذلك هناك خبر يقول أن شمال الإمارات في رأس الخيمة هناك مساح لافتتاح محطة فضاء أي مطار لمركبة فضائية وهذا المشروع بكلفة (٢٦٥) مليون يورو تقوم به شركة سبيس أدفنيشر حيث تقوم الشركة بإعداد المحطة ومركبة فضائية للمتفرجين تتسع إلى خمسة أشخاص وتصعد بهم إلى بعد مائة كيلو متراً عن سطح الأرض لكي يشاهد القمر والنجوم والأرض من هذا الارتفاع وهذه المركبة الفضائية تتسع لخمس أشخاص، تصوروا أن خمسة أشخاص ما لا يقل عن مئة ألف دولار في المرة الواحدة لكي يسددوا نفقات كلفة المحطة وهي (٢٦٥) مليون يورو، تصوروا مدى الربح في رحلة فضائية ترفيهية وشعوب العالم ثن فقراً وجوعاً، هذا التقرير الذي قرأته لكم عن الفقر في العراق طبعاً هو نتيجة الحروب، وإلا فالعراق بلد غني، نتيجة الحروب والإرهاب وتفجر العالم العربي على العراقيين، في العراق خمسة ملايين تحت خط الفقر وهناك محطة فضاء تبنى في رأس الخيمة.

القرآن حينما يقول: ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لا ينفقونها على هذه الشعوب المحتاجة والفقيرة، طبعاً نحن لسنا بصدد نقد الترفيه ونقد الإمارات لكن نحن بصدد بيان ان الإسلام يدعو إلى

توازن وعدالة معيشية أن من غير الممكن أن شعباً متخماً هكذا وشعباً يموت نتيجة سوء التغذية هذا تفاوت طبقي وهذا من ﴿الَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾، نعم من حقل أن تصرف أموالك ويكون ذلك حلالاً في حالة إذا لم يكن إلى جانبك محتاجون أما إذا كان إلى جانبك بيوت من صفائح معدنية ومن خوص النخيل في نفس الإمارات والكويت وأبو ظبي وفي نفس الوقت فإن هناك شركة تقوم ببناء محطة لركاب الفضاء المترفين فإن هذا أمرٌ مرفوض.

الشاهد في الأمر أن هناك تفسير يقول أن الحساب يوم القيامة هو حساب بالمعنى المجازي يعني كلُّ يأخذ استحقاقه وليس بالضرورة وجود حساب وكتاب، وعلى كلي الأحوال نحن نبقي مع الظاهر القرآني الذي يقول هناك حساب وسؤال ﴿وَقَفُّهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وهو التفسير الحقيقي بدل التفسير المجازي.

البحث الثاني: لماذا الحساب؟

السؤال يقول أليس الله يعلم بواقع الإنسان فلماذا يحاسبه؟ ولماذا لا يوزع الناس إلى الجنة وإلى النار بدون حساب، بل بواقع العلم الإلهي باستحقاقهاهم. الجواب أن الحساب هو لظهار العدالة الإلهية وإقامة الحجة على الناس ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ و﴿تَكَلَّمْنَا أَيَّدِهِمْ﴾ الله تبارك وتعالى عادل ويريد أن يظهر عدالته للخلائق يوم القيامة حتى لا يبقى مجال للاعتراض.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١) وفي آية أخرى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٢) ونقيراً بمعنى النقرة الصغيرة جداً في نواة التمر وفتيلاً هو الخيط الصغير المفتول الموجود في نواة التمر أيضاً، الله يوم القيامة يريد أن يظهر عدالته من خلال

(١) النساء: ١٢٤.

(٢) النساء: ٤٩.

الحساب والكتاب فحين يقول العبد: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾^(١) إذن هناك اعتراض من قبل العباد يوم القيامة وهذا الاعتراض بحاجة إلى جواب، الحساب ليس لأجل معرفة الحقيقة، بل من أجل كشف الحقيقة للناس، وإثبات العدالة الإلهية.

البحث الثالث: صور من الحساب الإلهي:

في هذا البحث نريد أن نستعرض بعض المشاهد والصور والحقائق المرتبطة بالحساب.

الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ثلاثة لا يحاسب عليها المؤمن، طعام يأكله وثوب يلبسه وزوجة صالحة تعاونه»^(٢) الله تعالى يدعوا إلى الزهد والأنبياء وأئمتنا عليهم السلام لم يأكلوا كباقي الناس، لكن الله تعالى لم يحرم أن تأكل من أطيب الطعام ولا يحاسب على ذلك فمن المستحب أن تأكل أنت وعيالك من الطيبات وأن تدعو الضيف وتمد له مائدة جيدة فالله تعالى كريم، وكذلك الثوب الجيد والجديد لا يحاسبك عليه، كذلك فإن الله لا يحاسب من يتزوج من الرجال والنساء.

حديث آخر عن الرسول ﷺ يقول: «أول ما يسأل عنه العبد حيناً أهل البيت». وفي حديث آخر بيان كيف يكون الحساب يسيراً وكيف يكون عسيراً كما يقول القرآن الكريم مرة: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(٣) ومرة: ﴿يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٤) الرواية تقول: «حسن خلقك يخفف الله حسابك»^(٥).

(١) طه: ١٢٥ و ١٢٦.

(٢) مستدرک الوسائل ١٤: ١٧٢ ح ١٦/١٦٤٥.

(٣) الفرقان: ٢٦.

(٤) الانشقاق: ٨.

(٥) ميزان الحكمة ١: ٦٢٢.

وحديث آخر يقول: «إن صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة»^(١).
 وحديث آخر عن رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته».
 قالوا: وما هي يا رسول الله؟
 قال: «تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفوا عن ظلمك»^(٢).

البحث الرابع: كيف يكون الأئمة عليهم السلام أصحاب الحساب يوم القيامة؟
 الزيارة تقول: «وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» أي في يوم
 القيامة يكون الحساب بعهددة أهل البيت عليهم السلام، فهم الذين يحاسبون الناس!
 كيف نفهم ذلك؟
 الجواب: هناك نوعان من الحساب مباشر وغير مباشر.

الحساب المباشر يوم القيامة هو من قبل الله تبارك وتعالى مباشرة كما
 في حساب الله لأتباعه، الله مثلاً يقول يوم القيامة: «يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ
 لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٣) فالسؤال هنا مباشرة من عند الله تعالى.
 وهكذا عندنا رواية تقول: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه يوم
 القيامة»^(٤) أي أن الله يحاسبه مباشرة.

لكن يوجد يوم القيامة حساب غير مباشر وهو الذي يتولاه الأنبياء
 والأئمة عليهم السلام وهذا المعنى موجود في القرآن الكريم حيث يقول تعالى:
 ﴿كَفَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾^(٥) والروايات

(١) الدعوات: ١٢٦/١ ح ٣١٢.

(٢) البحار ٧: ٩٦.

(٣) المائدة: ١١٦.

(٤) نهج البلاغة ٣: ٨٥/٥٣ كتابه عليه السلام لمالك الأشتر.

(٥) النساء: ٤١.

تقول أن الأئمة الأطهار هم الشهداء، وهكذا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾^(١) الروايات تقول أن الأئمة الأطهار والإمام علي عليه السلام هو الذي يقف على الأعراف يوم القيامة ويشهد على هؤلاء.

صاحب تفسير المنار^(٢) العلامة رشيد رضا وهو من مفسري أهل السنة وكتابه في التفسير يشار إليه وهو تلميذ الشيخ محمد عبدة من أئمة الأزهر، في موضوع: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ وحيث تقول الروايات الشيعية أن علياً عليه السلام هو الذي يقف على الأعراف يوم القيامة، وهو الذي يؤذن في الناس في قوله تعالى: ﴿فَإِذْ مُؤَذَّنٌ بِنَبَأِهِمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣) يأتي صاحب تفسير المنار يقول: لماذا لا نقبل هذه الروايات الشيعية؟ فكثير من رواة الشيعة هم عدول، وعلي عليه السلام ليس قليلاً بشأنه أن يقف على الأعراف يوم القيامة ويكون شاهداً على أهل الجنة وعلى أهل النار، ويكون هو المؤذن بالناس حيث تقول الروايات الشيعية أن علياً هو ذلك المؤذن.

الرواية تقول أن الإمام علي عليه السلام هو المؤذن ويقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي»^(٤) علي عليه السلام يقول: «أنا المؤذن في الدنيا والآخرة»^(٥) ففي الدنيا كما جاء في سورة براءة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يوم بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ليقرأ سورة البراءة ثم سحبه وأرسل علياً عليه السلام لقراءة سورة البراءة، فعلي هو المؤذن الذي أعلن البراءة الإلهية من

(١) الأعراف: ٦.

(٢) أنظر في ذلك ما نقله العلامة الطباطبائي عن صاحب المنار في تفسير الآية: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾.

(٣) الأعراف: ٤٤.

(٤) البحار ٨: ٣٣١.

(٥) معاني الأخبار: ٥٩.

المشركين، ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾^(١) هذا أذان الدنيا وهناك أذان يوم القيامة ﴿فَأَذِنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ﴾ علي عليه السلام كما في الروايات يقول: «أنا المؤذن يوم القيامة».

الرواية أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال: «نحن أصحاب الأعراف فمن عرفنا فمآله إلى الجنة ومن أنكرنا فمآله إلى النار».^(٢)

وأنا أقرأ لكم رواية جميلة في هذا المجال تشرح كيف أن الأئمة الأطهار هم الشهداء يوم القيامة على الخلائق؟

الرواية هي واحدة من الروايات التي يجمعها مؤلف تفسير البرهان عن الشيخ الكليني وغيره ممن جمعوا أحاديث أهل البيت عليهم السلام وهي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يا جابر إذا كان يوم القيامة بعث الله ﷻ الأولين والآخرين لفصل الخطاب، دُعي أمير المؤمنين عليه السلام فيكسى رسول الله ﷺ حُلَّةً خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ويكسى علي عليه السلام مثلها ثم يصعدان ثم يُدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس فنحن والله ندخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يُدعى بالنبيين فيقامون صفيف عند عرش الله ﷻ حتى يفرغ من حساب الناس فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بعث الله علياً ويغلق على أهل الجنة إذا دخلوا فيها أبواباً لأن أبواب الجنة إليه وأبواب النار إليه».^(٣)

وفي رواية أخرى، قال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا فمن كانت مظلمته فيما بينه وبين الله ﷻ حكمنا فيها فأجابنا ومن كانت مظلمته

(١) التوبة: ٣.

(٢) تفسير الميزان ٨: ١٤٤.

(٣) أنظر: الكافي ٨: ١٥٩.

فيما بينه وبين الناس استوهبناها فوهبت لنا ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنا أحق من عفا وصفح»^(١).

طبعاً سوف تسألون كيف أن أهل البيت يحاسبون الخلائق حيث أن هذا الحساب يستغرق وقتاً طويلاً؟ وهذا سؤال علمي قد يتطور إلى سؤال آخر هو كيف انهم يحضرون في قبرنا؟ ففي ساعة واحدة قد يموت ألف إنسان فهل ان الإمام عليّ عليه السلام يحضرهم كلهم في ساعة واحدة؟ كيف يستطيع ذلك؟

هذه أسئلة لا يصعب عليكم الجواب عنها لأن عالم الآخرة هو غير عالم الدنيا، وأن قوانين وقدرات وامكانات عالم الآخرة وعالم الأرواح غير عالم الدنيا، اليوم في الدنيا العلوم تطورت حتى أن جهاز الحاسوب له القدرة على حساب مليون عملية رياضية في الثانية الواحدة هذا في الدنيا فكيف إذا أردنا أن نقيس عالم الآخرة وهو أعظم من عالم الدنيا؟ إذن ليس عجيباً أن يقف النبي ويحاسب ملايين الخلق في ساعة واحدة وكذلك الإمام عليّ عليه السلام. وليس عجيباً أيضاً أن الأئمة عليهم السلام يحضرون الناس ساعة موتهم وفي قبرهم.

شفاعة أهل البيت عليه السلام:

«إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم» ولهذا فإن الرواية تقول: ان الزهراء عليها السلام يوم القيامة تقف على باب جهنم فيؤتى بمحب مذب قد أمر به إلى النار فتقرأ الزهراء في جبينه مكتوب هذا محب أي موالى فتقول إلهي سميتي فاطمة وفطمنتي وشيعتي على النار وهذا واحد من شيعتي يؤمر به إلى النار فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنة».

وطبعاً مثل هذه الرواية عن رسول الله ﷺ يقول: «ادّخرت شفاعتي

لأهل الكبائر من أمتي»^(١) ومثلها عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه يقف يوم القيامة على الصراط ويأخذ بيد شيعة، الرواية تقول: «ان الزهراء عليها السلام تلتقط شيعتها يوم المحشر كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء»^(٢) منزلة الزهراء يوم القيامة هي منزلة عظيمة وهذه المنزلة استحقتها الزهراء بظلامتها في الدنيا وهي بنت رسول الله ﷺ الوحيدة التي كان رسول الله ﷺ يقول: «فاطمة روعي التي بين جنبي، فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن غضبها فقد أغضبني»^(٣).

لما دنت منها الوفاة قالت: يا عليّ لي إليك وصية.

قال: قلّمي يا بنت رسول الله.

قالت: إذا أنا مت فغسلني وكفني ببقية حنوط أبي رسول الله ثم شيعني

ليلاً إذا نامت العيون ولا تدع أحداً من هؤلاء الذين ظلموني يشهد جنازتي.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) الكافي للحلي: ٤٦٩.

(٢) أنظر: البحار ٨: ٥٢.

(٣) أنظر: اعتقادات المفيد: ١٠٥.

المحاضرة الأربعون:

الولاية التشريعية والولاية التكوينية

لأهل البيت عليه السلام

«وأمره إليكم».

اليوم حديثنا في موضوع عقائدي مهم تحت عنوان الولاية التشريعية والولاية التكوينية لأهل البيت عليه السلام، هذا الموضوع ننطلق فيه من هذا المقطع للزيارة «وأمره إليكم» الذي يعني أن أمر الله موكول ومفوض إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام.

ما معنى أن أمر الله تعالى مُفَوَّض وموكول إلى أهل البيت؟ هذا يأتي في سياق عدة جمل جاءت في هذه الزيارة مثل قوله: «والمظهرين لأمر الله ونهيه» وفي قوله في الزيارة: «وبأمره تعملون». حديثنا هذا اليوم إذن عن أمر الله وارتباطه بأهل البيت ماذا يعني ذلك؟

أنحاء الولاية:

عندنا ثلاث ولايات:

الولاية الأولى: هي الولاية التشريعية.

الولاية الثانية: هي الولاية السياسية.

الولاية الثالثة: هي الولاية التكوينية.

الولاية لغوياً وفي مصطلح اليوم تُسمى السلطة، فسيكون حديثنا عن سلطة أهل البيت حيث أن هناك ثلاث سلطات تشريعية وسياسية وتكوينية.

الولاية التشريعية:

السلطة التشريعية تعني أن الله تبارك وتعالى وهو المشرع الأول أعطى أمر التشريع للأنبياء والأئمة عليهم السلام فنحن نعرف الحلال والحرام من لسان الأنبياء والأئمة الأطهار، إذن السلطة التشريعية هي للأنبياء والأئمة، لأن الأمر

بمعنى القرار التشريعي ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾^(١) هذا أمر تشريعي. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٢) يأمر هنا يعني أمراً تشريعياً يعني أفعل، هذه السلطة للأتباء والأئمة.

لكن يجب ان نعرف أن النبي لا يُشرع من عنده والأئمة كذلك بل الله هو المشرع، يعني إذا سألونا من هو المشرع للدين، نقول الله هو المشرع لذا يقول القرآن: ﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الزَّيْءَ﴾^(٣) يعني الذي يُحلل ويحرم هو الله تعالى أما دور النبي هو أن ينقل الأحكام الإلهية أما السلطة التشريعية بالأصل فهي لله تعالى، لكن بما أننا لا يوجد لدينا صلة مباشرة بالله ونحن لا نسمع كلام الله تعالى بل النبي هو الوسيط الذي قُوِّضت إليه السلطة التشريعية فما يقوله النبي يقوله الله تعالى. هذا معنى السلطة التشريعية.

السؤال أن أهل البيت عليهم السلام لهم السلطة التشريعية أم لا؟

الجواب: نعم، لهم سلطة تشريعية، يعني هذا التشريع الذي ينقله رسول الله إلينا، نحن بعد رسول الله نأخذه من أمير المؤمنين الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «علّمني رسول الله ألف باب يفتح لي من كل باب ألف باب».

وهكذا حتى نصل إلى الإمام الباقر والإمام الصادق وباقي الأئمة الاثني عشر عليهم السلام فالسلطة التشريعية إذن موكولة إلى الأئمة الأطهار بعد رسول الله ﷺ ولا يشرعون من أنفسهم إنما المشرع هو الله تعالى كما جاء في الحديث الشريف: «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن

(١) الأعراف: ٢٩.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ
وحديث رسول الله ﷺ هو قول الله ﻋﻠﻴﻪ ^(١).

الولاية السياسية:

نتقل إلى السلطة السياسية وماذا تعني؟

القرآن الكريم يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ ^(٢) هنا أطيعوا ليس في المجالات التشريعية التي هي أحكام إلهية، وإنما في القرارات السياسية بمعنى إذا قال النبي حاربوا وجب ان تحاربوا وإذا قال سالموا وجب ان تسالموا.

القائد السياسي في البلاد هو رسول الله ﷺ وبعد رسول الله هم الأئمة الأطهار عليهم السلام، هذا هو معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ هذا حديث عن السلطة السياسية.

الولاية التكوينية:

لكن ما يهنا الحديث عنه اليوم هو عن السلطة التكوينية، وما يسمى بالولاية التكوينية، أهل البيت هل لهم سلطة تكوينية أم لا؟

ما معنى السلطة التكوينية؟

معناها أن أمور الكون وليس أمور الشريعة فحسب وليس أمور المجتمع السياسية فحسب وإنما أمور الكون موكولة إلى الأئمة فهم يتصرفون في الشؤون الكونية، كما أن عيسى يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فكَذَلِكَ الْأئِمَّةُ عليهم السلام لهم سلطة تكوينية تتصرف في الأمور التكوينية.

(١) الكافي ١: ١٤ / ٥٣.

(٢) النساء: ٥٩.

أهل البيت هل لهم سلطة تكوينية؟

قد يقول قائل: إن هذا النص الذي قرأناه في الزيارة الجامعة أعني قوله ﷺ: «وأمره إليكم» يعني أن أمر الله في القضاء والقدر وفي الأمر التكويني الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) هذا الأمر التكويني موكول لأهل البيت وهذا هو محل البحث اليوم.

والحقيقة أن هذا بحث عميق ولكنه مهم حيث يجب أن نعرف طبيعة فهمنا لأهل البيت ﷺ وموقعهم في الوجود، الفهم الصحيح ما هو؟

مستويات الولاية التكوينية:

هناك مستويات للسلطة التكوينية:

المستوى الأول: هو عبارة عن التصرف بأمر الكون بأذن من الله تعالى، وتجاوزاً لقوانين الطبيعة، مثلاً المريض يذهب إلى الطبيب فيعطيه دواءً فيشفى، وهذا تصرف في أمور الكون وفي أمور البدن، لكن ما هو الفرق بين تصرف هذا الطبيب وتصرف عيسى بن مريم؟ الفرق هو أن عيسى يأتي إليه شخصٌ أعمى فيمسح على عينه فيتعافى، ما الفرق بين الطبيب وعيسى؟ وهل هناك فرق؟ نعم يوجد فرق.

الفرق أن الطبيب يعمل وفق القوانين الطبيعية أما عيسى فهو يعمل ليس وفق القوانين الطبيعية وإنما يتعدى تلك القوانين، فمثلاً الطبيب يجري عملية للمريض فيتعافى، هذه قوانين طبيعية أما عيسى ﷺ فهو لا يقوم بعملية جراحية وإنما يمسح على عينه ويقرأ له دعاءً فيتعافى.

فرسول الله ﷺ لما جاءوا بعليّ ﷺ في معركة خيبر وكان أرمداً لا يبصر، رسول الله أخذ من لعاب فمه ومسح به على عين الإمام علي فيتعافى. هذه ليست قوانين

طبيعية. كذلك يوسف عليه السلام قال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾^(١) فجاؤوا بالقميص وهم ما زالوا خارج الدار قال يعقوب: ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنُ تَنْتَدُونَ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنُ جَاءَ الْبَشِيرُ آتَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾^(٢) فهذا خارج عن فعل القوانين الطبيعية، وإنما هذا تصرف في الأمور الكونية وهو الذي نسميه سلطة تكوينية أو ولاية تكوينية والذي يعني:

أولاً: هو تصرف بدون قوانين الطبيعة وإنما عبور وتجاوز لقوانين الطبيعة.

ثانياً: هو بإذن الله ﴿أَبْرَأُ الْأَكْثَرِ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) فبدون إذن الله فإن عيسى لا يستطيع أن يفعل شيئاً بل الله تعالى هو القادر على أن يحيي الموتى وإنما عيسى مجرد وسيط.

هذا هو المستوى الأول من السلطة التكوينية.

السؤال: إن هذا المستوى الأول هل موجود عند نبينا ﷺ والأئمة الأطهار؟ وما هو الدليل عليه؟

الجواب: نعم هو موجود لأنه في الحقيقة هو فعل الله تعالى وإظهار لكرامة هذا العبد الولي، الله يظهر كرامته ويجري الخير والبركة على يده وهذا قد يجري لكثير من الأولياء أو الصالحين، يدعو الله تبارك وتعالى فيشفى المريض هذا بإذن الله تعالى، هذا نسميه سلطة تكوينية مشروطة بإرادة الله تعالى فعيسى عليه السلام والأنبياء والأئمة لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً بدون إرادة الله، بدليل أن النبي ﷺ يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾^(٤) الأنبياء قُتلوا ومرضوا لماذا لم يدفعوا عن أنفسهم مرضاً؟ أيوب كان مريضاً

(١) يوسف: ٩٣.

(٢) يوسف: ٩٤ - ٩٦.

(٣) آل عمران: ٤٩.

(٤) الأعراف: ١٨٨.

أربعين سنة، لماذا لم يدفع عن نفسه المرض لو كان قادراً على كل شيء ولو كان لديه سلطة تكوينية مطلقة؟ الإمام موسى بن جعفر كان سجيناً أربعة عشر سنة في السجون العباسية لماذا لم يخرج من السجن؟ الجواب: إن تلك الولاية مشروطة بإذن الله تعالى وليست مطلقة.

قصة السيد مهدي الحكيم في باكستان:

رحمة الله على الشهيد السيد السعيد محمد مهدي الحكيم كانت أول هجرة له من العراق إلى الباكستان وفي الباكستان الناس لهم اعتقاد كبير بالعلماء والسادة والمراجع وهذا ابن مرجع، يقول السيد في تلك السنة أصابهم الجذب وفي موسم الزراعة لم يكن يوجد لديهم مطر، جاء جمع من الشيعة وقالوا سيدنا ادع لنا الله حتى ينزل المطر، قلت في نفسي: يا إلهي أنا أعرف حالي وشأني لكن هؤلاء مؤمنين ويفترضون أن لنا منزلة عندك، بجاء الأئمة ولخاطر رسول الله أنزل عليهم المطر، يقول السيد نزل المطر بشكل غزير ولعدة أيام، فجاءوا إلي وقالوا سيدنا ادع الله أن يقطع المطر!! يقول على كل حال قبلت وتوسلت بالله، إلهي أنت أكرمتنا بالأولى فأكرمنا بالثانية وأوقف المطر، يقول السيد انقطع المطر.

محل الشاهد في ذلك أن السلطة التكوينية تعني التصرف في الأمور الكونية لكن بإذن الله تعالى.

رسول الله يقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَغْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(١)
وفي آية أخرى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾^(٢)
والآية هكذا تقول: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا

(١) الأنعام: ٥٠.

(٢) الأعراف: ١٨٨.

يُجَلِّيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقَّلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعَّةٌ يُسْأَلُونَكَ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(١) السلطة التكوينية المشروطة بإذن الله تعالى موجودة في الأنبياء والأئمة ومعجزات الأنبياء وكرامات الأئمة هي من هذا القبيل.

كرامة الإمام الهادي عليه السلام:

الإمام الهادي عليه السلام ونحن نعيش في ذكرى شهادة الإمام الهادي لديه عدة معاجز هي من باب السلطة التكوينية المشروطة.

الرواة يذكرون قصة العسكر وهي أن المتوكل العباسي كان جباراً في زمانه كان له تسعون ألف فارس، بلغه أن الإمام علي الهادي له أنصار وأتباع وربما يقوم بشورة ضد الخلافة العباسية، فاستدعاه من المدينة المنورة إلى سامراء، ووضعه تحت المراقبة المشددة، يومئذ أراد المتوكل أن يظهر قوته وجنوده أمام الإمام الهادي عليه السلام فأعطى قراراً ملكياً أن كل واحد من هؤلاء الفرسان يملأ مخلاته (المخلاة هي الجراب الذي يوضع فيه علف الدابة ويعلق في رقبتها حتى تأكل من عنده) رملًا وتراباً ويأتي ويضعه في مكان محدد. فأصبح تلاً كبيراً من الرمل سمي يومئذ تل المخلاة هذا هو تل صناعي طبعاً، المتوكل العباسي طلب من الإمام الهادي أن يصعد معه على التل، ودعا الجيش أن يقوم باصطفاف عسكري، فاصطف تسعون ألف فارس، والمتوكل مبتهج ومسرورا فقال للإمام الهادي أرايت عسكري؟

الإمام الهادي عليه السلام قال له: أتريد أن أريك عسكري؟

قال: وهل لديك عسكري؟

قال أنظر إلى أعلى ماذا ترى؟

الرواية تقول: أن المتوكل العباسي نظر إلى السماء وإذا هي مليئة بملائكة مدججين مسلحين من شرق السماء إلى غربها.

قال له الإمام: هذا عسكري!! لكن يا متوكل نحن لا ننافسك في الدنيا، نحن مشغولون في أمر الآخرة فلا يشغلك شيء مما تظن.

الأئمة عليهم السلام في مرحلة من المراحل لم يجدوا من المصلحة أن يقوموا بتحريك سياسي مضاد وإنما كان تخطيطهم شيئاً آخر، رغم أنهم في الحقيقة لديهم سلطة تكوينية مشروطة بإذن الله تعالى.

قصة الساحر الهندي:

في قصة ثانية للإمام الهادي عليه السلام تقول إن المتوكل العباسي كان عنده ساحر هندي، قال له المتوكل سيدخل علينا شخص أريد أن تعمل عملاً حتى نهزأ به، وكانت هناك مائدة ممدودة فيها طعام وأرغفة خبز، دخل الإمام الهادي فقال له المتوكل ألا تأكل؟ الإمام الهادي مدَّ يده على الرغيف فقام الساحر الهندي بعمل سحري فطار الرغيف. ضحك المتوكل وضحك الجالسون، ولكن الإمام مدَّ يده على رغيف خبز آخر فطارت أيضاً وضحكوا.

الإمام الهادي عليه السلام لما رأى المجلس بهذا الشكل، التفت إلى صورة أسد كانت مرسومة على الجدار قال: أيها الأسد افترس هذا الساحر، وإذا بالأسد يتحول من صورة على الجدار إلى أسد حقيقي افترس هذا الساحر، وهنا المتوكل العباسي انهار وأصبح يتوسل بالإمام الهادي أن يرجعه، قال له: لا يرجع.^(١)

هذه القصة لا أتحدث عن صحة سندها أو عدم الصحة، إنما أتحدث عن الفكرة وهي أن الأئمة لديهم سلطة تكوينية مشروطة، فإذا كان قميص يوسف وهو

قطعة قماش يجعل يعقوب بصيراً بعد سنوات، إذا كان ذاك ممكناً إذن هذا أيضاً ممكن، هذه إرادة الله تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، هذا نسميه سلطة تكوينية مشروطة (ولاية تكوينية) وهذا هو المستوى الأول للولاية. وهناك مستوى ثاني للسلطة التكوينية.

المستوى الثاني: هي السلطة التكوينية غير المشروطة، بمعنى أن الله تعالى فوّض أمور الكون، كل الكون من شروق الشمس غياب الشمس، وهطول المطر، والزلازل، والحياة والموت وجميع هذه الأمور فوّضها إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام والأنبياء قبلهم.

طبعاً هذه النظرية نحن ذكرناها للدراسة والنقد وليس للقبول بها.

فهنالك سؤال: هل الأئمة الأطهار عليهم السلام لهم مثل هذه السلطة التكوينية؟

هل صحيح أن الله تبارك وتعالى فوّضَ أمور الكون إلى الأئمة عليهم السلام؟

وتركها لهم؟

أو أن الأئمة عليهم السلام لديهم سلطة تكوينية مشروطة وليس لديهم سلطة تكوينية مطلقة؟ هذا هو بحث الولاية التكوينية.

توجد لدينا روايات قد يقول البعض أن هذه الروايات ظاهرة في أن الأئمة عليهم السلام لهم سلطة تكوينية مطلقة وأنهم يتصرفون بأمر الكون مطلقاً وأن الله تعالى ترك لهم أمور الكون مطلقاً، أي أن الشمس إذا أشرقت فهي بأمر الإمام عليه السلام وإذا غربت فهي بأمره كذلك إذا مطرت بأمر الإمام عليه السلام هذه هي الولاية التكوينية المطلقة.

في دعاء شهر رجب يقول: «إني آملكم وسائلكم فيما إليكم التفويض وعليكم التعويض فبكم يُجبر المهيض ويُشفى المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض» أي أن المرأة لا تكون حاملاً إلا بأمر الأئمة الأطهار عليهم السلام هذا ما نقرؤه في دعاء رجب وهذا معناه سلطة تكوينية مطلقة.

وهكذا نقرأ في زيارة الجامعة أيضاً «بكم بدأ الله وبكم يختم وبكم يُنزل الغيث وبكم يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه» يعني أن النظام الكوني كله قائم بأمر أهل البيت عليه السلام ولولا أهل البيت لاختل نظام الكون كله.

هل هذا يعني سلطة تكوينية مطلقة؟

الجواب أن الأئمة الأطهار وكذلك الأنبياء كما في القرآن الكريم لهم سلطة تكوينية مشروطة ومحدودة، النصوص القرآنية تؤكد أن الأنبياء والأئمة تعاملوا وتحركوا وفق السنن الكونية وخضعوا لتلك السنن الكونية إلا ما شاء الله تعالى، نعم قد تكون هناك معجزة لكن بإذن الله، القرآن الكريم يفيد في كثير من النصوص أن النبي ﷺ يخضع للقوانين الكونية، وكذلك في الحركة الاجتماعية فإن النبي في الحروب كان يخضع خضوعاً لقوانين كونية. في عملية التغيير ولا ينتصر بالملائكة، وإذا كان ثمة انتصار بالملائكة فهي حالة إعجازية وحالة نادرة. هذا هو بحث الولاية التكوينية، إذن كيف نفسّر قوله: «بكم يُجبر المهيض ويشفى المريض...».

الجواب: له تفسيران تفسير حرفي، وتفسير أدبي.

التفسير الأدبي يعني ببركاتهم يرحم الله تعالى العباد ويشفي المريض وينزل الغيث من السماء، فهم واسطة في الفيض الإلهي.

التفسير الحرفي: يعني أن الله تعالى فوّض الأمور لهم، فالمرأة تحمل، والسماء تمطر، والمريض يشفى كل ذلك بفعل الإمام، هذا المعنى من الولاية لا نملك دليلاً عليه بل أن ولاية الأئمة، إنما هي ولاية تكوينية مشروطة، الله تبارك وتعالى هو يميّت ويحيي، «وَإِذَا مَرَضَتْ فَهُوَ يَشْفِي»^(١) ولهذا فإن الزيارة التي تقول: «وأمره إليكم» تعني أولاً: أمره التشريعي وأنه موكل للأئمة

الأطهار.. وثانياً: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ»^(١) بمعنى أن الأمر السياسي موكول للأئمة الأطهار، وثالثاً الأمر التكويني المشروط بإذن الله تعالى، ذلك أيضاً يكون بقدرة الأئمة عليهم السلام كما هو بقدرة الأنبياء كما هو ممكن أن يتحقق على يد كثير من الأولياء طالما هو بإذن الله تبارك وتعالى.

وهناك قراءة أخرى لهذه الزيارة في رواية الكفعمي «وأمره نازل إليكم» يعني ليس أن الله فوّض لكم أمر العباد وإنما أمره نازل إليكم، أمر الله هو التشريع والقرآن والقرارات الإلهية تنزل إليكم.

نحن الآن في ذكرى شهادة الإمام الهادي عليه السلام كما أننا في هذه الأيام نعيش ذكرى شهادة شهيد المحراب آية الله السيد محمد باقر الحكيم رحمته الله الذي يمثل رمزاً دينياً وسياسياً للعراق والعراقيين منذ خمس وعشرين عاماً ينادي أيها العراقيون يجب أن نتحرك ونسقط صدام، وكل هذه السنين أمضاها بالسراء والضراء لأجل هذا الهدف الكبير.

بدأ هذا الإنسان في حركته غريباً حيث لم يكن معه عشرات الأفراد. لكن الأمل والثقة بالله كان يدعوه لرفع تلك الصيحات والنداءات بوضوح.

أروي لكم قصة حدثت بعد انتفاضة شعبان حيث ذهبنا معه إلى منطقة رفحاء في السعودية والتي كان يتواجد فيها إخواننا اللاجئون العراقيون حيث تنبأ سماحته بقرب أجله حيث قال سماحته إن الآية القرآنية في سورة النصر «وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً...»^(٢) هذه الآية عندما نزلت كانت عبارة عن إيدان لرسول الله ﷺ بأنك سوف تموت حيث تنبأ رسول الله ﷺ

(١) النساء: ٥٩.

(٢) النصر: ٢.

بأن هذه الآية تؤكد له نهاية عمره الشريف، كذلك السيد الحكيم في ذلك المشهد في رفحاء وحيث أصبح هناك وفي انتفاضة شعبان تحول في كل الشارع العراقي الذي أصبح ينادي (الموت لصادم) حيث تنبأ السيد بقرب مماته لأن ذلك التحول في العراق ودخول الناس أفواجاً في عملية التغيير السياسي يعتبر نصراً، لكن شاء الله تبارك وتعالى أن يريه نصراً آخر، لأن ذلك النصر لم يستكمل فالانتفاضة لم تنجح أو لم يستكمل نجاحها.

الآن استكمل النصر بسقوط صدام وأصبح النصر نصراً حقيقياً وأصبح هناك تغيير حقيقي في العراق وبالفعل لم يكن بعد هذا النصر إلا ثلاثة أشهر حتى استشهد رضوان الله عليه، والحقيقة أن هذه كرامة لهذا الإنسان الصالح، بعد أداء صلاة الجمعة وعند الصحن الشريف وفي أول يوم من أيام رجب وفي ذكرى شهادة الإمام الباقر عليه السلام يُقتل هذا الإنسان شهيداً مقطوعاً، هذه كرامة لا ينالها إلا الصالحون والأنبياء والأولياء.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

فهرست الموضوعات

٣.....	الفصل الثاني من الزيارة.....
٥.....	المحاضرة الحادية والعشرون: التأيد بروح الله.....
٧.....	المبحث الأول: معنى روح الله.....
٨.....	الروح في القرآن.....
١٠.....	أنواع الروح.....
١٦.....	التأيد الإلهي.....
١٦.....	١ _ التأيد بالعقل.....
١٨.....	٢ _ التأيد بالملائكة.....
١٩.....	قصة ثاني اثنين.....
٢١.....	الصحبة ومداليلها.....
٢٥.....	المحاضرة الثانية والعشرون: خلافة أهل البيت عليهم السلام
٢٧.....	الأرض.....
٢٧.....	الخلافة.....
٢٨.....	تفسير سؤال الملائكة.....
٢٩.....	لماذا هبط آدم إلى الدنيا.....
٢٩.....	قيمة الدنيا.....
٣٠.....	نادي الضحك.....
٣٠.....	الخلافة الخاصة.....
٣١.....	حاجات الإنسان.....

١ _	الماديات.....	٣١
٢ _	المعنويات.....	٣١
	الدعاء للغني.....	٣٢
	كعب بن زهير.....	٣٤
٣ _	التشريعات.....	٣٥
	امتداد الخلافة.....	٣٥
	الإمامة بعد النبي ﷺ.....	٣٦
	الإمامة بعد المعصوم.....	٣٧
	المحاضرة الثالثة والعشرون: الشهادة على الخلق.....	٣٩
	الشهادة على الخلق.....	٤١
	مستويات الاشراف.....	٤٢
	الشهادة في الآخرة.....	٤٣
	محمّد وعليّ يوم القيامة.....	٤٥
	موقع الأئمة السياسي.....	٤٧
	ثلاث نظريات.....	٤٨
	النظرية الإسلامية.....	٤٩
	قصة هشام بن الحكم.....	٥٠
	الأئمة يعلمون سرائر الناس.....	٥٣
	قصة داود الرقي.....	٥٣
	الفقهاء نواب الأئمة.....	٥٤
	النظرية الديمقراطية.....	٥٥
	المحاضرة الرابعة والعشرون: الصراط مدلوله وحقيقته.....	٥٩
	الطريق إلى الله.....	٦١

٦٢	صراط الدنيا وصراط الآخرة.....
٦٤	عصمة القرآن.....
٦٥	روايات جميلة عن الصراط.....
٦٧	الشيعة على الصراط.....
٦٨	الرحم والأمانة.....
٦٨	نظرية ابن عربي.....
٧٠	قصة هود.....
٧٣	المحاضرة الخامسة والعشرون: العصمة معناها، دليلها، مساحاتها، مناقشات قرآنية ...
٧٥	البحث الأول: معنى العصمة.....
٧٦	العصمة في المفهوم العقائدي.....
٧٦	البحث الثاني: مساحات العصمة.....
٧٨	نظرية الشيعة في العصمة.....
٧٨	البحث الثالث: الدليل على العصمة.....
٧٩	الدليل الأول: الدليل العقلي.....
٧٩	الدليل الثاني: الدليل القرآني.....
٨٠	الدليل الثالث: دليل السنّة.....
٨١	البحث الرابع: مناقشات قرآنية.....
٨٢	دفاعات عن آدم.....
٨٣	مناسبة دحو الأرض.....
٨٥	نشوء الحياة.....
٨٥	نظرية الامتداد والانكماش.....
٨٦	معصية يونس.....
٨٧	اعتراف الأئمة.....

٨٩	المحاضرة السادسة والعشرون: الفتنة أنواعها وطرق النجاة منها
٩١	مدلول كلمة الفتنة
٩٤	التشاور مع الزوجة الصالحة
٩٦	قصة عن الفتنة الشيطانية
٩٧	الفتنة العامة والفتنة الخاصة
٩٧	فتنة ناقة صالح
٩٩	الموقف من الفتنة
١٠٠	الدروع الأربعة
١٠١	أهل البيت والفتنة
١٠٢	رواية شق الصدر
١٠٢	سفينة النجاة
١٠٣	المحاضرة السابعة والعشرون: الميثاق الإلهي نماذج وتطبيقات
١٠٥	المواثيق بين الله والإنسان
١٠٨	التجربة الفاشلة لبني إسرائيل
١١٠	تفسير رضى الله عن الصحابة
١١٢	أسس العلاقة بين الله والإنسان
١١٢	الأساس الأول: المحبة واللفظ
١١٢	الأساس الثاني: القانون
١١٣	الأساس الثالث: الاحترام
١١٤	مواثيق متقابلة
١١٦	حكم العهد
١١٧	العهود بين الناس
١١٨	آثار نقض العهد

عوامل قساوة القلب.....	١١٨
المحاضرة الثامنة والعشرون: منهج أهل البيت عليه السلام في التبليغ الإسلامي.....	١٢١
سبيل الله.....	١٢٣
أركان الدعوة إلى الله.....	١٢٤
وجوب التبليغ والدعوة.....	١٢٥
مناهج التبليغ.....	١٢٦
قصة عبد الله بن أبي.....	١٢٦
منهج الاقناع العلمي.....	١٢٨
قصة بشر الحافي.....	١٢٩
قصة إبراهيم عليه السلام والأصنام.....	١٣٠
ثلاث كلمات تشبه الكذب.....	١٣١
زوجة إبراهيم عليه السلام	١٣٢
الإسلام هل انتشر بالسيف؟.....	١٣٣
نموذج ثورة الحسين عليه السلام	١٣٤
المحاضرة التاسعة والعشرون: الصبر.....	١٣٧
صبر الشيعة.....	١٣٩
الصبر قرين الإيمان.....	١٤٠
مقابل العجلة والجزع.....	١٤١
الصبر على العمل.....	١٤٢
صبر الإمام علي عليه السلام	١٤٢
صبر العوام وصبر الخواص.....	١٤٣
ذكرى انتفاضة شعبان.....	١٤٥
المحاضرة الثلاثون: الجهاد أنواعه ومستوياته ونماذجه.....	١٤٩

١٥١	كبريات الإسلام.....
١٥٢	المعنى العام للجهاد.....
١٥٣	الجهاد السياسي الثقافي.....
١٥٤	عباد البصري.....
١٥٥	شروط الجهاد.....
١٥٥	الشرط الأول: سلامة الأهداف.....
١٥٥	الشرط الثاني: سلامة القيادة.....
١٥٦	الشرط الثالث: القدرة والاستطاعة.....
١٥٦	الشرط الرابع: سلامة المناهج والأساليب.....
١٥٦	تعريف الإرهاب.....
١٥٨	قصتان في معركة تبوك.....
١٦١	المحاضرة الحادية والثلاثون: المحافظة على السنة.....
١٦٣	معنى السنة.....
١٦٣	سنة الله.....
١٦٤	نماذج من السنة الإلهية.....
١٦٥	قابلية السنن للتغيير.....
١٦٦	قصة حامل الحطب.....
١٦٧	الاستثناء من القاعدة.....
١٦٨	سنة النبي ﷺ وأهل البيت عليه السلام.....
١٦٩	ثلاثة سنن.....
١٦٩	قصة المسيحي الذي صار مسلماً.....
١٧٠	الأعرابي يدخل الإسلام.....
١٧١	ذكرى شهادة الإمام الرضا عليه السلام.....

١٧٢	التشكيك في فضل زيارتهم
١٧٣	أنواع الزيارة
١٧٥	روايات مضادة
١٧٦	ما هو البرزخ؟
١٧٧	المحاضرة الثانية والثلاثون: القضاء الإلهي
١٧٩	البحث الأول: معنى القضاء
١٧٩	معاني القضاء في القرآن
١٨١	تسليم أهل البيت عليه السلام
١٨٢	الإسلام والتسليم
١٨٢	قصة العابد في زمن موسى عليه السلام
١٨٣	دعاء الصباح والمساء
١٨٤	جواب لكل سؤال
١٨٥	التسليم العلمي والجهلي
١٨٦	من سألنا أعطيناه
١٨٧	تسليم الأئمة عليهم السلام
١٨٩	المحاضرة الثالثة والثلاثون: القضاء والقدر الثابت والمتغير
١٩١	بحث في القضاء والقدر
١٩١	المفهوم الإجمالي للقضاء والقدر
١٩٣	الصورة التفصيلية للقضاء والقدر
١٩٥	قصة ذي النمرة
١٩٦	عوامل تغيير القضاء الإلهي
١٩٦	قصة التمديد في عمر الملك
١٩٧	دعاء زكريا

١٩٨	دعاء سليمان وقصته
١٩٩	ما هي فتنة سليمان؟
٢٠١	سليمان هل يطلب الملك؟
٢٠٣	الملك في الإسلام
٢٠٥	المحاضرة الرابعة والثلاثون: أهل البيت عليهم السلام محور الحق
٢٠٧	المعنى اللغوي
٢٠٨	حاجة الحق إلى محور
٢٠٩	فروض في مقياس الحق
٢١١	العقل النظري والعقل العملي
٢١٣	التعددية الدينية والمذهبية
٢١٤	مستويات التعددية
٢١٥	روايات في وحدانية الحق
٢١٧	آيات قرآنية في التعددية
٢١٩	كرامة الزهراء عليها السلام
٢٢٣	المحاضرة الخامسة والثلاثون: النظرية الإسلامية في الحق الوحدة والتعددية
٢٢٥	البحث الأول: الحق واحد أو متعدّد؟
٢٢٥	مفهوم الحق
٢٢٧	مجالات الحق
٢٢٨	النظرية الإسلامية في الحق
٢٢٨	وحدة الحق
٢٢٩	تعددية الاجتهاد
٢٣٠	نموذج الاجتهاد النفعي
٢٣١	البحث الثاني: التعددية الدينية

٢٣٥	أهل البيت عليه السلام هم صراط الحق
٢٣٧	المحاضرة السادسة والثلاثون: ميراث النبوة
٢٣٩	أنواع التركة
٢٤١	وسائط التوارث
٢٤٢	ميراث النبوة
٢٤٣	وحدة النبوة والمُلك
٢٤٥	خصائص حكومة داود
٢٤٦	مكافحة الفساد الإداري
٢٤٧	أسطورة بساط الريح
٢٤٨	دعاء للشباب
٢٤٩	نتيجة البر بالوالدين
٢٥٠	النبوة هل هي وراثية؟
٢٥٠	قصة آبشالوم
٢٥٣	المحاضرة السابعة والثلاثون: عودة الخلائق يوم القيامة
٢٥٥	مسيرة البدء والعودة
٢٥٦	العودة إلى أهل البيت عليه السلام
٢٥٩	نظرية الوسائط
٢٦٠	مشاهد القيامة
٢٦١	ضمان الجنة
٢٦٣	أهمية الغضب لله تعالى
٢٦٣	نصيحة الشيعة
٢٦٣	شبهتان
٢٦٤	واقع الشيعة في العراق

٢٦٧	المحاضرة الثامنة والثلاثون: بحث في الإرادة الإلهية.....
٢٦٩	المعنى اللغوي لكلمة عزائم.....
٢٧١	بحث في الإرادة الإلهية.....
٢٧١	قرارات ثابتة.....
٢٧٢	قرارات متحركة.....
٢٧٣	دلالات «وعزائمه فيكم».....
٢٧٣	وقفه مع الإمام الجواد عليه السلام
٢٧٦	لماذا تكون النبوة والإمامة في صبي؟.....
	المحاضرة التاسعة والثلاثون: الحساب الإلهي مفهومه وحقيقته وعلاقته بأهل
٢٧٩	البيت عليه السلام
٢٨١	البحث الأول: مفهوم الحساب وحقيقته.....
٢٨٢	حقيقة الحساب.....
٢٨٦	البحث الثاني: لماذا الحساب؟.....
٢٨٧	البحث الثالث: صور من الحساب الإلهي.....
٢٨٨	البحث الرابع: كيف يكون الأئمة عليهم السلام أصحاب الحساب يوم القيامة؟.....
٢٩١	شفاعة أهل البيت عليهم السلام
٢٩٣	المحاضرة الأربعون: الولاية التشريعية والولاية التكوينية لأهل البيت عليهم السلام
٢٩٥	أنحاء الولاية.....
٢٩٥	الولاية التشريعية.....
٢٩٧	الولاية السياسية.....
٢٩٧	الولاية التكوينية.....
٢٩٨	مستويات الولاية التكوينية.....
٣٠٠	قصة السيد مهدي الحكيم في باكستان.....

٣٠١ كرامة الإمام الهادي عليه السلام

٣٠٢ قصة الساحر الهندي

٣٠٧ فهرست الموضوعات

* * *